سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

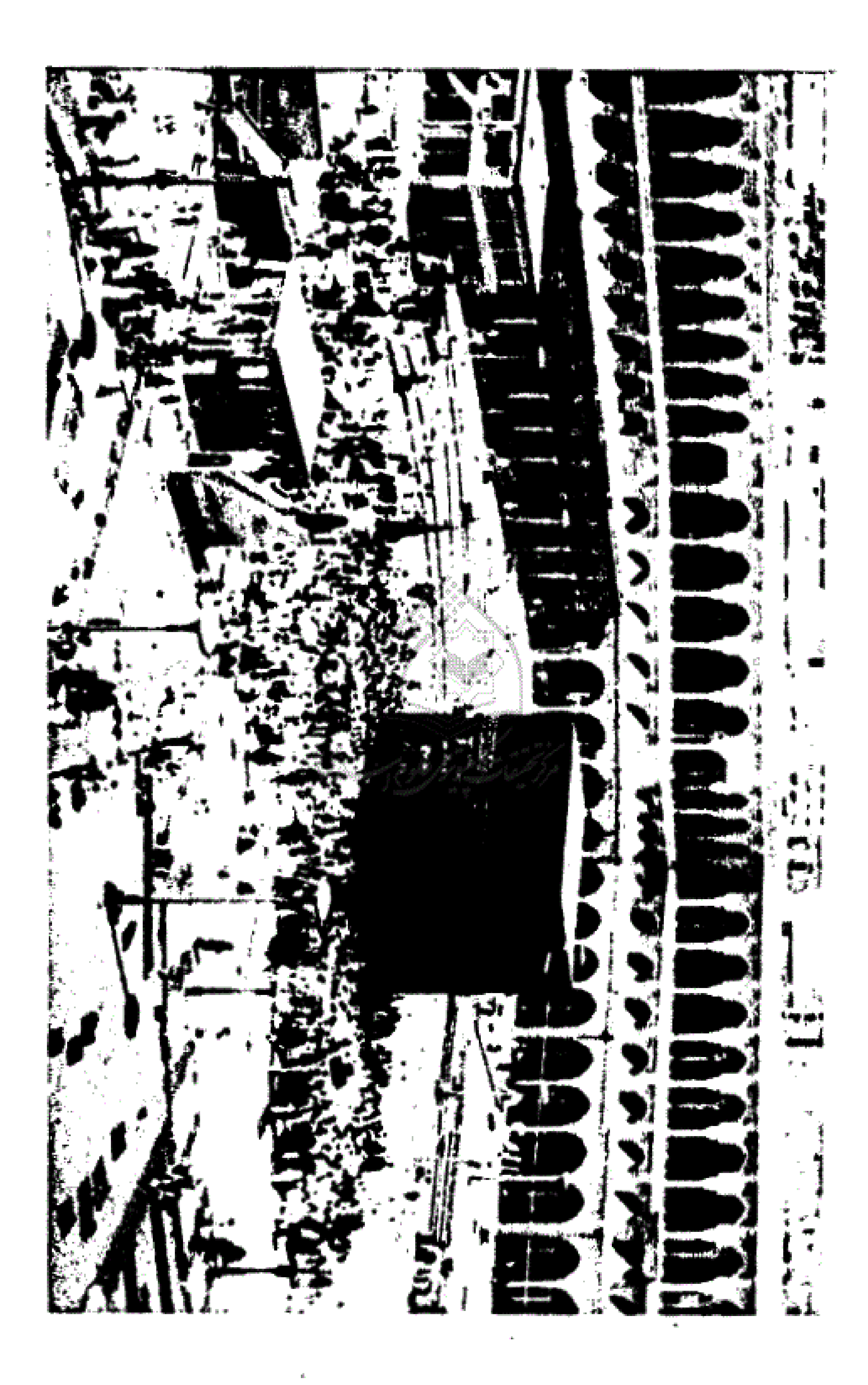
المجلد الثاني

سلسلة القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثانى



الكعبة المشرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

لبيك اللهم لبيك

نداء روحي، ما تكاد الحناجر تنطلق به حتى تلتهب له المشاعر وتتجاوب معه العواطف والخواطر ، وتضطرب له القلوب وتهتز أمامه الجوانح . إنه استجابة لنداء الرحمن، وصدى لدعوة الله عباده لزيارة بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا.

إنه يصدر من قلوب الملايين الذين جاءوا شعثا غبرا من كل مكان ، لا هدف لهم إلا أن يوفوا نذورهم وأن يطوّفوا بالبيت العتيق، وأن يتمسحوا بأركانه، ويهتفوا بالدعاء فى أحضانه .

تفيض عيونهم بالدموع ، وتمتلىء قلوبهم بالرجاء ، وتلهج ألسنتهم بالدعاء . ويلقون بأحمالهم على أعتاب بيت الله ، ويعودون وقد تطهرت أرواحهم . وغُفرت ذنوبهم ، وأصبحوا كيوم ولدتهم أمهاتهم طاهرين مطهرين .

إنه اللقاء الكبير فى هذا البيت الكبير الذى يفتح ذراعيه الحانيتين ليحتضن هؤلاء الضارعين المستجيبين لأمر الله الراجين عفو الله ..

ومن هؤلاء ؟ إنهم ضيوف الرحمن الذين سعَوْا من أقصى الأرض يُلبُّون دعوته التى هتف بها خليله منذ عهد سحيق ، حين قال له :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾[1]

---

(١) الحج ٢٧ ، ٢٨.

ومنذ أن هتف إبراهيم - عليه السلام - بدعوة الناس لحج بيت الله الحرام ، ومكة تشهد كل عام وفوداً من كل مكان تجتمع فى صعيد واحد ، فى ألوان شتى ، وألسنة مختلفة ، وأجناس متعددة، ولكن هدفهم واحد .. فاللقاء الوحيد الذى يشد هذه الوفود جميعا هو لقاء الله في بيته، والنداء الوحيد الذى يجمعها هو : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ..

والهدف الوحيد الذى تسعى إليه هو الفوز برضاء الله ورحمته ومغفرته.

إن الحنين إلى البيت يراود قلوب المؤمنين فى كل مكان ، سواء فى ذلك من ينطق العربية ومن لا ينطق بها ، ومن يقيم فى الحاضرة ومن يقيم فى قلب الصحراء ، وما يكاد أى حاج فى أى مكان يعلن عن عزمه على أداء الفريضة أو العمرة حتى يُهْرَعَ الناس اليه مهنئين ومودعين، وتتواكب المواكب معه هاتفة ضارعة أن يرزقه الله حجا مبرورا وذنبا مغفورا ويتمنى كل واحد من هؤلاء المهنئين والمودعين أن يكتب الله له زيارة هذا البيت الذى تغسل زيارته الذنوب ، ويقبل الله فى رحابه توبة من يتوب ، فيعود كيوم ولدته أمه طاهرا مطهرا تعلوه البهجة ويحفه النور ويكسوه الجلال والوقار .

إن معاينة هذا البيت الكريم تشيع الأمن فى النفوس، وتسكب الرضا فى القلوب ، وإن الحجاج ليعودون وقد تجددت فى حياتهم الآمال ، وازدادت ثقتهم فى نفوسهم بعد أن التقوا بإخوانهم فى الإسلام ، وتصافحت قلوبهم وأكفهم على عهد جديد أن يكونوا جميعا يداً واحدة وقلبا واحدا فى نصرة هذا الدين الذى ناداهم منذ خمسة عشر قرنا ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾[٢]

---

(٢) آل عمران ١٠٣.

إنه ليس من المصادفة أن تأتي هذه الآية الكريمة من كتاب الله بعد آيات من قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ...[3] بل هو كلام الله الخالد الذى جعل الحج الى بيته من وسائل الاعتصام وتأليف القلوب ، وذلك من أهم أهداف الحج..

إن الحج هو المؤتمر الإسلامي الكبير في هذه الربوع الطاهرة، في حمى البيت الكبير، وفي ضيافة الرب الكريم الذى يظل الحجاج برحمته، ويشملهم بعنايته ويحفهم برعايته، ويباهي بهم ملائكته قائلا : هؤلاء عبادى جاءونى شعثا غبرا من كل مكان، فاشهدوا أنى قد غفرت لهم...[4] .

هذا البيت الحرام مهوى الأفئدة وقبلة المسلمين، يسعدنا أن نتحدث عنه في تلك الصفحات القادمة .

الكعبة

تطلق الكعبة على بيت الله الحرام، ذلك البناء الذى يقع فى سرة الأرض تماما، وفى وسطها بالرسم الدقيق، فى ذلك الموضع الذى دُحيت منه الأرض فكان أول ما كان منها مكة .. وإلى هذا البناء يتجه المسلمون فى صلواتهم، وهم يلتفون حوله فى الحرم حلقات تمتد خارج الحرم إلى ما شاء الله، فلو قدر لإنسان كشف الله عنه الحجاب أن يرى لرأى حلقات على اتساع الأرض، لا يحدها البصر ولا يحيط بها النظر... كلها تتجه إلى الكعبة المشرفة. تكبر الله وتسبح بحمده..

وأصل كلمة الكعبة فى لغة العرب : البيت المربع المرتفع .

وسمى بيت الله بالكعبة لتربعه وارتفاعه ، وكل بيت مربع هو عند العرب كعبة، وقد تطلق الكعبة على الغرفة لتربعها... وقد بنيت الكعبة حينما بنيت مربعة مرتفعة .

---

(٣) آل عمران ٩٦.

(٤) اخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها - ان رسول الله ﷺ قال: ما من يوم اكثر من ان يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول: ما اراد هؤلاء ؟ حتى يقولوا مغفرتك ورضاك عنهم

ولكن هذا اللفظ غلب على بيت الله، فإذا أطلق لفظ الكعبة انصرف الذهن إلى ذلك البيت العتيق فى مكة المكرمة .

ولم يرد ذكر الكعبة فى القرآن الكريم إلا مرتين فى آيتين متجاورتين فى سورة المائدة هما :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ... ﴾[٥]

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ... ﴾[٦]

ولكن البيت الحرام ورد فى القرآن الكريم فى ثلاثة عشر موضعا ، بعضها بدون وصف ، وبعضها موصوف بقوله الحرام ، وواحد منها موصوف بقوله المحرم .

والوصف بالحرام لتعظيم شأن هذا البيت ورفع قدره، فمن دخله كان آمنا، ومن أجله أصبحت مكة كلها حرماً آمنا ، قال – تعالى :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ... ﴾[٧]

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... ﴾[٨]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٩]

---

(٥) من الآية رقم ٩٥ – المائدة.
(٦) من الآية رقم ٩٧ – المائدة
(٧) من الآية رقم ٥٧ – القصص.
(٨) من الآية رقم ٦٧ العنكبوت
(٩) آية رقم ٩١– النمل

وقد اختار الله مكان بيته ولم يتركه لأحد من خلقه .. قال - تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[10]

قال المفسرون : معنى بوأنا، أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما كان عهد إبراهيم - عليه السلام - أمره الله ببنائه ، فجاء إلى موضعه ، وجعل يطلب أثراً - يهتدى به - فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم - عليه السلام - فرئيت قواعده[11]. ولعل الله قد أطلع إبراهيم على مكان البيت قبل بنائه .

وهذا هو الذى يفهم من دعاء إبراهيم - عليه السلام - حين أنزل ابنه وأمه هاجر فى المكان الذى أصبح فيما بعد حرما آمنا استجابة لدعوته حين قال : ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ..﴾[12] .

لقد كان إسماعيل رضيعا فى ذلك الوقت، ولم تكن البقعة إلا رمالا شاسعة وجبالا ووديانا لا أنيس بها ولا حياة فيها ..

فكيف يقول إبراهيم - عليه السلام - عند بيتك المحرم وهو غير موجود ؟ إلا إذا كان يعلم أن هذا موضعه الذى كان فيه، وأنه سوف يعهد إليه بإعادة بنيانه وتشييد أركانه.

ولم يقل الله سبحانه : وإذ بنى إبراهيم القواعد من البيت، ولكنه قال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ ...﴾[13]. فدل بذلك على أن تلك القواعد كانت موجودة .

---

(١٠) آية رقم ٢٦ - الحج.

(١١) تفسير القرطبى - سورة الحج - ص ٢٨ ٤٤ ط دار الشعب.

(١٢) من الآية رقم ٣٧ - ابراهيم.

(١٣) من الآية رقم ١٢٠ - البقرة.

يقول العلماء : إن بناء الكعبة قديم ، حتى إن بعضهم ليرجع ذلك إلى ما قبل آدم - عليه السلام - ويستندون فى ذلك إلى بعض الآثار التى وردت فى ذلك، ومنها ما روى عن جعفر بن محمد - رضى الله عنه - قال :

سئل أبى وأنا حاضر عن بدء خلق البيت فقال : إن الله - عز وجل - لما قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فغضب عليهم، فعاذوا بعرشه ، وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم، حتى رضي عنهم، وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بني آدم ، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي، وأرضى عنه كما رضيت عنكم، فبنوا هذا البيت .[١٤]

فهذا الخبر يشير إلى أن البيت بنى قبل آدم وأن الذى بناه هم الملائكة.. وقد سخر الله الملائكة لعبادته ، وجعلهم يستغفرون لمن فى الأرض .

وهناك خبر آخر يشير إلى أن آدم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت بأمر ربه بعد أن هبط إلى الأرض.

فقد ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما أن الله - عز وجل - أوحى إلى آدم : إذا هبطت فابن لى بيتا ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى فى السماء .

قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حراء ، ومن طور سيناء ، ومن لبنان ، ومن الجودى ، ومن طور زيتا، وكان ربضه[١٥] من حراء[١٦] .

---

(١٤) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٢٠ ط دار الكتب.

(١٥) قال الخليل : الربض الأساس المستدير بالبيت من الصخر، ومنه ما يقال لما حول المدينة ربض - اللسان.

(١٦) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١

ولعل السر فى اختيار هذه الجبال أنها مباركة .

فجبل حراء هو الذى كان يتعبد فيه النبى - ﷺ - قبل البعثة . وهو بمكة على ثلاثة أميال منها ، وفيه هبط جبريل على النبى - ﷺ - بأول آيات نزلت من القرآن الكريم- قال القزويني:وهو موضع مبارك يزوره الناس.

وطور سيناء هو الذى كان عليه الخطاب لموسى - عليه السلام - فى أثناء عودته من مدين فى طريقه إلى مصر ، وهو الذى أقسم الحق به فى قوله- تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[١٧].

وقيل هو الذى تجلى عليه الرب - سبحانه - حين طلب موسى رؤيته وفى ذلك يقول الله - تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾[١٨].

ويقال : إن حجارته كيف كسرت خرج منها صورة شجر العليق[١٩]، ولا يخلو من الصلحاء.

وجبل لبنان مطل على حمص ، فيه من الفواكه والزروع من غير أن يزرعها أحد، ويأوى إليه الأبدال لما فيه من القوت الحلال[٢٠] .

وجبل الجودى هو الذى هبطت عليه سفينة نوح - فيما بعد - قيل : وقد بنى عليه نوح - عليه السلام - مسجدا. يقول القزوينى : وهو باق إلى الآن يزوره الناس[٢١] .

وطور زيتا لعله الجبل المشرف على بيت المقدس ، ويطلق عليه طور هارون لأنه دفن فيه . والطور فى كلام العرب الجبل - كما يقول صاحب اللسان - ونسبة الزيت إليه لانتشار أشجار الزيتون التى يستشفى بزيتها، وهى كثيرة فى جبال الشام .

---

(١٧) التين ١، ٢. (١٨) الأعراف ١٤٣

(١٩) عجائب المخلوقات للقزويني ص ١٣٤ ط. التحرير (٢٠) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ١٣٦. (٢١) المرجع السابق ص ١٢٨

ويؤكد ما يقول العلماء من أن آدم – عليه السلام – هو الذى بنى البيت ما يروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال الله له : يا آدم، اذهب فابن لى بيتا ، وطف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، فأقبل آدم يتخطى، وطويت له الأرض، وقُبضت له المفاوز ، فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمرانا ، حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام ، وإن جبريل – عليه السلام – ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أُسٍّ ثابت على الأرض السابعة السفلى، وقذفت إليه الملائكة بالصخر، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا .[٢٢]

فقد بناه آدم وأعانته الملائكة فى البناء – وفى ذلك تفسير لبناء البيت من جبال متفرقة .

على أن من العلماء من يذكر أنه لم يكن ثمَّ بناء . ولكن الله أهبط لآدم – عليه السلام – خيمة من خيام الجنة فضربت فى موضعه [illegible] به ليسكن إليها ، ويطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله آدم فرفعت[٢٣] .

وذكر الثعلبى فى قصص الأنبياء أن الله أوحى إلى آدم أن ارحل من أرض الهند إلى مكة وطف حول مكان البيت ، واسألنى المغفرة فأغفر لك خطيئتك .

فقوله «حول مكان البيت» يشير إلى أن البيت لم يكن قد بنى بعد ، ولكنه سيكون فى هذا الموضع الذى أشير إليه .

وقيل: إن الله – تعالى – أنزل يا قوتة حمراء من يواقيت الجنة على قدر الكعبة – وذلك مكان الرغوة البيضاء التى امتدت منها الأرض ، وجعل من داخلها قناديل من ذهب تضىء بالنور ، ثم أرسل الله لآدم ملكا يقوده ويرشده إلى طريق مكة ، وأنزل عليه عصا من شجر الآس طولها عشرون ذراعا ، وهى من أشجار الجنة ، فكان آدم يمشى فتطوى له الأرض، فصار

---

(٢٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١.   (٢٣) القرطبى عن طريق وهب بن منبه

كل مكان وضع قدمه عليه يصير قرية. فلما دخل آدم مكة أوحى الله - تعالى - إليه أن يطوف بذلك البيت فطاف به سبعا.[٢٤].

بل إن من العلماء من يقول : إن البيت برمته من السماء. فقد روى عن قتادة أن الله أهبط مع آدم - عليه السلام - بيتا كان يطوف به هو والمؤمنون من ولده ، وظل كذلك حتى جاء الطوفان، فرفع إلى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور[٢٥] .

وربما كان تفسير هذا الخبر - على فرض صحته - أن الذى أهبط هو مقداره طولا وعرضا وسمكا ، ثم قيل له ابن بقدره أو بحياله ، بحيث يكون البيت الحرام فى الأرض بحيال البيت المعمور فى السماء .

والواقع أن جمهور العلماء يرى أن آدم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت وهذا ما ذهب إليه ابن سعد فى طبقاته . قال :

« لقد أوحى الله إلى آدم أن لى حرما بحيال عرشى، فانطلق فابن لى بيتا فيه، ثم حف به كما رأيت ملائكتى يحفون بعرشى، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى .

فقال آدم : أى رب، وكيف لى بذلك ؟ لست أقوى عليه ولا أهتدى له . فقيض الله ملكا فانطلق به نحو مكة، فكان آدم إذا مر بروضة ومكان يعجبه، قال للملك : انزل بنا هاهنا ، فيقول له الملك : مكانك . حتى قدم مكة ... فبنى البيت من خمسة أجبل : من طور سيناء وطور زيتون ، ولبنان ، والجودى ، وبنى قواعده من حراء .

فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعا. ثم رجع إلى أرض الهند[٢٦]. فمات هناك.

---

(٢٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٤٥ لابن إياس.
(٢٥) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١.   (٢٦) الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٥.

وفى ثناء الله على بيته يقول وهب بن منبه :

إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ، ولم ير فيها أحدا غيره قال : يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟

فأوحى الله إليه : إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ، ويسبح فيها خلقى، ويذكر فيها اسمى، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى وأسميه بيتى ، فينطق بعظمتى ، وعليه وضعت جلالى، ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا، يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه، فمن حرمه بحرمتى استحق بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى، أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثا غبرا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، يضجون بالتلبية ضجيجا، ويلجون بالبكاء أجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى، وحق على الكريم أن يكرم وافده وأضيافه ، وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمره يا آدم ما كنت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن[٢٧] .

وليس من شك فى أن البيت الحرام هو أول بيت لله وضع للناس فى الأرض سواء كان ذلك فى عهد آدم أو بعده أو قبله ، يؤيد ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف .

فالقرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ... ﴾[٢٨]

---

(٢٧) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٧.
(٢٨) آل عمران ٩٦ ، ٩٧.

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : « سألت النبى – ﷺ – عن أول مسجد وضع فى الأرض . قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى. قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل »(٢٩) .

وإن لم يكن البيت قد بنى فى عهد آدم فقد عرف موضعه على الأقل .

قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا فى الأرض بألفى سنة ، وإن قواعده لفى الأرض السفلى(٣٠) .

ولا غرابة فى ذلك، فالتكليف بالعبادة قديم، ومنذ أن كان فى الأرض بشر كان لهم رسل ودين يتعبدون به، ولا دين بغير عبادة ..

والشعائر فى الأديان تكاد تكون واحدة وإن اختلفت فى طريقة الأداء، ففى كل دين صلاة وزكاة وصوم وحج. بل إن دين الله واحد وهو الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾(٣١) .

وقد ورد فى معنى قوله – تعالى – ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣٢) قول الشعبى وقتادة وغيرهما أن الله كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيروا .

وذكر العلماء فى حج الأنبياء السابقين أقوالاً تفيد أنهم كانوا يذهبون إلى مكة فيطوفون بالبيت ويؤدون المناسك ويعودون ..

وذكروا أن سفينة نوح – عليه السلام – طافت بموضع البيت سبعا .. ولتوحيد قلوب الناس فى العبادة لا بد أن تكون هناك قبلة تجمعهم ، وتوحد صفوفهم، وتقوى وحدتهم ، ولو تنافر الاتجاه تنافرت القلوب ..

وهكذا كانت قبلة المسلمين الكعبة .. وهى قبلة إبراهيم – عليه السلام – والمسلمون هم الأمة الوسط كما قال – تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(٣٣) .

---

(٢٩) مسلم كتاب المساجد ٦٣/٢ ، ومسند أحمد ١٥٠/٥ ، ١٦٦ ، وتفسير القرطبى جـ ٤ صـ ١٣٧ .

(٣٠) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ١٣٧ .

(٣١) من آية ١٩ – آل عمران.

(٣٢) الآية رقم ١٨٣ – البقرة.

(٣٣) من الآية رقم ١٤٣ – البقرة.

بنـــاء إبراهيــــم

هاجر وإسماعيل فى مكة :

حين يريد الله – سبحانه وتعالى – نفاذ أمر يهيىء أسبابه .

وقد أراد إعادة بناء البيت والتعمير حوله ليصبح حرما آمنا. وليكون صالحا لاستقبال أسعد مخلوق وأشرف مولود، يولد فى رحابه، ويدرج على أعتابه . وهو محمد ﷺ.

فحين أراد الله ذلك أوحى إلى خليله إبراهيم – عليه السلام – أن يتوجه إلى مصر، فهاجر إليها ومعه زوجته سارة .

وحدث ما عرفناه فى قصة إبراهيم من أن ملك مصر أراد سارة بسوء فعصمها الله ونجاها من شره، فهابها ، وأطلقها ، ووهب لها ولإبراهيم هدايا جمة، وأعطى سارة جارية مصرية هى هاجر ..

وكانت هاجر فى أول أمرها أميرة مصرية يطلق عليها سيدة القطرين[٣٤] وأميرة منف ، ولكنها وقعت فى قبضة الهكسوس وهم ملوك الرعاة[٣٥] . حين استولوا على مصر وقتلوا زوجها ملك مصر .

وأنست هاجر إلى سارة حين رأتها تكثر من العبادة والصلاة .

وحين عاد إبراهيم وزوجته سارة إلى أرض كنعان كانت هاجر بصحبتهما . ووهبت سارة لزوجها إبراهيم أمتها «هاجر» حين رأت حنينه للولد، وعجزها عن أن تنجب له ذلك.

وتسرى إبراهيم بهاجر ، وحملت منه بإسماعيل.

ودبت الغيرة فى قلب سارة، والغيرة طبع غالب فى الناس عامة ، وفى النساء خاصة .

---

(٣٤) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

(٣٥) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص ١٠٨ .

واشتدت غيرة سارة حين رأت إسماعيل ينمو ويشتد، وقلب إبراهيم يزداد به تعلقا. فألحت على إبراهيم أن يبعد هاجر ووليدها عن مجاورتها، ويغيبهما عن نظرها .

وحمل إبراهيم وليده وأمه مرتحلا صوب مكة .. وهناك فى حرم الله عند الربوة الحمراء التى بنيت فوقها الكعبة بعد حين ألقى رحاله ... وبنى لزوجته وابنها عريشا .

وبين الرمال القاسية والقفار الموحشة ترك الطفل وأمه ، وولى راجعا. بعد أن ترك لهما جرابا من تمر وسقاء فيه ماء ..

وتعلقت هاجر بإبراهيم بعد أن أدار ظهره لهما .. وهى تقول فى استعطاف حزين : إلى من تتركنا ؟

ولا شك أن إبراهيم بشر... ولكنه فوق ذلك نبى ..

وصنعت العاطفة صنعها فى قلب إبراهيم البشر، ولكن يقين النبوة غلبها ، ولعل دموعه قد فاضت فى سكون ، ولعل هذه الدموع حالت بينه وبين الرد على ذلك التساؤل الذى ألقته هاجر .. فتركها وانصرف ..

وأدركت هاجر بإلهامها الصادق، وإيمانه الذى تعلمته من صحبة الأنبياء أن إبراهيم – عليه السلام – لم يتصرف من تلقاء نفسه ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟

وكأنها قد لقنته الجواب الذى أشفق أن يجيبها به بادىء ذى بدء، فقال لها : نعم.

فقالت هاجر فى ثقة المؤمن ويقين الواثق : إذن فالله لن يضيعنا[٣٦].

وصدقت، فكيف يضيع الله أهله ؟

---

(٣٦) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥٢.

إنهم سيكونون أهل الله . وسيكون ابنها إسماعيل أبا العرب، وجد خير مبعوث إلى البشر .

وانطلق إبراهيم – عليه السلام – حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه هاجر ، استقبل بوجهه مكان البيت الذى سوف يبنيه بعد قليل ، ثم دعا بهذه الدعوات :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ... ﴾[٣٧]

وتمضى الأيام ، وينفد منها الزاد والماء ، ويجف ثدى هاجر من الجوع .

ويلتقم الطفل ثديها فلا يجد فيه ما يسد جوعته أو ينقع غلته، ولا حيلة للطفل إلا البكاء، ولا حيلة لأمه إلا النظر إلى السماء وتشتد حيرة هاجر دون أن تفقد الرجاء .

ويزداد بكاء الطفل، ويزداد مع ذلك هلعها ، ولكنها مع ذلك لم تفقد الثقة فى الله، وفى كلئه ورعايته .

لقد مضت عليها أيام فى هذا الفراغ الموحش ولكنها لم تتوجس فيه خيفة، ولم تشعر فيه بفزع، لقد كانت تحس الأنس والأمن والدعة ولكن بكاء الطفل من الجوع والعطش هو الذى أرقها وأثار الفزع فى نفسها، وتصرفت كما يتصرف الغريق الذى يبحث عن قشة يتعلق بها .

فأسرعت إلى الصفا تصعده وتنظر إلى الأفق، علها تجد أحدا، فلما لم تجد هبطت مسرعة لتصعد إلى المروة، وتنظر من فوقها هل ترى من أحد ؟

---

(٣٧) آية رقم ٣٧ ابراهيم.

ولما لم تجد عادت إلى الصفا، ثم إلى المروة هكذا سبع مرات . وهنا آذن الله بالفرج.

سمعت حسا فانتبهت إليه ، وأخذت تتسمعه، ثم قالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث.

وإذا بجبريل – عليه السلام – يغمز الأرض بجناحه تحت قدم الطفل فينبع الماء.

ويقال : إن جبريل – عليه السلام – جاء إلى هاجر ، وهى تسعى بين الصفا والمروة باحثة عن الماء. فقال لها : من أنت ؟

قالت : أنا هاجر زوجة إبراهيم خليل الرحمن، وقد تركنى ها هنا .

فقال جبريل : إلى من ترككما ؟

قالت : إلى الله تعالى .

فقال : لقد ترككما إلى كاف، ثم أتى إلى مكان زمزم، وركضها برجله ففاض الماء. ولذلك يقال لزمزم : ركضة جبريل .

فلما رأت هاجر الماء خشيت أن يتبدد أو أن ينضب، فأسرعت إلى سقائها تملؤه، وإلى إناء تدخر فيه الماء . فقال جبريل – عليه السلام :

لا تخشى نضوب الماء، ولا تخافى الظمأ، فإنها عين يشرب منها ضيفان الله – تعالى – إن أبا هذا الغلام سيجىء يوما ويبنى هو والغلام بيتا لله هذا موضعه .[٣٨]

وأخذ الماء ينساب يمينا ويسارا، فحوضت حوله هاجر ، وجعلت تقول : زم زم، فسميت العين لذلك زمزم.

---

(٣٨) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٢.

وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - : «رحم الله أم إسماعيل لو لم تقل زم زم يا مبارك لكانت زمزم عينا جارية»[٣٩].

وشرب الطفل وأمه من الماء حتى رويا.

وقد وضع الله فى هذا الماء سرا وبركة حتى إنه ليصبح غذاء من جوع، وريا من ظمأ، وشفاء من سقم . وقد صح فى الأحاديث قول رسول الله ﷺ : ماء زمزم لما شرب له..[٤٠] .

المكان يعمر :

وحلقت الطيور فوق الماء كما هى العادة .

ولحظت القوافل التى تجوب الصحراء ذلك، فقالوا : عهدنا بهذا المكان لا ماء فيه، فمن أين هذا الماء هنا ؟

وكان القحط فى بلاد الشحر واليمن قد انتشر، وأقبل أهل هذه البلاد يرتادون مساقط المياه .

وكانت قبيلة من العماليق عليهم السميدع بن هوبر تمر فى ذلك المكان، فرأت الطيور تحلق، ثم نظرت إلى العريش فوق الربوة الحمراء وبجوارها الماء يتلألأ كالفضة المذابة .

فتقدم السميدع إلى هاجر وسلم هو ومن معه عليها، واستأذنوها فى النزول والشرب من الماء، فأذنت لهم على شرط ألا يكون لهم حق التملك فيه. فرضوا .

ونزلوا، وأنست إليهم، وأرسلوا إلى من وراءهم ..

---

(٣٩) رواه السيوطى فى جمع الجوامع برقم ١٩١/١٤٣٧٦ بلفظ: رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم كانت عينا معينا قال ورواه البخارى فى كتاب البيوع وفى كتاب بدء الخلق.

(٤٠) رواه الدارقطنى من حديث جابر .

ثم جاء الجراهمة، ونزلوا أيضا.

وعاش الجميع مطمئنين، مستبشرين بالماء، وبما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت العتيق.. إنه شيء يحسه الناس وتستشعره القلوب وتلمسه الأرواح وتتشوق إليه قبل أن تبدو ملامحه للعيون ..

وشب إسماعيل – عليه السلام – بين هؤلاء القوم، ومنهم أخذ لسانه العربي المبين .

زواج إسماعيل :

وحين كبر إسماعيل تزوج من الجداء بنت سعد العملاق .

ويبدو أنه كان فى طبعها شيء من الغلظة والجفاء، وكان إبراهيم – عليه السلام – يلم بين الحين بهاجر وإسماعيل، يتفقد أحوالهما ويطمئن عليهما .

فجاء يوما، وسأل عن إسماعيل وعرف أنه قد تزوج .

وذهب إلى بيته ولم يجده، ووجد زوجته الجداء بنت سعد.

وسألها عن أحوالهما فكانت إجابتها تتجافى مع ما يجب أن يكون عليه أهل بيت النبوة، من رضا بقدر الله، وحمد لله على نعمائه، وصبر على لأواء الحياة وشدتها .

وسلم عليها فلم ترد السلام ، وقال لها : هل من منزل ؟

فقالت : لا هاالله .

فقال لها : فما يفعل رب البيت ؟

قالت : هو غائب .

فقال لها : إذا جاء فأخبريه أن إبراهيم يقول لك بعد مسألته عنك وعن أمك : استبدل بعتبة بيتك غيرها .

ورجع إبراهيم إلى الشام من فوره .

وجاء إسماعيل وأمه – فنظرا إلى الوادى فإذا به قد أشرق وأنار، والأغنام تتنسم نسيم الآثار .

فعرف إسماعيل أن نسمة مباركة قد خطرت على الوادى، وليس ثمَّ إلا أبوه .

فأسرع إلى زوجته يقول لها : هل كان لك بعدى من خبر ؟

قالت : لقد جاء شيخ من صفته كذا وكذا . وأخبرته برسالته .

فقال لها : أتدرين من هذا ؟ إنه أبى خليل الرحمن، وقد أمرنى بفراقك – فالحقى بأهلك فلا خير فيك[٤١] .

الزوجة الثانية

وكانت الزوجة الثانية لإسماعيل جرهمية .

ذلك أن جرهم حين سمعت أن العمالقة نزلوا فى وادى مكة، وأنهم أصبحوا فى أمن ودعة بجوار زمزم أقبلوا بقيادة الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعد، واستوطنوا مكة مع إسماعيل والعماليق الذين سبقوهم . وأصهر إسماعيل إليهم، فتزوج «سامة بنت مهلهل» الجرهمية[٤٢] .

وجاء إبراهيم وطرق الباب ، فأحسنت الزوجة الثانية استقباله، وحمدت الله على ما هما فيه من نعمة وخير، فسر إبراهيم – عليه السلام – بذلك .

ونترك المسعودى يقص علينا المحاورة التى جرت بين إبراهيم – عليه السلام – وسامة بنت مهلهل زوجة إسماعيل.

قال : لما أتى إبراهيم الوادى سلم على زوجة إسماعيل ، فردت عليه السلام، ورحبت به وتلقته بأحسن لقاء.

---

(٤١) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٣٢٠.

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى.

ثم سألها عن إسماعيل وهاجر، فأخبرته بخبرهما وأنهما فى رعيهما، وعرضت عليه النزول فأبى .

- وقيل : إن هاجر كانت قد ماتت -

وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول فأبى. فقدمت إليه لبنا وشرائح من لحم الصيد، فدعا فيه بالبركة .

ثم جاءت بحجر كان فى البيت فمال عن ركابه، وجعلته تحت قدمه اليمنى، ثم رجلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه ومال برأسه فرجلت بقية شعره ودهنته.

فأثرت قدماه فى الحجر.

فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته.

قالوا : وهذا الحجر هو مقام إبراهيم، فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين.

ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام، ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبة .

وعاد راجعا إلى الشام.

فلما جاء إسماعيل أحس بريح أبيه. فقال لزوجته : هل من أحد جاء ؟

فوصفت له شيخا وضيئا تعلوه المهابة والكرامة، وقصت عليه ما حدث. فقال لها : أنت العتبة ، وقد أمرنى أبى أن أبقيك .

تجديد البناء :

لقد كانت الكعبة - كما عرفنا - أول بيت لله فى الأرض ، وإليه تتجه الأنظار، من كل مكان، وإليه تهفو القلوب فى أى زمان .

وقد عرفنا أنه بنى فى عهد آدم أو قبل آدم فى بعض الأقوال، فقد ذكر

بعض العلماء أن آدم حين حج من الهند، لقيته الملائكة فقالت له : بر حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام .

فقال : ما كنتم تقولون حوله ؟

فقالوا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

فكان آدم إذا طاف بالبيت يقول هذه الكلمات .

وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع، خمسة بالليل واثنين بالنهار. فقال آدم : يا رب اجعل لهذا البيت عمارا .

فأوحى الله إليه : إنى معمره بنبى من ذريتك اسمه إبراهيم أتخذه خليلا ، أقضى على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته، أورثه حله وحرمه ومواقفه ، وأعلمه مشاعره ومناسكه[٤٣] .

وقال النبى - ﷺ : إن آدم - عليه السلام - سأل ربه - عز وجل - فقال : يا رب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا أن تلحقه بى فى الجنة . فقال الله - تعالى : يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته يوم القيامة آمنا[٤٤] .

ظل البيت كما بناه آدم - عليه السلام - فترة طويلة من الزمن ،وربما يكون «شيث»[٤٥] من بعده زاده توطيدا بالطين والحجارة .. حتى جاء طوفان نوح الذى عم الأرض كلها، ولم يبق مكان فيها لم تغمره المياه .

قيل: إن الله رفع البيت صيانة له من الغرق، وخبأ جبريل الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس[٤٦] وذكر الزركشى نقلا عن ابن هشام : أن الماء لم يصل إلى البيت المعظم ولكنه قام حولها وبقيت هى فى هواء السماء، وقال نوح لمن معه إنكم فى حرم الله وحول بيته فأحرموا لله[٤٧] .

---

(٤٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٦.   (٤٤) المرجع السابق.

(٤٥) ذكر الزركشى فى كتابه اعلام الساجد بأحكام المساجد أن أول من بنى البيت شيث عليه السلام، وكان قبل أن يبنيه خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت من الجنة ص ٤٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٥٦   (٤٧) اعلام المساجد ص ١٩٧.

وقد ادخر الله خليله إبراهيم لإعادة تشييد هذا البيت، وأشار جبريل – عليه السلام – لهاجر بهذا المعنى حين فجر لها زمزم .

ولكن هاجر مضت للقاء ربها فلم تشهد هذا الحدث الجليل .

وجاء إبراهيم الخليل يوما ولقى إسماعيل فوجده يبرى نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه مرحبا . واعتنقا. ثم قال إبراهيم لابنه :

يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

قال إسماعيل : اصنع ما أمرك الله به .

قال : وتعيننى ؟

قال : وأعينك .

قال: إن الله قد أمرنى أن أبنى له بيتا،وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قصة الذبح :

لقد تعود إسماعيل ألا يعصى لوالده أمرا ، وتعود أن يعين أباه على تنفيذ ما يأمره به ربه ولو كلفه ذلك حياته .

وليس هناك دليل أصدق من رؤيا إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل. فقد رأى إبراهيم فى منامه أن الله يأمره بذبح إسماعيل، وتكررت الرؤيا عدة مرات. وقص إبراهيم رؤياه على ابنه .

واستجاب الابن لأمر ربه سريعا، وقال لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر. وقد قص القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[48]

---

(٤٨) آيات ١٠٢ : ١٠٧ – الصافات.

لقد كانت تجربة قاسية اجتازها الوالد وابنه بنجاح .

وفدى الله إسماعيل من الذبح بكبش نزل به جبريل - عليه السلام - من السماء، ويقال: إنه الكبش الذى كان هابيل قد تقرب به إلى الله فتقبل منه .

وكان إسماعيل الذبيح هو الجد الأعلى لعبد الله الذبيح والد المصطفى - ﷺ - وسيأتى حديث عن ذلك بعد إن شاء الله .

كيف وصل إبراهيم من الشام ؟

لقد كانت المهمة التى وفد إليها إبراهيم إلى مكة مهمة سامية ، ولا بد أن يكون وصوله إلى مكان البيت بصورة مشرفة تليق بجلال العمل وصاحبه.

قال العلماء : إن الله أرسل معه ريحا اسمها السكينة، سهلة الممر لينة الهبوب، وأنطقها الله القادر له ، فهي تدله ، يغدو معها إذا غدت ويروح معها إذا راحت، فصاحبها أو صاحبته إلى مكة. وحين حط رحاله قالت له السكينة : ابن على موضعى الأساس. ويقال : إنها تطوقت على موضع البيت .

وقيل : ليست ريحا بل هى سحابة سيرها الله معه ، وأمره بمتابعتها، فما زال يسير فى ظلها حتى وصل إلى مكة ، فوقفت فى موضع الكعبة ، ونودى : يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزيد ولا تنقص.

ولعل أقرب من ذلك كله ما روى من أن الذى خرج معه من الشام مصاحبها هو جبريل - عليه السلام - حتى وصل معه إلى مكة ، فكشف له عن مكان البيت ..

وإذا كان البناء لبيت الله ، فالله ليس بعاجز أن يصحب خليله الريح أو السحاب أو الملائكة، وهى كلها من جند الله يسخرها لمن يشاء من عباده .

وقد ورد ذكر السكينة فى القرآن الكريم فى قوله - تعالى - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٤٩) .

---

(٤٩) البقرة من آية ٢٤٨.

وفسر العلماء السكينة بتفسيرات عدة منها : أنها ريح هفافة ، ومنها أنها روح من الله تتكلم ومنها غير ذلك[٥٠] .

إبراهيم يشرع فى العمل :

وتهيأ إبراهيم – عليه السلام – للعمل ، ومعه ابنه إسماعيل . وأعطاهما الله القوةالتى تعينهما عليه .

فكان إسماعيل يأتى بالأحجار من عدة جبال فيما يذكره الرواة .

وليس غريبا أن ينقل إسماعيل أحجاراً من جبال عدة بينها مسافات متطاولة، فالله – سبحانه وتعالى – يمد الأنبياء بجنود من عنده لا يراها أحد ويسخر لهم مايعينهم على إنهاء ما يقومون به من مهام ، لاسيما إذا كان مايقومون به أمرا يتعلق به سبحانه وتعالى وببيته الكريم الذى جعله قبلة للناس جميعا ، وكتب عليهم حجه ، وجعله هدى للناس وبينات .

لا غرابة أن تطوى الأرض والمسافات ، وتخف الأحمال والأثقال ، ويسهل قطع الأحجار من الجبال، وتهون المتاعب والأهوال .

وما زال إبراهيم يرفع البناء ، وإسماعيل يناوله الأحجار حتى ارتفع البناء عن قامة إبراهيم . فقال لابنه : ابغنى حجرا أقف عليه . فأتى له بحجر صعد إبراهيم فوقه ، وجعل يقيم القواعد، وربما قام هذا الحجر مقام المصْعد[٥١] بقدرة الله – تعالى – الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وربما كان هذا الحجر هو الذى سبق ووضع إبراهيم عليه قدميه فى أثناء زيارته السابقة لإسماعيل وقال لزوجة إسماعيل : احتفظى به فإنه سيكون له شأن. لقد ظهر فى الحجر أثر قدميه . قال أنس بن مالك – رضى الله عنه –: رأيت أثر قدم إبراهيم فى هذا الحجر ، وقد أثر فيه كعبه وأخماص أصابع رجليه، غير أنه اختفى رسمه من كثرة لمس الناس له بأيديهم، فمحى ذلك من كثرة الأيام والليالى[٥٢] .

---

(٥٠) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٤٤، وأولى تفسير للسكينة هو الوقار والرحمة وآيات الله التى تسكن اليها النفس. وهى التى صحبت ابراهيم فى رحلته فلم يضجر ولم يتبرم ولم يشك تعبا ولا الما .

(٥١) أشار إلى ذلك ابن إياس فى كتابه – بدائع الزهور ص ٨٤.

(٥٢) حكى ذلك القرطبى فى تفسيره عن القشيرى جـ٢ ص ١١٢.

ويطلق على هذا الحجر مقام إبراهيم ، وكان ملصقا بالبيت ، بعد أن بناه إبراهيم ، ولكنه نقل إلى موضعه الحالى فيما بعد فى عهد عمر[٥٣] آخره إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الحجاج من الطواف، ولا يشوشون على المصلين بعد الطواف ، لأن الله أمرنا بالصلاة عنده حيث قال :

﴿ واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[٥٤] .

وفى تأثير قدمى إبراهيم فى الحجر يقول أبو طالب :

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوءٍ أو ملح بباطل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل[٥٥]

وسيأتى حديث خاص عن مقام إبراهيم - إن شاء الله تعالى :

وضع الحجر الأسود :

وحين بلغ إبراهيم فى بنائه مكان الركن قال لابنه : يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه هاهنا .

فقال إسماعيل : يا أبت إنى كسلان - لقد ظهر عليه التعب لحكمة يعلمها الله .

ولما ألح عليه فى الطلب انطلق يطلب الحجر، فجاءه بحجر لم يرضه. وقال : ائتنى بأفضل منه، فانطلق يطلب غيره .

وإذا بجبريل يأتيه بالحجر الأسود - وكان أبيض من ياقوتة بيضاء مثل الثفاقة وهى نبت أبيض الزهر والثمر .

قالوا : وكان آدم قد هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس[٥٦].

---

(٥٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦٥ وإعلام الساجد للزركشي ص ٢٠٧.

(٥٤) سورة البقرة. (٥٥) إعلام الساجد ص ٢٠٧

(٥٦) إعلام الساجد ص ٤٤.

فأخذه إبراهيم - عليه السلام - ووضعه مكانه من الركن .

وعندما عاد إسماعيل بحجر وجد أباه قد وضع ذلك الحجر الذى أعطاه إياه جبريل. فقال : يا أبت، من جاءك بهذا ؟

فقال : جاءنى به من هو أنشط منك(٥٧) .

ولا داعى لمبالغة البعض فى أن جبل أبى قبيس نادى إبراهيم - عليه السلام - قائلا : يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها .

فلما دنا منه انشق الجبل وخرج منه الحجر الأسود .

وكان نوح - عليه السلام - قد أودع الحجر الأسود هذا المكان(٥٨) .

لقد هيأ الله الأسباب الكفيلة بإتمام البناء على الصورة التى أرادها الله لبيته الكريم ، وسخر لذلك نبيين كريمين، يؤيدهما جبريل وغيره من الملائكة المكرمين .

وكان إبراهيم وإسماعيل فى أثناء بنائهما البيت يدعوان الله ويبتهلان إليه بما حكاه القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٥٩)

---

(٥٧) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٩.
(٥٨) نقل ذلك ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور ص ٨٤.
(٥٩) الآيات من ١٢٧ : ١٢٩ البقرة.

إنه الإخلاص الذى يحدو هذا العمل الصالح .

لقد نفذ إبراهيم أمر ربه ، ورفع القواعد من البيت ، ومع ذلك يخشى ألا يُقبل له عمل ، فقرن عمله بالدعاء وختمه بالدعاء ... والدعاء مخ العبادة كما ورد فى الآثار .

وفى هذا سنة للمسلم أن ينتهز فرصة العبادة فيدعو الله عسى أن يقبل عمله ويثيبه على ما قدم.

روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ «وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت ..» ثم بكى وقال : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك ؟[٦٠]. وهذا ما حكاه الله عن الصالحين في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ..»[٦١] .

إبراهيم يدعو الناس إلى الحج:

وبعد أن انتهى إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن يدعو الناس إلى حج بيته. قال له : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ»[٦٢] .

فقال إبراهيم : يارب، وما يبلغ صوتى ؟

قال له الحق : أذن يا إبراهيم، وعلىَّ الإبلاغ .

فصعد إبراهيم – عليه السلام – فوق جبل أبى قبيس ، وقيل : فوق الكعبة ، وقيل : فوق الصفا، وقيل : فوق عرفات – وصاح بأعلى صوته : أيها الناس، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا.

---

(٦٠) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٤.
(٦١) الآية ٦٠ من سورة «المؤمنون».
(٦٢) من آية ٢٧ – الحج.

أجل ، وما يبلغ صوت إبراهيم ؟

هل يتوقع أن يصل صوته إلى أبعد من مكة على أكثر تقدير، فى وقت لم تكن هناك مكبرات للصوت أو أجهزة إعلام تنشر الصوت فى كل مكان فور انطلاقه ؟

ولكن الله - جلت قدرته - نقل صوت إبراهيم الشيخ الواهن إلى ما لا يخطر على بال أكثر الناس تفاؤلا .

لقد نقله إلى ما وراء الحجب وإلى عالم الغيب حتى لباه من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وإلى الأرواح التى لم تسكن بعد فى أجساد أصحابها ..

إنها قدرة الله الخارقة التى أرادت أن يعمر هذا البيت بالوفود عبر الزمان من كل مكان .

أجاب كل من سمع قائلا : لبيك اللهم لبيك .

فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة .

إن أجاب مرة حج مرة، وإن أجاب مرتين حج مرتين ... وهكذا .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - لأبى الطفيل : أتدرى ما كان أصل التلبية ؟ قال أبو الطفيل : لا.

قال ابن عباس : لما أمر الله إبراهيم - عليه السلام - أن يؤذن بالحج خفضت الجبال رءوسها، ورفعت له القرى، فنادى فى الناس بالحج فأجابه كل شىء : لبيك اللهم لبيك[٦٣] .

واستجاب كل من لبى على نحو ما وصف الله تعالى بقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنَ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٦٤] .

ومعنى رجالا : راجلين، سائرين على أقدامهم، والضامر : الراحلة التى ضمرت من كثرة المشى وطول الطريق.

---

(٦٣) تفسير القرطبى - سورة الحج ص ٤٤٣٠ ط دار الشعب.

(٦٤) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

والمقابلة بين الراجلين والراكبين تفيد تصوير حالة الحجاج فى كل زمان ومكان ، فهم - فى تحقيق الإتيان - إما سائرون على أقدامهم أو متخذون وسائل للمواصلات.

وقد تطورت وسائل المواصلات - مصداقا لقوله - تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٦٥] حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى عصرنا الحاضر.

وكان الناس فى الزمن القديم يتطوعون لله بالذهاب إلى بيت الله الحرام سيرا على الأقدام ، حتى ولو كانوا يملكون ما يركبون أو يقدرون عليه ، ويجدون لذتهم في ذلك ، وروى عن الحسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - أنه حج ماشيا أكثر من مرة وبين يديه الجنائب تحمل الزاد[٦٦]، وكان يقول : استحى أن أذهب إلى بيت الله راكبا .

وقد اعتبر بعض العلماء أن تقديم «رجالا» فى الآية يفيد تفضيل الحج مشيا لمن قدر عليه .

ولكن النبى - ﷺ - مع قدرته على المشى حج راكبا، فهذه سنته، وهى التي تتمشى مع قوله - تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[٦٧].

وقد انعدم الآن الحج مشيا - تقريبا - لأنه لا يناسب ظروف الحياة وتطورها مع ابتكار وسائل حديثة للمواصلات تختصر أيام الحج إلى أيام معدودة لمن يريد، ولكن ذلك كله لا يطغى على مفهوم الأثر الخالد « الأجر على قدر المشقة».

جبريل يعلم المناسك :

بعد أن فرغ إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من بناء البيت رفعا أكف الضراعة إلى الله قائلين : أرنا مناسكنا .

---

(٦٥) من الآية ٨ النحل. (٦٦) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٢.
(٦٧) من آية ٣٢ - الأعراف.

لقد أرادا أن يعرفا كيف يؤدى الحاج حجه - وماذا يفعل حين يقدم إلى هذا المكان الطاهر ؟ وما الآداب التى يتأدب بها فى حرم الله ؟

فبعث الله جبريل - عليه السلام - فحج بهما .

عرفهما كيف يطوف الحاج بالبيت مبتدئا من الركن عند الحجر الأسود جاعلا البيت عن يساره ، ثم يطوف سبع مرات حول الكعبة ، ثم كيف يسعى بين الصفا والمروة .. ثم ذهب به إلى عرفة ، فعرض إبليس فى الطريق عند العقبة فأمر جبريل إبراهيم أن يرميه بسبع حصيات جمعها له جبريل ووضعها فى كفه، وقال له : ارم وكبر . وكذلك رمى جبريل وكبر حتى أفل الشيطان، ثم أتيا الجمرة القصوى فعرض الشيطان مرة أخرى ، فرمى بسبع حصيات أخرى مع كل رمية تكبيرة حتى أفل. ثم أتى بها جُمَعاً وهى المزدلفة، فقال جبريل : ها هنا يجمع الناس الصلوات - ثم انتهوا إلى عرفات - فقال جبريل لإبراهيم : عرفت ؟ قال : نعم ، فمن ثم سمى المكان عرفات.

وقيل : إنه سمى عرفات لأن آدم وحواء تعارفا عليه بعد فراقهما الذى طال إثر هبوطهما من الجنة - وقد مر ذكر ذلك فى قصة آدم - عليه السلام - وعاد إبراهيم إلى الشام، وترك ابنه إسماعيل ليقوم بشأن هذا البيت، وظل قائما عليه طول حياته، حتى مات ودفن بالحِجْر بعد أن عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة .

وورث أمر الكعبة من بعده ابنه نابت وأمه من جرهم - كما قدمنا - وكان إبراهيم يحج البيت حتى مات . كان يحمله البراق فيما يقال، وهو دابة الأنبياء .

وجاء إسحاق، وجاءت سارة أمه ، وقاما بالمناسك كلها التى علمها جبريل إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام.

وكان الأنبياء يحجون البيت ، بل إن النبى من الأنبياء كان إذا هلكت

أمته لحق بمكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا بها ، فمات بها نوح وهود وصالح - في بعض الأقوال - وقبورهم بين زمزم والحجر »[68] .

وقيل : إن شعيبا - عليه السلام - مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين وقبورهم فى غربى مكة بين دار الندوة وبين بنى سهم.

والمعروف أن قبر إسماعيل فى الحجر. ويقال : إنه بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فماتوا فقبروا هنالك[69] صلوات الله عليهم أجمعين .

ولاة البيت :

ظلت المناسك على ما علمه جبريل إبراهيم وإسماعيل - عليهم السلام - وكان الذين تولوا أمر الكعبة يعلمونها الحجاج جيلا بعد جيل ، حتى تغيرت العقائد والنفوس ، وغير الناس وبدلوا، فجاء الإسلام فأنار الطريق وصحح المسار. تولى البيت بعد إسماعيل ابنه نابت .

ثم وليه بعده الجراهمة أخواله وأخوال أبنائه وقد غلبوا أبناء إسماعيل على البيت، وتولى الملك من الجراهمة واحد منهم اسمه «الحارث بن مضاض» وتولى أمر البيت مع الملك.

وكان الجراهمة ينزلون فى الموضع المعروف بقيقعان فى أعلى مكة وكان العماليق ما يزالون بمكة ويملكهم السميدع بن هوبر، وينزلون فى «أجياد» فى أسفل مكة .

ولهذه التسمية أصل نذكره استطرافا .

قالوا : إنه دارت حرب بين الجراهمة والعماليق.

---

(٦٨) ذكر ذلك القرطبي مسندا إلى محمد بن سابط عن النبى ﷺ تفسير القرطبى جـ ٢ ص ١٣٠.

(٦٩) المرجع السابق.

فخرج الحارث بن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدرق ، فسمى الموضع الذى نزل فيه « قيقعان».

وخرج ملك العماليق بالجياد من الخيل وعسكر فى الموقع الذى سمى بأجياد لتأهبه بالجياد فيه .

ودارت الحرب بين الفريقين، فانهزم الجراهمة فى موضع أطلق عليه اسم «فاضح» لافتضاح المنهزمين فيه.

ثم سعى الناس بين الفريقين بالصلح، فنحروا وطبخوا ، فسمى موضع الوليمة بـ «طابخ»[٧٠] .

وبهزيمة الجراهمة تولى أمر البيت العماليق .

ثم دارت حرب أخرى بعد ذلك بفترة انتصر فيها الجراهمة، واستعادوا الولاية على البيت .

فزادوا فى بنائه على ما كان عليه فى عهد إبراهيم - عليه السلام .

ذكر الزركشي : أنه بنى فى أيام جرهم مرة أو مرتين، لأن السيل كان قد صدع حائطه، وقيل لم يكن بنيانا بل كان إصلاحا لما وهى منه، وجداراً أسس بينه وبين السيل، بناه رجل اسمه عامر بن الجادر، وسمى بالجادر لأنه جدر الكعبة »[٧١] .

ولم يحفظ الجراهمة حرمة البيت ورعاية آدابه التى اؤتمنوا عليها ، فغيروا وبدلوا وأسرفوا .

ويقال إن رجلا منهم أسمه «إساف» فجر فى الحرم بامرأة كان يحبها اسمها «نائلة» فمسخهما الله حجرين . وقد صيرهما الجهل بعد ذلك صنمين يعبدهما المشركون من دون الله .

---

(٧٠) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٣٢١.
(٧١) إعلام المساجد ص ٤٦.

وعاقب الله جرهما بأن سلط عليها الرعاف والنمل والآفات حتى هلك كثير منهم .

وكان من أسباب انهيار ملك الجراهمة وذهاب ولايتهم على البيت أنهم بغوا على حجاج بيت الله وأسرفوا فى فرض الضرائب والمكوس عليهم(٧٢).

ظهور أولاد إسماعيل :

وأراد الله كرامة بيته من جديد، فظهر أولاد إسماعيل وأحفاده وتولوا أمر البيت.

كان إسماعيل قد أعقب اثنى عشر ولدا ذكرًا – هم :

نابت، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسم، ومشمع، ودما، ودوام، ومسّا، وحداد، وثيما، وبطور، ونافش.

ولكل من هؤلاء عقب...

ولم يتول أمر البيت من هؤلاء إلا نابت، ثم تولى بعده أخواله – كما ذكرنا – وتقلبت الأيام حتى بغى الجراهمة وضعفوا ..

وأصبح بنو إسماعيل ذوى قوة ، فنحّوا أخوالهم عن ولاية البيت بعد أن أصبحوا غير جديرين بولايته بعد فسادهم .

ويقال : إن الله سلط عليهم سيلا جرفهم وذهب بهم ..

ولذلك يقول واحد منهم وهو الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمى يرثى أهله وأيام عزهم ومجدهم ويتحسر عليهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهرا ووصلة ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربى بها دار غربة بها الذئب يعوى والعدو المحاصر(٧٣)

---

(٧٢) فى ظلال الحرمين لمجد كامل حته ص ١١٤.
(٧٣) مروج الذهب جـ١ ص ٣٢٢.

الخزاعيون يتولون البيت :

وظلت ولاية البيت فى بنى إسماعيل حتى وصلت إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان الجد الأعلى للنبى - ﷺ - .

ثم توالت الأحداث ، وحدث أن أهل مأرب فى اليمن تفرقوا فى البلاد تخوفًا من انهيار سد مأرب المشهور . وكان سيد مأرب فى ذلك الوقت هو عمرو بن عامر ، فأمر أولاده بالتفرق ، و (انخزع) أى انفصل عنهم قوم أطلق عليهم اسم (خزاعة) .

وجاء هؤلاء الخزاعيون ونزلوا وادى تهامة ، ووادى تهامة يمتد من اليمن حتى يشمل مكة .

وحدث خلاف بين أبناء نزار بن معد أثار حربًا بين إياد الذى كان يتولى أمر الكعبة وبين مضر أخيه ، وانتصر فيها المضريون ، فقلعوا الحجر الأسود ودفنوه فى بعض المواضع .

ورأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها بما رأته ودلتهم على مكان الحجر ، فتحفظوا عليه .

وانتهز الخزاعيون هذه الفرصة واشترطوا إن ردوا الحجر أن يتولوا أمر البيت ، ووفى الإياديون لهم بذلك .

وأعاد الخزاعيون الحجر إلى مكانه وأصبحت ولاية البيت لهم .

عبادة الأصنام :

وكان سيد خزاعة رجلاً اسمه « عمرو بن لحى » فغير دين إبراهيم - عليه السلام - ونصب الأوثان حول الكعبة ، ودعا إلى عبادة الأصنام ، ويقال فى سبب ذلك : إنه ذهب إلى الشام ، فوجد قومًا يعكفون على أصنام لهم ، فقال لهم : ما هذه ؟

فقالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فأعجبه ذلك منهم وقال لهم :

ألا تعطونى واحدًا منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟

فأعطوه صنمًا يقال له « هُبَل » .

فقدم به مكة ، فنصبه للناس وأمرهم أن يعبدوه ، فعبدوه وعظموه(٧٥) ومع هذا الإشراك بقيت أثارةٌ من دين إبراهيم - عليه السلام - تتمثل فى تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، مع إدخالهم فى ذلك ما ليس منه .

فكانوا إذا حجوا ولبّوا يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . فيوحدون بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - .

وازداد ظلم عمرو بن لحى فى الحرم فقال له شاعر ما زال على دين الحنيفية :

يا عمرو لا تظلم بمكة ... إنها بلد حرام
سائل بعاد أين هم ... وكذاك تخترم الأنام
وبنى العماليق الذين ... لهم بها كان السوام

وقال له شاعر آخر - حين فشت الأصنام وكثرت - :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا ... فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهل ... سيصطفى دونكم للبيت حجابا(٧٦)

وهكذا تتقلب الأيام ، ويظهر حول بيت الله الحرام أصنام تعبد من دون الله ، وهو الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا ، إليه يلجأون ليتخلصوا من آثامهم ، ويتطهروا من أوزارهم ، ويعودوا إلى ديارهم كيوم ولدتهم

(٧٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨١ .
(٧٦) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٦ .

أمهاتهم .. فإذا بهم الآن – ببدعة عمرو بن لحى – يعودون وقد تضاعفت أوزارهم ، يحملون أوثانًا اشتروها من باعة الأوثان حول الكعبة ليعبدوها فى ديارهم بعد عودتهم ، وقد امتلأت نفوسهم سرورًا بذلك كأنهم قد عادوا بكل ذخائر الدنيا معهم .. ولم لا يكونون كذلك وقد أمكنهم أن يشتروا إلهًا بمالهم ؟ . فهل هناك غباء أكثر من ذلك ؟

ومن العجيب الغريب أن ذلك التمثال المصنوع الذى ساوم مشتريه فى اقتنائه – وربما حط من ثمنه درهمًا أو درهمين – يزعم هذا المشترى أن ذلك التمثال رب يتحكم فى مربوبه الذى دفع الثمن فيه .

ألا ما أجهل هؤلاء القوم وأسفه آراءهم!

بل العجيب الغريب أيضًا أن هناك أصنامًا كانت تصنع من العجوة، ويظل هذا الصنم فى حوزة عابده حتى يقرصه الجوع ولا يجد ما يأكله فيقبل على إلهه يأكله ويسد به جوعته ، فما أتعس حظ هذا الإله مع عابديه ، وفى ذلك يقول شاعر يتهكم بهؤلاء :

أكلت حنيفة ربها ... عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة[77]

ولاية البيت تعود لأهلها :

وكان قصى بن كلاب جد النبى – ﷺ – قد تزوج من « حُبَّى » بنت حُلَيْل الخزاعى الذى كان بيده أمر البيت فى وقته .

وأوصى حليل لابنته بالولاية على البيت بعد وفاته ، فقيل له : إنها امرأة ولا تقوى على فتح الباب وإغلاقه ، فجعل ولاية البيت إليها ، والفتح والإغلاق إلى رجل من خزاعة اسمه « أبو غبشان » .

فلما مات حُليل ، باع أبو غبشان ما عهد إليه من أمر الفتح والإغلاق لقصى بن كلاب زوج « حُبَّى » باعه بزق من خمر وبعير .

(٧٧) تاريخ الأدب العربى – عبد الجواد رمضان ص ٣٣ .

فأرسلت العرب فى ذلك مثلاً ، قالوا : « أخسر من صفقة أبى غبشان » .

وفى ذلك يقول شاعر يهجو خزاعة :

إذا افتخرت خزاعة من قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهرًا بزق بئس مفتخر الفخــور

وبذلك صار أمر الكعبة كله إلى قصى ، وعاد الحق إلى نصابه .

واستقر أمر قصى ، ونظر إلى مكة نظرة إجلال ، وبنى الكعبة ، ورتب قريشًا على منازلها فى النسب بمكة .. بعد أن وحد صفوفهم وجمع كلمتهم .

وورث الأمر من بعده أبناؤه وأحفاده ، فقاموا على أمر الكعبة خير قيام ، و ما زال ذلك فيهم ..

سدانة الكعبة فى الإسلام :

السادن هو خادم الكعبة ، وهو غير الحاجب ..

فالحاجب يحجب وإذنه لغيره ، والسادن يحجب وإذنه لنفسه ..

وكانت سدانة البيت فى الجاهلية لعثمان بن طلحة ، وهناك خبر طريف يدخل فى نطاق الإعجاز النبوى نذكره للانتفاع به ..

روى ابن سعد فى طبقاته عن عثمان بن طلحة قال :

كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبى – ﷺ – يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ، ونلت منه ، فحلم عنى ، ثم قال : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . قال : بل عمرت وعزت يومئذ .

ودخل الكعبة ، فوقعت كلمته منى موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما كان يوم الفتح قال : يا عثمان ائتنى بالمفتاح ، فأتيته ، فأخذه منى ، ثم دفعه إلىّ وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم .

يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

قال : فلما وليت نادانى فرجعت إليه . فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟

قال : فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة .. فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ..

وظلت سدانة البيت فى هذه الأسرة ، فقد ورث السدانة عن عثمان بن أبى طلحة ابنه شيبة .

وعثمان بن أبى طلحة ابن عم عثمان بن طلحة الذى لم يعقب ..

وإلى شيبة بن عثمان هذا ينتمى الشيبيون القائمون بهذا الأمر حتى الآن[٧٨]، وهم محل تجلة واحترام من جميع المسلمين فى مختلف الأقطار ..

وفود العرب إلى البيت :

طبع الله حب البيت فى قلوب العرب جميعًا ، حتى إذا أشرقت شمس الإسلام تعلقت قلوب المسلمين جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها بهذا البيت الذى هو قبلتهم ومهوى أفئدتهم .

كان العرب – قبل الاسلام – يحجون البيت ويعظمونه ، يفدون إليه كل عام فى موسم الحج ، يؤدون المناسك ، ويقيمون حول مكة الأسواق ، وكانت هذه الأسواق موسمًا للتجارة ، ومنتدى للمباريات الأدبية والثقافية ،

---

(٧٨) تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣١٩ .

فيها تلقى الخطب وتنشد الأشعار ، ويفاضل الحكام بين الشعراء ، وأيما قصيدة فازت بالإعجاب تكتب وتعلق على جدران الكعبة وتصبح من المعلقات .

ولمكانة هذا البيت في النفوس حُسِد القائمون على أمره ، حتى أصبحت القبائل تنفس عليهم وتغار منهم ، وأقام بعضها بيتًا يحاكون به الكعبة ويعظمونه ..

قال ابن إسحاق : كان لأهل اليمن بيت يقال له « رئام » يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم – كان الشيطان يكلمهم من داخله – .

ورئام على وزن كتاب مأخوذ من رأمت الأنثى ولدها ترأمه رئامًا ، إذا عطفت عليه ، فاشتقوا لهذا البيت اسمًا لموضع الرحمة والعطف الذى كانوا يلتمسونه فى عبادته .

وكان لتُبّع ملك اليمن حبران صالحان يحيطان به فقالا له : خلِّ بيننا وبين هذا البيت فإنما به شيطان يفتن الناس .

فقال لهما : شأنكما به .

فاستخرجا منه كلبًا أسود ، فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت ، فبقاياه بها آثار الدماء التى كانت تراق عليه[٧٩].

وأقام أهل الطائف بيتًا لِلاّت يعظمونه نحو تعظيم الناس للكعبة ، وحين سار أبرهة إلى الكعبة بجيشه محاولاً هدمها ، استقبله الثقفيون عند الطائف وقالوا له : نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، وليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد – يعنون بيت اللات – إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم[٨٠]. وستأتى قصة أبرهة مع الكعبة بعد إن شاء الله تعالى .

---

(٧٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤ . (٨٠) المرجع السابق ص ٤٨ .

جلال الكعبة :

إن جلال الكعبة ينبعث من أن الله - جلت قدرته - هو الذى أمر ببنائها ووضع فيها آيات بينات أشار إليها بقوله تعالى :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[81] .

فهو ببكة أولاً ، وهو مبارك ، وهو هدى للعالمين ، وفيه آيات بينات ، وفيه مقام إبراهيم ، وفيه الأمن لمن دخله والتجأ إليه ..

وأما هداه فلأنه يجمع قلوب الناس على قبلة واحدة يعرفون بها ربهم تباكَّ القوم أى ازدحموا ، والبكُّ أيضًا دقُّ العنق سميت بذلك لأنها تدق أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم ، فما قصدها جبار إلا كسره الله وأذله .

وبركة الكعبة تظهر فى مضاعفة الثواب فيها للعالمين أضعافًا حتى إن الركعة فيها بمائة ألف ركعة فى غيرها .

وأما هداه فلأنه يجمع قلوب الناس على قبلة واحدة يعرفون بها ربهم ويفردونه بالعبادة ويهتدون به إلى سواء السبيل .

وأما الآيات البينات فلما فيه من دلائل ومناسك ..

فالصفا والمروة والركن والمقام من آياته البينات ..

والطائر لا يعلو البيت صحيحًا ..

والحاج يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه .

والغيث إذا كان ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن ، وإذا كان بناحية الشام كان الخصب بالشام ، وإذا عم الغيث كان الخصب فى جميع البلدان .

والجمار إذا رميت بالملايين كانت على قدر واحد لا تزيد .

---

(٨١) آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

وزمزم من آياته ، فيها رى وغذاء وشفاء واستجابة دعاء .

أما المقام فهو مقام إبراهيم ، أى موضع رجليه – حين غسل رأسه في
بيت ابنه إسماعيل وأثرت قدماه في الحجر الصلد – وهذه معجزة .

أو حين كان يقف عند بناء الكعبة وكان الحجر يرتفع ويهبط به كم
يحدث من المصعد الكهربى الآن . وقد يطلق المقام على الحرم كله

أما من دخله كان آمنًا ، فلأن من عاذ بالبيت أعاذه الله ، وقد حرم الل
مكة كلها بالبيت ، فيحرم الصيد فيها كما يحرم تنفير الصيد أيضًا ، و
يحل قطع شجرها وقلع حشيشها – إلا الإذْخِرُ –[82] والتقاط لقطتها إ
لمُعَرِّف .. قال النبى – ﷺ – : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس
فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعض
بها شجرة . فإن أحد ترخص بقتال رسول الله – ﷺ – فقولوا له : إ
الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن الله لى فيها ساعة من نهار
وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس[83].

والبلغاء يعرفون أن القرآن معجز في أسلوبه . ويعرفون أن قوله تعالى
﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ خبر يقصد به الإنشاء .. أى أمِّنوا أيها الناس
من يدخله ولا تروعوه ، ومن روَّع حاجًا أو لاجئًا إلى الحرم فقد أثم

والفقهاء أيضًا يعرفون أن الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًا بدم ولا فا
بخزية ، ولو صح ذلك لأصبح الحرم مأوى للمجرمين وقطاع الطر
وسفاكى الدماء .

فإن لجأ واحد من هؤلاء لم يكلم ولم يبايع حتى يخرج من الحر
فيقام عليه الحد[84].

---

(٨٢) حشيش طيب الريح أطول من الثيل .

(٨٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٦ ، صحيح مسلم كتاب الحج ٤ / ١١٠ .

(٨٤) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ١٤١ .

من أرادها بسوء قصمه الله :

وحكى ابن هشام فى سيرته قائلاً :

كان تبَّع – وهو ملك اليمن – وقومه أصحاب أوثان يعبدونها قد توجه إلى مكة ، وهى فى طريقه إلى اليمن ، فاعترضه نفر من هذيل أرادوا به سوءًا ، وقالوا له :

ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده .

– قال الهذليون له ذلك لأنهم أرادوا هلاكه ، لما عرفوا من هلاك من أراد هذا البيت من الملوك بسوء – .

فاقتنع الملك بكلام الهذليين ، وأجمع أمره أن يتجه إلى هذا البيت .

ثم أرسل إلى الحبرين اللذين كانا يلازمانه فسألهما عن ذلك فقالا :

ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتًا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دلوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعًا .

قال تبع : فماذا تأمرانى أن أصنع إذا قدمت عليه ؟

قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما أن تصنعا ذلك ؟

قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك .

فعرف الملك أنهما نصحا له ، فصدقهما .

وأتى بالنفر من هذيل الذين زينوا له الاعتداء على البيت ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وانطلق نحو مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه وأقام بمكة ينحر للناس ويطعمهم ويسقيهم العسل .

وأراه الله فى المنام أن يكسو البيت ، فكساه الخُصْف[85].
ثم أراه أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه المُعَافر[86].
ثم أراه أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه المُلاء والوصائل[87].

وكان تبَّع هذا هو أول من كسا الكعبة ، وأوصى بذلك ولاته من جرهم وقال تُبَّع فى ذلك شعرًا يذكر فيه كساءه الكعبة :

وكسونا البيت الذى حرَّم الله مُلاءً مُنَضَّدًا وبُرودا
وأقمنا به من الشهور عشرا وجعلنا لبابه إقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا ورفعنا لواءنا المعقودا[88]

وأمر تبَّع ولاة البيت بتطهيره ، وألا يقربوا منه دمًا ولا ميتة ولا قذرًا ، وجعل له بابًا ومفتاحًا ، وهو ما أشار إليه فى أبياته المتقدمة .

وقد ضمنت هذه القصة إحدى شاعرات مكة قصيدة [illegible] فيها ابنها :

أبُنَىَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنَىَّ ولا يغُرَّنْكَ الغرور

---

(85) الخصف والخصاف جمع خصفة ، كساء غليظ من خوص أو ليف .
(86) نوع من الثياب .
(87) الملاء جمع ملاءة ، والوصائل جمع وصيلة ثياب يمنية مخططة .
(88) راجع سيرة ابن هشام ، والكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٢٤١ .

ولقد غزاها تُبَّعٌ فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربى ملكه فيها فأوفى بالنذور
يمشى إليها حافيا بفنائها ألفا بعير
ويظل يطعم أهلها لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى والرحيض من الشعير[89]

أبرهة والكعبة :

وحين غلب أبرهة على اليمن ، وكان يدين بالنصرانية رأى أهل اليمن يتوجهون كل عام إلى مكة فى موسم الحج ، فسأل عن ذلك فأخبروه بأن لهم بيتًا فى مكة يعظمه العرب جميعًا فهم إليه يحجون ، ويطوفون حوله ويتقربون بذلك إلى الله .

فأراد أبرهة أن يصرفهم عن ذلك .

فبنى كنيسة بصنعاء ، افتنَّ فى صنعتها ، وسماها « القُلَّيْس » .

سماها بذلك لارتفاع بنائها وعلوها ، وبذلك سميت القلنسوة التى تعلو الرأس .

واستذل أبرهة أهل اليمن فى بنائها وجشمهم فيها أنواعًا من المشقة والتسخير ، وكان ينقل إليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان - عليه السلام - وهو على فراسخ من هذه الكنيسة ، وقد استعان بذلك لتكون على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجة وجمال وبهاء .

ثم نصب فيها صلبانًا من ذهب وفضة ومنابر من العاج والأبنوس .

وكان يريد أن يرفع من بنائها ليشرف منها على عدن .

---

(٨٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١ والمهارى : الإبل العراب النجيبة ، والرحيض : المغسول .

وأرسل إلى النجاشي فى الحبشة يخبره أنه بنى له كنيسة لم يبن مثلها لملك قبله ، وقال له : لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

ثم دعا أبرهة الناس فى مملكته أن يحجوا إلى القليس ويتركوا الكعبة ، فأبى الناس ذلك .

فلما رأى امتناعهم عليه أقسم أن يهدم الكعبة .

وأمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، وسار وخرج معها بالفيل .

وتعاظم العرب ذلك ، وأجمعوا على مقاومته وحربه ، واعترضوا طريقه ، ولكن الحظ حالفه فانتصر عليهم لغاية يعلمها الله ..

وكان معه من وسائل حربه الفيلة التى لا عهد للعرب بملاقاتها .

وظل يسير بجيشه حتى قدم مكة فأغار على أطرافها ، واستاق ماشية أهلها التى ترعى خارجها ، وأصاب مائتى بعير كانت لعبد المطلب ، يقال إنه كان قد نذرها للحرم .

وهمَّ أهل الحرم بقتال أبرهة ، ولكنهم أدركوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ، فتركوا أمره إلى الله رب الحرم ومانعه .

وأرسل أبرهة يقول لهم – جريًا على عادة الغزاة فى كل زمان – : إنى لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تتعرض[illegible] حرب فلا حاجة لى بدمائكم .

وكأن هذا القول منه كان إيذانًا بالفرج لأهل مكة . فإن الحرب لم يعلنها أبرهة ضدهم ، بل أعلنها بسوء أدبه على الله – جلت قدرته – ومن ذا يقدر على حرب الله ؟ لقد حفر أبرهة قبره بنفسه . وكان كالساعى إلى حتفه بظلفه ..

وأرسل أبرهة يستدعى سيد مكة . فجاء عبد المطلب ، وكان جسيمًا وسيمًا ذا هيبة ووقار ، ما رآه أحد إلا امتلأت نفسه منه إعجابًا وحبًا

وهيبة .. وقيل لأبرهة : هذا سيد قريش الذى يطعم الناس فى السهل ويطعم الوحش والطير على رءوس الجبال .

فلما رآه أكبره وأعظمه ، وأجلسه معه على سريره ، ثم قال لترجمانه : قل له : سل حاجتك .

فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال ذلك ، قال له أبرهة : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير هى لك ، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، فلم تكلمنى فيه ؟

فقال عبد المطلب فى ثقة وإيمان : إنى أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب سيمنعه منك .

قال أبرهة : ما كان أحد ليمنع البيت منى .

فقال عبد المطلب فى تحد بالغ : أنت وذاك .

فرد أبرهة على عبد المطلب إبله .

وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال ، يهتف بالدعاء إلى الله ، يستصرخه ضد هذا المعتدى الذى جاء يعتدى على حرمة هذا البيت ويهدمه ، وقال فى دعائه وهو ممسك بحلقة الباب :

لا هم إن العبد يمنع حله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

ثم أرسل حلقة الباب ، وهو واثق من أن الله حافظ بيته .

وانطلق هو ومن معه من أهل مكة إلى الجبال المحيطة بالكعبة ينتظرون ماذا يفعل أبرهة . وما الله فاعل به .

ها هي ذي مكة قد خلت من أهلها ، ولم يبق أحد من الناس يعترض أبرهة في طريقه إلى بيت الله الذي يزعم أنه لن يمنعه أحد من هدمه .

وانتفخت أوداج أبرهة كبرًا وعجبًا بنفسه ، وزين له الشيطان أنه وحده صاحب الحول والطول ، وأنه وحده صاحب السيادة في الجزيرة العربية كلها ، فإنه لم يجرؤ حتى الآن أن يقف في طريقه أحد ، ومن تجرأ ووقف كانت الهزيمة من نصيبه . إنه الآن بكلمة واحدة من فيه يستطيع أن يحول هذا البناء الذى يملأ النفوس حبًا وإجلالاً إلى أنقاض .

وأطلق هذه الكلمة : لتنطلق الأفيال إلى داخل مكة – وكان أبرهة يعسكر في وادي محسر .

وأسرع السائسون ينفذون أمر الملك ، ويأخذون بزمام الفيلة يقودونها للأمام . ولكن الفيلة تأبى الانقياد ، وتستعصي على الأمر . وقد كانت ذلولاً لسائسيها مطيعة لهم .

فأقبلوا يضربونها ويزجرونها دون جدوى .

ولَوَوْا زمامها نحو اليمن فاستسلمت وسارت .

ووجهوها نحو الشام فانقادت وأسرعت .

ولكنهم إذا وجهوها ناحية مكة استعصت وأبت ..

فأخذهم العجب ، وأبلغوا الأمر لأبرهة فثار وصخب ، وأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وأصدر أوامره بأن يضربوها ويعذبوها ففعلوا ، فما ازدادت الفيلة إلا إباء وعصيانًا .

ولم يطل الأمر أكثر من ذلك ، فقد أرسل الله على أبرهة وجيشه طيرًا أبابيلَ ترميهم بحجارة من سجيل ، فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأصيب أبرهة حتى تساقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره .

وانفلت وزيره وطائر فوق رأسه يحلق ، حتى بلغ النجاشي في الحبشة فقص عليه ما حدث ، فلما أتم قصته أسقط الطائر فوق رأسه الحجر ، فخر ميتًا بين يدى النجاشي .

لقد أراد الله أن ينقل هذا المشهد حيًا أمام النجاشي ليعلم أن الله مانع بيته وحافظ حرمه ، وأراد أن يعلمه بأن أبرهة إن كان قد اعتصم بالفيل الذى هو أضخم حيوان ، فإن الله أهلكه بطائر صغير لم يخطر له على بال ، وحطمه بحجر صغير لا يتعدى حجمه حبة البُرّ يلقيه الطائر فوق الرأس فيخرج من الدبر ، وهو فى طريقه يهرىء الأمعاء ويقطع الأوصال فما يترك صاحبه إلا وقد أصبح أجزاء متناثرة .

وقد وكل الله بقدرته كل طائر بجندى من الجنود ، وعرف كل طائر صاحبه فهو فوق رأسه تمامًا لا يتخطاه .

ولو أن كل أجهزة القتال الحديثة حاولت ضبط ذلك بكل ما أوتيته من تقدم « تكنولوجى » دقيق لعجزت عن أن تقوم بما قامت به هذه الطيور الغريبة الشكل والهيئة والسلاح .

إن قدرة الله الخارقة هى التى جعلت أحد هذه الطيور محلقًا فوق رأس صاحبه يتبعه كظله فى طريقه من مكة إلى الحبشة عابرًا معه البحر ، حتى يصل إلى بلاط النجاشي فيبلغه رسالته . ثم يلقى الطائر حجره فوق رأسه بعد إبلاغ الرسالة ، حتى يشهد النجاشي بعينه رهبة الحادث[٨٩] .

ولكن لا عجب ، فهى قدرة الله .. وحق لأهل الحرم أن يقولوا :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وانطوت صفحة طاغ من الطغاة .

---

(٨٩) راجع سيرة ابن هشام ، وتفسير القرطبى ، وحياة الحيوان للدميرى – مادة الفيل – .

وذهب أبرهة ومن معه عبرة لمن يعتبر وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أن يُطْفِئوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾(٩٠).

وسجل القرآن الكريم قصة أصحاب الفيل أصدق تسجيل ، فى سورة تحمل هذا الاسم :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٩٠)

ماذا حدث للكنيسة ؟

أما الكنيسة التى شيدها أبرهة فى صنعاء ، والتى أراد أن يصرف بها الناس عن حج بيت الله الحرام ، وكان قد بالغ فى رفعها وتشييدها وتزيينها ، واستذل أهل اليمن فى بنائها ، حتى كان حكمه فى العامل فيها إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يعمل قطع يده ، ونفذ هذا الحكم فى عمال كثيرين .

وفى يوم نام رجل من العمال حتى طلعت الشمس ، فجاءت أمه وهى عجوز تستشفع له ، وتضرعت أمام الملك ألا يقطع يد ابنها ، ولكنه أبى إلا أن يقطع يده . فقالت : اضرب بمعولك اليوم ، فاليوم لك وغدًا لغيرك .

وكأن هذه الكلمة قد أيقظت فيه نائمًا ونبهت منه غافلاً .

فقال لها : ويحك ماذا قلت ؟

فقالت : أجل ، كما صار هذا المُلك من غيرك إليك فهو خارج من يدك إلى غيرك .

---

(٩٠) الآية ٣٢ من سورة التوبة .

ويقال : إن هذه الموعظة أثرت فيه فعفا عن ولدها ، وأعفى الناس من السخرة ، ولكن ذلك كان بعد أن أوشكت الكنيسة على الانتهاء .

أما ما حدث لهذه الكنيسة بعد هلاك أبرهة ، فقد أُغفِل أمرها ، وأقفر ما حولها ، وكثرت حولها السباع والحيات ، وحاك الناس حولها الأساطير والخرافات ، فأشاعوا أن كل من أراد أن يأخذ منها شيئًا أصابته الجن .

فتخوفها الناس ، وبقيت مهجورة بما فيها من عدد وخشب مرصع بالذهب والآلات المفضضة التى تساوى قناطير مقنطرة من الأموال إلى زمن أبى العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية .

فذكروا له أمرها وما يتهيبه الناس من أمر الجن الذى يصيب من يقترب منها ، فلم يرعه ذلك ولم يكترث له ، وبعث إليها عامله على اليمن « أبا العباس ابن الربيع » ومعه رجال من أهل الحزم والشجاعة فأتوا عليها .

واندثر هذا البنيان وانقطع خبره وضاع أثره[91].

احترام الأشهر الحرم :

وها نحن أولاء نرى أن الكعبة حين بنيت بادىء ذى بدء كانت بأيد طاهرة مطهرة ، فقد بنتها الملائكة أو بناها آدم – عليه السلام – .

ثم جاء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – فرفعا قواعدها بأمر من الله بعد أن كان الطوفان قد أغرق الأرض وغطى كل جزء فيها .

وتظل الكعبة بيت الله فى الأرض يقصدها الناس حاجين ومعتمرين من كل مكان .

ومن أجل الحج والعمرة كانت الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال ، وهى الأشهر التى كان الناس – وما زالوا – يتوافدون فيها إلى الكعبة .

---

(٩١) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٠٧ .

كانوا يذهبون فى رجب معتمرين .

وكانوا يذهبون فى ذى القعدة وذى الحجة والمحرم إلى الكعبة حاجين ..

وفى الأشهر الحرم يقول الحق - تعالى - :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ...﴾(٩٢)

وكان العرب يحترمون هذه الشهور ، فإذا لقى الواحد منهم قاتل أخيه أو أبيه لا يعتدى عليه ولا يثأر منه .

ولكنهم كانوا يحتالون أحيانًا فينسأون .

ذلك .. لأنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ، ويقولون : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئًا من عدونا لنهلكن .

فكانوا إذا صدروا من منى يقدم رجل من بنى كنانة فيقول : أنا الذى لا يُرَدُّ لى قضاء ، فيقولون له : أنسئنا شهرًا ، أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر ، فيحل لهم المحرم ويُحرَّم عليهم صفر .

فمازالوا يفعلون ذلك شهرًا فشهرًا حتى استدار التحريم على السنة كلها .

فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه وهذا معنى قوله - ﷺ - فى حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض »(٩٣).

---

(٩٢) من الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٩٣) تفسير القرطبى -سورة التوبة ص ٢٩٧٦ ط دار الشعب - سيرة ابن هشام ٢ / ٦٠٤ ط الحلبى .

وللنسيء تعليل آخر أشار إليه بعض العلماء ، وهو أن نظام الحج كان يقوم على أساس التقويم القمرى ، ولكن الذين كانوا يتولون شئون الكعبة أرادوا أن يحددوا أيام الحج وفق التقويم الشمسى ، لتقع أيامه فى موسم واحد دائمًا لأن ذلك مفيد لتجارتهم ، فاستعارت قريش مبدأ النسيء أو ما يسمى « الكبيسة » من الشعوب الأخرى وأجرتها فيما يتعلق بالحج . وتتكون السنة الشمسية من ٣٦٥ يومًا بينما السنة القمرية ٣٥٤ يومًا فهناك فارق يقدر بأحد عشر يومًا بين السنتين ، ويصل هذا الفارق إلى ثلاثة أشهر كل ثمانى سنوات . فكانت قريش تضيف إلى الشهور القمرية أيامًا بقدر هذا الفارق لكى يمشى الشهران القمرى والشمسى معًا ، وكان هذا الدوران يتم فى ثلاث وثلاثين سنة ، وهكذا استمرت قريش تقيم الحج لمدة ثلاث وثلاثين سنة متواصلة فى غير أيامه الأصلية ، وعاد إلى موضعه الطبيعى - فى ذى الحجة - فى العام العاشر الهجرى وهو العام الذى حج فيه النبى - ﷺ -(٩٤) وهذا يفسر قول النبى - ﷺ - السابق .

وقد أشرنا بتفسير النسيء الأول إلى احترام العرب للكعبة وحجاجها ، واحتيالهم بالإنساء على تحليل شهر مكان تحريمه ليأمن الحاج ، ولأنهم يتخوفون من نقض ما التزموا به من احترام هذه الشهور التى جعلها الله موسمًا لزيارة بيته .

وظل الناس على هيبتهم للكعبة واحترام زائريها ، حتى ألزموا أنفسهم أمر الرعاية والسقاية والإطعام لهؤلاء الذين يأتون زائرين البيت من شتى بقاع الأرض .

وكان الخزاعيون حين تولوا أمر الكعبة - كما سبق أن عرفنا - قد غيروا وبدلوا وأدخلوا الأصنام إلى حرم الكعبة ، فأشركوا بالله عند الإهلال له بالتلبية . وحاول من بقى من سلالة إسماعيل رد الناس إلى الحق دون جدوى .

---

(٩٤) حقيقة الحج - وحيد الدين خان - ص ١٠٠ . رابطة الجامعات الإسلامية .

لقد قال إبراهيم – عليه السلام – فى دعائه ﴿واجنُبنِى وَبَنِىَّ أنْ نَّعْبُدَ الأصنَامَ﴾[٩٥] وصدق الله وعده ، فجنَّبه وبنيه عبادة الأصنام .

وكانت عبادة الأصنام على يد الوافدين إلى الكعبة الذين استطاعوا فى غفلة من الزمن – لأمر أراده الله – أن يتولوا أمر الكعبة .

وبقصى بن كلاب بدأت المسيرة تتحرك بأمر الكعبة إلى الطريق الصحيح . وتحددت التبعات والمسئوليات . فقد وزع قصى الاختصاصات بين قومه ..

فهناك من يتولى الرفادة والسقاية .

وهناك من يتولى الحجابة .

وبنى دار الندوة ، وجعلها مقرًا للحكم ، ثم صارت بعد ذلك مكانًا للتشاور ، وعقد الألوية ، وفض المنازعات وإبرام مهام الأمور .

وهى أول دار بنيت بمكة ، وبنى الناس حولها بعد ذلك[٩٦].

وقصى هو الذى جمع أمر قريش بعد أن كان متفرقًا فسموه مجمعًا ، بل يقولون : إنه به سميت قريش قريشًا ، لأن التجمع هو التقرش .

وكان قصى يجلس فى دار الندوة للحكم وإدارة الشئون وتدبير الأمور ، يعاونه فى ذلك ابنه عبد مناف الذى بلغ بسبب ذلك شأنًا كبيراً .

قصى يفرض السقاية والرفادة :

لقد فرض قصى على قريش الرفادة والسقاية ، وخطب فيهم قائلاً :

يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيفان الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم .

---

(٩٥) إبراهيم

(٩٦) بلوغ الأرب للآلوسى ص ٤٨ .

ففعلوا ، فكانوا يخرجون كل عام من أموالهم خرجًا ، يترافدون ذلك ، فيدفعونه إليه ، فيصنع الطعام للناس أيام منى وبمكة ، ويصنع حياضًا للماء من أدم فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة .

وجرى على ذلك أمره وتوارثه أبناؤه من بعده ، حتى جاء الإسلام .

وكان قصى حين رأى ما اكتسبه ابنه عبد مناف من منزلة بين العرب أراد أن يخص ابنه عبد الدار بشيء يعلى شأنه ، فأعطاه أمر دار الندوة والحجابة وغيرهما .. ولكن الأمر ظل على ما هو عليه بين الإخوة يقومون به على خير وجه لا يختص أحد بشيء دون آخر . حتى نشأ الأحفاد ، وحدث بينهم صراع أوشك أن يشعل حربًا ضروساً ، حتى استطاع عبد المطلب بن هاشم جد النبى - ﷺ - أن يطفىء هذه الحرب ويقضى على أسباب النزاع .

جمع قومه وعشيرته وقال لهم :

سيكون لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة .

ويكون لبنى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة .

وارتضى القوم ذلك وما كادوا يرتضون .

هاشم بن عبد مناف :

ومما يدل على تعاون أبناء قصى على أمر الكعبة ورعاية الحجيج ما كان يفعله هاشم بن عبد مناف ..

وهاشم كان اسمه « عمرًا » وهو صاحب إيلاف قريش ، وهو الذى سنّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم فى سورة قريش :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

وإنما سمى هاشمًا ، لأن قريشًا أصابتها سنوات عجاف ذهبت بالأموال وأصاب الناس جهد شديد ، فخرج هاشم إلى الشام ، وعاد بخبز كثير كان قد أمر بخبزه وحمله في الغرائر على ظهور الإبل ، فهشم ذلك الخبز وجعله ثريدًا ، ونحر تلك الإبل وأمر الطهاة أن يطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ، فكان ذلك أول الحيا من تلك المجاعة التى أصابتهم .

فسمي بذلك هاشمًا ، وفى ذلك يقول الشاعر « عبد الله بن الزبعرى » :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف[٩٧]

وكان هاشم على يسار ، واجتمعت له الرفادة مع السقاية ، وكان يحض القرشيين على إكرام الحجيج ، وإذا حضر الموسم قام فى قريش خطيبًا وقال لهم :

يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره .

عبد المطلب بن هاشم :

وبعد وفاة هاشم تولى أمر الكعبة ابنه عبد المطلب ..

وعبد المطلب اسمه « شيبة » ، ولتسميته بعبد المطلب قصة طريفة – ذلك أن أباه هاشم بن عبد مناف – وكان رجلاً شريفًا ذا مروءة فى قومه ، وفد على قيصر ، وأخذ منه الحلف لقريش على أن تسافر فى تجارتها آمنة ، وفى رجوعه مر على المدينة ، وتزوج منها بامرأة من بنى النجار اسمها « سلمى بنت عمرو بن زيد » وكانت من شريفات قومها ، وحين وُصف لها هاشم عرفت له شرفه ونسبه وفضله فقبلت الزواج منه .

---

(٩٧) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٣ .

وأولم هاشم بالمدينة وأطعم قومه وأهل المدينة .

وأقام بأصحابه بالمدينة أيامًا دخل فيها بزوجته .

وعلقت سلمى من زوجها بغلام ، وحين ولدته كانت فى رأسه شيبة فسمى « شيبة » .

ثم خرج هاشم فى أصحابه إلى الشام فمات بها ، ودفن بغزة ، وله قبر بها باق إلى اليوم .

ودرج شيبة بالمدينة حتى كبر ، ولا تكاد أخباره تعرف عند إخوته وأعمامه بمكة .

وقدم ثابت بن المنذر – وهو والد حسان بن ثابت – شاعر الإسلام إلى مكة معتمرًا ، وكان صديقًا للمطلب بن عبد مناف ، أخى هاشم .

فقال له : لو رأيت شيبة ابن أخيك لرأيت جمالاً وشرفًا وهيبة ، لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانًا من أخواله ، فيدخل مِرْمَاتَيْه جميعًا فى مثل راحتى هذه ويقول كلما خسق – أى أصاب – أنا ابن عمرو العلى .

فقال المطلب : لا أمسى حتى أخرج إليه فأقدم به .

فقال له ثابت : ما أرى سلمى أمه تدفعه إليك ولا أخواله ، وهم أضنُّ به من ذلك . وما عليك أن تدعه فى أخواله حتى يكون هو الذى يقدم عليك إلى ها هنا راغبًا فيك ؟

فقال المطلب : يا أبا أوس ، ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ، ونسبه وشرفه فى قومه ما قد علمت .

فخرج المطلب ، فورد المدينة . فنزل فى ناحية ، وما زال يسأل عن شيبة حتى وجد يرمى فى فتيان من أخواله .

فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ، ففاضت عيناه ، وضمه إليه وكساه حلة يمانية .

وعلمت سلمى بمكانه فأرسلت إليه تدعوه إلى النزول عليها .

فقال : شأني أخف من ذلك . ما أريد أن أحل عقدة حتى أقبض ابن أخي ، وأعود به إلى قومه وبلده .

فقالت سلمى : لست بمرسلته معك ، وغلظت عليه .

فقال لها المطلب : لا تفعلي فإني غير منصرف حتى أخرج به معي ، إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت لنا شرف في قومنا ، ومقامه في بلده خير من مقامه هنا ، وهو ابنك حيث كان .

فلما رأت عزمه على ذلك أمهلته ثلاثة أيام ، وتحول المطلب إليهم فنزل عندهم ، فأقام ثلاثًا ، ثم احتمله وانطلق به عائدًا إلى مكة وقد أردفه خلفه .

ودخل المطلب مكة ظهرًا ، فلما رآه الناس ورأوا خلفه شيبة ابن أخيه ، ظنوه عبده فقالوا : هذا عبد المطلب .

فقال لهم : ويحكم ، إنما هو شيبة ابن أخي عمرو .

فلما أمعن القوم النظر فيه قالوا : إنه ابن عمرو حقًا ! . وعمرو هو هاشم – كما عرفنا – .

فغلب على شيبة اسم عبد المطلب ، كما غلب على عمرو اسم هاشم .

مآثر عبد المطلب :

ويكبر عبد المطلب ، ويتولى زعامة قريش ، وتصبح له الولاية على البيت ، ويهتم اهتمامًا كبيرًا بشئونه ، وتولى بعد عمه المطلب الرفادة والسقاية .

وكان يقدم الطعام للحجاج ، ويسقيهم الماء في حياض صنعها من الأدم وكان يجد في ذلك مشقة وجهدًا ، ولكنه كان يحتمل ذلك إكرامًا للبيت وصاحبه .

وشغله أمر الماء ، وجعل يسترجع بذاكرته أمر إسماعيل الذى فجر الله تحت قدميه بئرًا كانت تسقى الناس فى مكة ..

أين هذه البئر الآن ؟

أين زمزم التى كان لها ذات يوم شأن وأى شأن ؟

ألم تكن هى سبب تعمير هذه الديار وقد كانت بلاقع لا يحيا بها إنسان أو حيوان ؟

أين هى وقد طمتها جرهم التى غُلبت على أمرها وطردت من مكة ، وغيبت أثرها قبل أن تخرج ، بعد أن دفنت فيها غزالتين من ذهب ، وسيوفًا ودروعًا .. ؟

لقد شغلت زمزم تفكير عبد المطلب .

وشغل عبد المطلب معه ابنه الكبير « الحارث » فى هذا الأمر ..

إنه لم يعد فى مقدور أحد أن يعرف مكان هذه البئر التى يتناقل الناس خبرها ، ويتمنون أن يعرفوا مكانها ..

لقد مر على ردم هذه البئر مئات السنين ، وليست هناك دلائل أو معالم معروفة تيسر الاهتداء إلى مكانها .

إنه يجب على من يريد العثور عليها أن يقلب كل شبر حول الحرم بحثًا عنها ومن ذا الذى يطيق ذلك ؟

وكاد اليأس يستولى على عبد المطلب ، ولكنه يجاهد نفسه مستمسكًا بأشعة من أمل تقوده إلى مكان هذه البئر ، التى تعينه لو اكتشفت على تقديم الماء لضيفان بيت الله .

إن غايته سامية ، ولابد أن شرف الغاية يعين بفضل الله على نيل المطلوب وتحقيق المرغوب .

وهنا تتدخل السماء مرة أخرى كما تدخلت من قبل أيام إسماعيل .

رأى عبد المطلب فى المنام من يقول له : احفر طيبة . فقال : وما طيبة؟ ولكنه لم يسمع إجابة .

وأصبح عبد المطلب فى يومه متحيرًا من أمر هذه الرؤيا ، التى لم يعرف لها تأويلا .

ثم جاءه فى الليلة الثانية نفس الصوت يقول له : احفر برّة .. فيقول عبد المطلب : وما برة ؟

ولا يسمع جوابًا لسؤاله ، ويستيقظ ، وقد ازدادت حيرته ..

ثم يأتيه الآتى فى الليلة الثالثة فيقول له : احفر المضنونة ، فيقول عبد المطلب : وما المضنونة ؟ أبِنْ لى وأفصح . ولكن الآتى لا يزيد على ذلك حرفًا واحدًا ، وينصرف .

وتزداد حيرة عبد المطلب ، وتصبح نفسه مهيأة لأمر لا يدرى عنه شيئًا ، ولكن تباشير الأمل تستيقظ فى داخله وتفعل فعلها فى قلبه .

إنه يخاطب من قوة مجهولة لديه ، ولابد أن هذه القوة ستفصح له عما تريد . وقد أفصحت فعلاً .

ففى الليلة الرابعة جاءه الذى يأتيه فيقول له :

احفر زمزم . فقال عبد المطلب : وما زمزم ؟

قال له الصوت : لا تُنزح ولا تُزم . تسقى الحجيج الأعظم . وهى بين الفرث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم ، وهى شرب لك ولولدك من بعدك .

الله أكبر لقد برح الخفاء وانكشف الغطاء .

وكان غراب أعصم لا يبرح مكان الذبائح التى تنحر حول الكعبة ، يعكف على الفرث والدم الذى تخلفه هذه الذبائح .

يا لقدرة الله ، وما أشبه هذا الماء باللبن الذى يسيل من بين الفرث والدم . يقول الحق – سبحانه وتعالى – ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً

﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[٩٨].

وقام عبد المطلب من نومه متهللاً ، وغدا بابنه الحارث إلى موضع العلامة .

ولم يكن له ولد فى ذلك الوقت سواه .

وأقبل عبد المطلب على الحفر بهمة لا تعرف الكلل ، أخذ يحفر بالمعول ، ويغرف بالمسحاة فى المكتل ، ويحمل الحارث المكتل على عاتقه فيلقيه بعيدًا ..

ومكثا دائبين على العمل ثلاثة أيام ، حتى بدا لعبد المطلب طِوِىُّ البئر فكبر فرحًا ، وقال : هذا طوى إسماعيل .

وتسامعت قريش بالخبر ، وعرفت أن عبد المطلب قد أدرك الماء .

وأقبل القوم سراعًا ينازعونه فيه .. وهم الذين كانوا بالأمس يسخرون منه .

قالوا له : أشركنا يا عبد المطلب معك فى الماء .

فقال عبد المطلب – فى حزم – : ما أنا بفاعلٍ ، هذا أمر قد خصنى الله به دونكم . واحتدم النزاع بينه وبينهم ، وهو يومئذ قليل الولد ليس معه إلا الحارث . فنذر إن رزقه الله من الولد عشرة ذكور ليذبحن أحدهم قربانًا لله .

وحين اشتد الصراع اقترحوا عليه أن يتحاكموا إلى كاهنة بنى سعد هذيم ، وكانت بمعان من أشراف الشام ، وكان الناس يتحاكمون إليها فيما يهمهم من أمور ويلم بهم من خطوب .

ووافق عبد المطلب على الاقتراح .

---

(٩٨) الآية ٦٦ من سورة النحل.

وخرج ومعه عشرون رجلاً من بنى عبد مناف ، وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها ..

آية فى الطريق :

ذكر بعض الرواة أنهم ساروا يغذون السير فى طريقهم إلى الشام ، ونفد ما معهم من ماء وأشرفوا على الهلاك ، وهم فى مفازة حارقة لا ماء فيها .

فقالوا : ما العمل ؟

وأقبلوا على عبد المطلب يطلبون رأيه ، وكانوا يعرفون فيه الحزم والأناة وحسن الرأى .

فقال : والله ما أرى إلا أنه الموت ، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه ، فكلما مات رجل دفنه أصحابه ، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا فيموت ضيعة ، وهذا أيسر من أن تموتوا جميعًا ضيعة .

فحفروا ، ثم قعدوا ينتظرون الموت .

ثم قال عبد المطلب : والله إن بقاءنا هكذا وإلقاءنا ما بأيدينا لعجز . ألا نضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأماكن ؟

فارتحلوا ، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب .

فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، وشربوا جميعًا .

ودعا من كان قد ابتعد من الرفقاء قائلاً : هلموا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله ، فعادوا وشربوا واستقوا .. وقالوا :

قد قضى الله لك علينا يا عبد المطلب .

إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة الموحشة ، وقد كدنا نهلك عطشًا ، هو الذى سقاك زمزم ، فو الله لا نخاصمك فيها أبدًا .

فرجعوا دون أن يصلوا إلى الكاهنة ..

وعاد عبد المطلب إلى زمزم يكمل عمله فيها .. واستخرج منها الكنوز التى دفنتها جرهم .

فضرب الغزالتين صفائح فى وجه الكعبة وكانتا من ذهب .

وعلق الأسياف على البابين ، وجعل مفتاح الكعبة وقفلها من ذهب .. لم يكن هم عبد المطلب المال .. ولكن همه كان الماء يسقى به الحجيج . وقد كفاه الله هذا الهم ، وأصبحت زمزم شربًا عامًا للحجيج ، ويسر عبد المطلب أمر نقله إلى منى وعرفات[٩٩] .

وعظم أمر عبد المطلب ، وقد حباه الله وسامة وجمالاً وحلمًا وكرمًا .

وكان يفرش له بساط فى فناء الكعبة يجلس عليه ، ولا يجرؤ أحد أن يجلس على البساط بجواره ، حتى ولد محمد - ﷺ - وكبر فكان يأتى ويجلس بجوار جده ، فيحاول أعمامه أن يحولوا بينه وبين ذلك ، فيقول جده عبد المطلب : دعوه فسيكون لابنى هذا شأن .

وسيأتى مزيد من الحديث عن زمزم بعد إن شاء الله تعالى .

قريش تبنى الكعبة :

وتولى زمام البيت بعد عبد المطلب ابنه أبو طالب ، وهو الذى كفل النبى - ﷺ - بعد وفاة جده ، وبذلك أوصاه والده .

وشاء القدر أن يشب حريق أمسك بثياب الكعبة فأحرقها وهدم بنيانها .

ونظرت قريش فرأت ذلك البيت العتيق الذى عجز أبرهة بأفياله أن يهدمه ، ووقف قبله «تبع» أمامه ذليلاً خاشعاً .. رأته محطمًا متداعيًا .. وجاء سيل اجتاح مكة وأحاط بالبيت فصدعه .

---

(٩٩) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٩ .

واجتمع القرشيون فى دار الندوة يتشاورون فى أمر الكعبة ، وبعد نقاش طويل وتردد كبير أجمعوا على إعادة البناء .

ولكن البناء لابد أن يسبقه هدم ليقوم على أساس متين وقد ذكر بعض الرواة أنه كانت هناك حية عظيمة تسكن بين الردم الذى حمله السيل الجارف حول الكعبة ، وجعلت تهدد كل من يحاول الاقتراب منها .

وأصبح القرشيون بين وجلين ، وجل التعرض بالهدم للكعبة التى بناها إبراهيم ، فقد يكون فى ذلك إغضاب لله .

ووجل التعرض لهذه الحية المخيفة التى ما يحاول أحد الاقتراب من البنيان إلا تهيأت فاتحة فاها ، وأصدرت فحيحًا مزعجًا ، وحاولت ابتلاعه .

ولكن الله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه ، ويسر على الطالبين طلابه .

لقد كفى الله القرشيين شر هذه الحية ، فقد انقضت عليها عقاب من السماء فحملتها بين مخالبها إلى حيث لا يدرى أحد ..

وكان هذا إيذانًا برضا الله عن العمل الذى توشك قريش أن تقوم به . والشعر ترجمان صادق للأحداث التى تحدث ، ولا تفوته مناسبة طريفة كهذه يسجلها ، ولذلك قال الزبير بن عبد المطلب - فيما يذكره ابن إسحاق فى سيرته - فى شأن هذه الحية التى اختطفتها العقاب :

عجبت لما تصوبت العقاب	إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش	وأحيانًا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	فهبنا للبناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الزجر جاءت	عقاب حلقت ولها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت	لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء	لنا منه القواعد والتراب
فبوأنا المليك بذاك عزا	وعند الله يلتمس الثواب(١٠٠)

---

(١٠٠) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٢٣١ ، باب عقاب ، وسيرة ابن هشام ، وتفسير ابن كثير .

وكانت سفينة لبعض تجار الروم قد جنحت فى البحر ، ورمت بها الأمواج على الساحل قرب جدة ، فأقبل القرشيون إليها واشتروا خشبها ليستعينوا به فى سقف الكعبة ، وتصادف أن كان مع أصحاب السفينة بنَّاء اسمه « ياقوم » فعرضوا عليه أن يقوم بالبناء فوافق . واصطحبوه معهم إلى مكة .

لقد أصبحت الأسباب مهيأة للبناء .

فما عليهم إلا أن يرفعوا الأنقاض ، ويهدموا الجدر المتداعية ، ثم يشرعوا فى العمل .

وقام رجل اسمه « أبو وهب بن عمرو بن عائذ » من بنى مخزوم فتناول من الكعبة حجرًا ، وإذا بالحجر يثب من يده ويرجع إلى موضعه من الكعبة .

فنادى قائلاً : يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنيان الكعبة من كسبكم إلا طيبًا ، لا ينبغي أن يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

لقد فهم أبو وهب من رمز وثوب الحجر من يده أمرًا عجيبًا ..

لقد أدرك بفطرته أن الله يريد منهم ألا يشرعوا فى البناء إلا بشروط صالحة ونية حسنة وإجماع تام .

وقسم القرشيون تكاليف العمل فيما بينهم ، وجزءوا البناء أجزاء .

فوقع لعبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحجر – وجه البيت –

ووقع لبني أسد بن عبد العزى وبنى عبد الدار ما بين ركن الحجر إلى ركن الحجر الآخر .

ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحجر الآخر إلى الركن اليمانى .

ووقع لسهم وجمح وعدى وعامر بن لؤى ما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود .

وجاء دور الهدم ليقيموا البنيان ، فتوجسوا ، وبخاصة بعد أن ارتد الحجر الذى أخذه أبو وهب إلى موضعه .

ولما رأى الوليد بن المغيرة ترددهم وتوجسهم أخذ المعول ، ثم اعتلى جدار الكعبة ، وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم لا نريد إلا الخير .

وهى كلمة يقصد بها إظهار نية البر فى عمله ، ولا يقصد بها إظهار الله - جل وعلا - فى صورة المرتاع .

ثم هدم من ناحية الركنين .

فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر فإن أصيب لا نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غاديًا إلى عمله ، فهدم وهدم الناس معه .

حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - انتهوا إلى حجارة خضر تشبه أسنة الرماح آخذ بعضها ببعض .

وحاول أحدهم أن يدخل عتلة بين حجرين ليقلع أحدهما ، فلما تحرك الحجر اهتزت مكة كلها ، فأمسكوا عند هذا الحد .

وبنوا على ذلك الأساس الذى انتهوا إليه .

وكانت كل قبيلة تجمع من الحجارة ما تقيم به الجزء الذى تعاهدت عليه .

وبدأ البناء وأخذ يعلو ويرتفع ، وكان النبى - ﷺ - وسنه إذ ذاك خمس وثلاثون سنة ، يعمل مع قومه فى البناء ونقل الأحجار ، وحين أثرت الأحجار على عاتقه تناول إزاره ورفعه على عاتقه، وإذا به يسمع صوتًا من السماء يأمره بأن يأتزر ، فغشى عليه حين سمع الصوت ، ولما أفاق أخبر عمه العباس وكان فى مثل سنه بما سمع ، وقال : لقد نهيت أن أمشى عريانًا .

النبى يضع الحجر الأسود فى مكانه :

وجاء دور الحجر الأسود ليوضع فى مكانه ، فكل قبيلة أرادت أن يكون لها شرف وضعه ، وتنازعوا فى ذلك تنازعًا شديدًا ، أوشك أن يؤدى إلى نشوب حرب ، بل إن بنى عبد الدار قربوا جفنة من الدماء وغمسوا أيديهم فيها ، كناية عن التحالف على الحرب والفناء فى سبيل ذلك .

ومكثت قريش على ذلك النزاع أربع ليال أو خمسًا .

واجتمعوا للتشاور ، وأشار عليهم أبو أمية بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان أسنَّ قريش فى ذلك الوقت بأن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، وارتضوا جميعًا هذا الرأى .

وتعلقت عيونهم بالباب فإذا بأول من يدخل هو النبى - ﷺ - .

ففرحوا جميعًا وهتفوا قائلين : هذا الأمين وكلنا نرضاه .

وشرحوا أمامه ما أرادوا ، فقال : هَلُمَّ ثوبًا .

وفرش الثوب ، وتناول الحجر بيده الشريفة ، ووضعه فوق الثوب ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل .

وجاء من كل ربع رجل ، فقال النبى - ﷺ - : ليأخذ كل منكم بطرف من أطراف الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا ، فرفعوه ، وساروا به حتى حاذوا به الركن ، فتناوله الرسول - ﷺ - بيده الشريفة ووضعه فى مكانه من الركن .

فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبى - ﷺ - حجرًا يشد به الركن . فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحّاه ، وناول العباس رسول الله - ﷺ - حجرًا فشد به الركن .

فغضب النجدى - حيث نُحّى - ، فقال النبى - ﷺ - : إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا منا .

فقال النجدى : يا عجبا لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنًا ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقًا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدودًا ..

ويقال : إنه إبليس – لعنه الله – تمثل فى صورة هذا النجدى . فقال أبو طالب :

إن لنا أوله وآخره فى الحكم والعدل الذى لا ننكره
وقد جهدنا جهده لنعمره وقد عمرنا خيره وأكبره
فإن يكن حقًا ففينا أوفره[١٠١]

وقد سجل قضية التحكيم هذه هبيرة بن وهب المخزومى بشعر قال فيه :

فلما رأينا الأمر قد جد جده ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا : رضينا بالأمين محمد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله أعم وأرضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا له حصة من رفعها قبضة اليد
فقال : ارفعوا حتى إذا ما علت به أكفهم واف به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه فأعظم به من رأى هادٍ ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة يروح لها هذا الزمان ويغتدى[١٠٢]

وبذلك يكون النبى – ﷺ – قد وضع الحجر الأسود بيده الشريفة ، وهو أهم ركن فى الكعبة ، وهو الذى ينبغى للمسلم أن يستلمه أو يقبله أو يشير إليه بالتحية فى حجه واعتماره .

فضل الحجر الأسود :

وقد ورد فى فضل الحجر الأسود آثار عدة تشيد بفضله .

---

(١٠١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٩٤ .

(١٠٢) هامش سيرة ابن هشام – محيى الدين عبد الحميد – جـ ١ ص ٢١٤ ط دار التحرير .

منها : « الحجر الأسود من الجنة »[103].

وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : « الحجر الأسود من الجنة ، وكان أشد بياضًا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك[104].

وروى أن : الحجر والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ، ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب[105]. رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا : أن الركن الأسود والركن اليمانى ياقوتتان من الجنة ، ولولا ما طمس من نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب . وفى رواية : ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص .

ونحن نرى فى هذا الحجر ما ارتآه خليفة المسلمين الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قوله : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله – ﷺ – يقبلك ما قبلتك .

ومن الآثار الواردة فى فضائل الحجر الأسود ما ذكره السيوطى عن النبى – ﷺ – : الحجر يمين الله فى الأرض فمن مسح يده على الحجر فقد بايع الله ألا يعصيه[106].

وكانت مزية الحجر الأسود معروفة متواترة ، فمن ثم حرص الناس منذ القدم على استلامه وتقبيله والتشرف بالحفاظ عليه .

وها قد رأينا كيف أوشك القرشيون على خوض حرب دامية من أجل شرف وضعه فى مكانه ، حتى وفق الله نبيه – ﷺ – إلى حل هذه المعضلة ، واختصه بأن يكون هو الذى يضعه بيمينه فى الركن ، وفى ذلك دلالة كافية على قدسية هذا الحجر ورفعته .

---

(103) رواه السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٣٧٩٩ وفى جمع الجوامع برقم ٥١ / ١٠٤٢٦ .

(104) الجامع الصغير برقم ٣٨٠١ وفى جمع الجوامع برقم ٥٤/١٠٤٢٩ .

(105) جمع الجوامع ٥٥ / ١٠٤٣٠ .

(106) الحديث فى جمع الجوامع ط مجمع البحوث برقم ٥٩ / ١٠٤٣٤ .

القرشيون يواصلون البناء :

واستمر القرشيون بعد أن هدأت الخواطر فى البناء ، حتى انتهوا إلى موضع الخشب ، ثم جعلوا لها سقفًا ، وجعلوا لها ميزابًا ، وجعلوا فى داخلها رسومًا تفنن الرومى « ياقوم » فى رسمها ، فقد رسم إبراهيم - عليه السلام - كما تخيله ، وصور بعض الملائكة ، وصورة مريم وابنها - كل ذلك من خياله - وقد بقيت هذه الصور حتى جاء الإسلام فمحا النبى - ﷺ - تلك الصور .

مساحة الكعبة :

وجعل القرشيون ارتفاع الكعبة من الخارج - من أعلاها إلى الأرض - ثمانية عشر ذراعًا ، منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل عليه السلام، واختصروا من عرضها أذرعًا جعلوها فى الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها ، ورفعوا بابها ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ، ثلاثًا فى كل صف من الشق الذى يلى الحجر إلى الشق اليمانى .. أما السقف فهو من خشب الدوم وجريد النخل(١٠٧) .

وفى إخراج الحجر من الكعبة يقول النبى - ﷺ - لعائشة : إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلم أريك ما تركوه منه ، فأراها قريبًا من سبع أذرع فى الحِجر ، قالت عائشة : وقال رسول الله - ﷺ - فى حديثه : ولجعلت له بابين موضوعين فى الأرض شرقيًا وغربيًا ، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : لا أدرى . قال : تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا(١٠٨).

---

(١٠٧) مجلة الوعى الإسلامى (استطلاعات) أعداد ذى الحجة ١٣٩٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٦ .

(١٠٨) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٩٥ ، وتفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٥ .

الكعبة فى الإسلام :

وبعث النبى - ﷺ - فزاد من تعظيم الكعبة وجلالها ..

وكان قبل الهجرة يذهب للطواف حولها والصلاة فيها ، وينتظر مواسم الحج والعمرة ليدعو الوافدين إلى الكعبة لدين الله ..

وكم أوذى النبى - ﷺ - فيها ..

وكان يرى ما نصبه المشركون من أصنام حول الكعبة فيأسى لذلك ، ويرجو الله أن يكشف العمى عن قلوب قومه فيؤمنوا بالله واليوم الآخر ، ويتركوا عبادة هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر .

واستجاب الأنصار لدعوة النبى - ﷺ - فبايعوه على نصرته عند العقبة ، ورحبوا بأصحابه مهاجرين إلى المدينة حيث العزة والمنعة ، فهاجروا فرادى وجماعات .

ثم أمر النبى - ﷺ - بالهجرة فهاجر ومعه رفيقه أبو بكر - رضى الله عنه - .

تحويل القبلة إلى الكعبة :

وكانت الصلاة قد فرضت قبل الهجرة ، ولكن القبلة كانت تجاه بيت المقدس . فكان النبى - ﷺ - يقف خلف الكعبة بين الركنين ويتجه إلى بيت المقدس فى صلاته ، وبذلك تكون الكعبة بينه وبين بيت المقدس .

فلما هاجر لم يستطع أن يفعل ذلك ، واستمر فى اتجاهه إلى بيت المقدس بضعة عشر شهرًا ، وكان يبتهل إلى الله أن يحول المسلمين إلى الكعبة فى صلاتهم حتى نزل الأمر بذلك فى قوله - تعالى - :

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١٠٩)

واستراحت نفس النبى - ﷺ - واطمأن قلبه ، وفرح فرحًا شديدًا باستقبال الكعبة فى صلاته ، أول بيت وضع للناس .

وقد اشتد حنق اليهود وضيقهم حين رأوا المسلمين يهجرون بيت المقدس إلى الكعبة فى صلاتهم ، وإنهم ليعرفون أن هذا التحويل هو الحق - كما أخبر بذلك القرآن الكريم .

كما أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ليس غضًا من شأن بيت المقدس أو تهوينًا لقدره . ولكنه إرجاع للأمر إلى أصوله . حيث إن الذى رفع البيت الحرام إبراهيم - عليه السلام - الذى ينتسب إليه موسى وعيسى ومحمد - ﷺ - ومن الحق اتباع الأصل لا الفرع .

وربما كانت علة اتجاه المسلمين أولاً إلى بيت المقدس أن الصلاة فرضت فى مكة ، فأمر المسلمون بالتوجه إلى بيت المقدس ليتميزوا عن المشركين الذين كانوا يتجهون إلى الكعبة . وقد أسرى بالنبى - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء ، ففى التوجه إليه إشعار بجلاله وصدق الأنبياء الذين كانوا قبله ، وفيه امتحان أيضًا لصدق إيمان من آمن ، مصداقًا لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾(١١٠) .

الكعبة قبلة الأنبياء جميعًا :

بما أن البيت الحرام فى الواقع هو قبلة الأنبياء جميعًا ، وإليه كانوا يحجون كما علمنا سابقًا ، وهو البيت الذى أضافه الله إلى نفسه من بين بيوت العبادة كلها .

---

(١٠٩) الآية ١٤٤ من سورة البقرة

(١١٠) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

وفي ذلك يقول الإمام الرازى : « إن الله خص الكعبة بإضافتها إليه فى قوله : بيتى ، وخص المؤمنين بإضافتهم بصفة العبودية ، وكلتا الأضافتين للتخصيص والتكريم ، فكأنه – تعالى – قال : يا مؤمن أنت عبدى والكعبة بيتى والصلاة خدمتى ، فأقبل بوجهك فى خدمتك إلى بيتى وبقلبك إلَىَّ »(١١١)..

وأسند إلى بعض الأئمة أن اليهود استقبلوا قبلتهم لأن النداء لموسى عليه السلام جاء منه وذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إلى موسى الأَمْرَ﴾(١١٢) .

والنصارى استقبلوا المشرق لأن جبريل – عليه السلام – إنما ذهب إلى مريم – عليها السلام – من جانب المشرق لقوله – تعالى – : ﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا ﴾(١١٣).

ومعنى ذلك أن القبلة الأساسية هى الكعبة ، وإنما غير اليهود والنصارى باجتهاد منهم لا بتكليف لهم .

ومن الطرائف التى حدثت أثناء تحويل القبلة ما يرويه الرواة ، من أن النبى – ﷺ – حين نزل الأمر بالتحويل ، صلى صلاة العصر إلى الكعبة ، فخرج رجل ممن كان يصلى معه ، فمر على أهل مسجد يصلون إلى جهة بيت المقدس ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى – ﷺ – قِبَلَ مكة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت . فسمى هذا المسجد مسجد القبلتين(١١٤)، وهذا المسجد أحد المشاهد التى يحرص زوار المدينة المنورة على رؤيتها .

---

(١١١) من مقال للأستاذ صلاح الدين عبد الحميد الهادى – مجلة منار الاسلام – صفر ١٤٠٥ .

(١١٢) من الآية رقم ٤٤ من سورة القصص .

(١١٣) الآية ١٦ من سورة مريم .

(١١٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٦ .

تطهير الكعبة :

وجاء العام السادس للهجرة ، وأراد النبى – ﷺ – أن يعتمر ، فنادى فى الناس بذلك فاستجاب له ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، وساق الهدى وأحرم ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب .

ولكن الكفار وقفوا دونه عند الحديبية ، وحالوا بينه وبين دخول مكة ..

وجرت السفراء بين النبى – ﷺ – وبين كفار قريش ، وانتهى الأمر بإبرام صلح الحديبية الذى يقضى بين شروطه أن يعود النبى – ﷺ – هذا العام فإذا كان من قابل أتى معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح عدا السيوف فى قُرُبها ، ويقيم بمكة ثلاثة أيام ..

وبمقتضى هذا الصلح تحلل النبى – ﷺ – من عمرته دون أن يدخل مكة ، وحلق ونحر هديه الذى كان قد صحبه ، وكان يقدر بمائة بدنة فى بعض الأقوال ، ثم عاد فى العام التالى معتمرًا عمرة القضاء ..

وطاف النبى – ﷺ – بالبيت مشوقًا إليه معظمًا إياه ، وسعى بين الصفا والمروة . والتزم – ﷺ – بالصلح فلم يقم بمكة أكثر من ثلاثة أيام .

ولكن هذا الصلح كان تمهيدًا للفتح الأعظم . فتح مكة . فى العام الثامن فقد نقضت قريش عهدها الذى أبرمته مع النبى – ﷺ – وناصرت بكرا حليفتها على خزاعة حليفة المسلمين .

وبذلك تركت قريش الفرصة مهيأة أمام النبى – ﷺ – لفتح مكة وحاول أبو سفيان – بعد أن أحس بخطورة ما حدث من قريش فى نقضها العهد – أن يجدد الصلح ، وأن يعتذر عما حدث ، ولكنه فشل فى محاولته وعاد من رحلته إلى مكة خائبًا .

وفى رمضان من العام الثامن للهجرة دخل النبى – ﷺ – مكة فاتحًا منتصرًا . وأمكنه الله من هذه البلدة التى كذبته وآذته وطردته .

وكان أول شيء فعله النبي - ﷺ - فى مكة أنه طاف بالبيت على راحلته ، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا مشدودة بالرصاص .

فكان كلما مر بصنم يشير إليه بقضيب فى يده وهو يقول : ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١١٥) .

فكان الصنم يخر على وجهه ، وكان أعظم هذه الأصنام هبل ، وهو تجاه الكعبة .

وهكذا فى لحظة واحدة ذهبت الأصنام إلى غير رجعة ، وطهرت الكعبة من الأرجاس التى صنعتها الوثنية ، وأصبحت خالصة لله كما أرادها بيتًا للطهر وقبلة للإيمان ومركزًا للهدى ومأمنًا للناس ..

وهذه هى غاية الإسلام ودعوته التى بعث من أجلها محمد - ﷺ - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾(١١٦).

ثم جاء النبى - ﷺ - إلى مقام إبراهيم - عليه السلام - وكان ملصقًا بالكعبة ، فصلى ركعتين .. ثم أصبحت هاتان الركعتان من مناسك الحج والعمرة ، إحياء لذكرى خليل الرحمن الذى رفع قواعد هذا البيت وأذن فى الناس بحجه .

وجلس النبى - ﷺ - فى ناحية من المسجد ، وأرسل بلالاً إلى عثمان ابن طلحة ، وطلب منه أن يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء به عثمان ، فأخذه النبى - ﷺ - وفتح باب الكعبة ، ثم دخل وصلى ركعتين بين العمودين من السطر المقدم وجعل الباب خلف ظهره .

وقد ذكر الرواة كيفية دخول النبى - ﷺ - الكعبة وصلاته فى داخلها ، « روى البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان إذا

---

(١١٥) من الآية ٨١ من سورة الإسراء .

(١١٦) الآية ٥ من سورة البينة .

دخل الكعبة مشى قِبَلَ وجهه حين يدخل ، ويجعل الباب قِبَلَ الظهر ، يمشى حتى يكون بينه وبين الجدار الذى قِبَلَ وجهه قريبًا من ثلاثة أذرع ، فيصلى يتوخى المكان الذى أخبره بلال أن رسول الله - ﷺ - صلى فيه »[١١٧]. قال : وليس على أحد بأس في أن يصلي فى أى نواحي البيت .

وخرج النبى - ﷺ - بعد أن محا الرسوم التى بداخل الكعبة ومعه مفتاحها وكان الناس مجتمعين حول الكعبة فخطب فيهم خطبته المشهورة - التى عفا فيها عن أهل مكة - وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم دعا بعثمان بن طلحة ، ودفع إليه المفتاح وقال : خذوها يا بنى طلحة تالدة خالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب ، وقال : أعطيتكم ما ترزؤكم ولا ترزءونها ، ويلقب العباس بساقى الحرمين ، لأنه كان يسقى الحجيج بمكة ، أما فى المدينة فقد استسقى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسقى الله الناس . قال عمر حين استسقى به : اللهم إنا كنا نستسقى برسول الله - ﷺ - واليوم نستسقى بعم رسولك فاسقنا ..

ثم حانت صلاة الظهر فاعتلى بلال ظهر الكعبة فأذن ..

وقال رسول الله - ﷺ - لا تُغْزَى قريش بعد هذا اليوم أبدًا إلى يوم القيامة .

يعنى أنها اكتسبت بالإسلام عزًّا يعصمها من الغزو .

ثم بعث النبى - ﷺ - السرايا لكسر الأصنام التى كانت تعبد فى مكة وحولها ، فكسرت العُزَّى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين .

ونادى منادى النبى - ﷺ - فى مكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنمًا إلا كسره .

---

(١١٧) إعلام المساجد ص ١١٤ نقلاً عن عمدة القارى جـ ٩ ص ٢٤٥ .

ولما كان من الغد بعد الظهر خطب النبي - ﷺ - قائلاً :

إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا يحل لنا من غنائمها شيء .

وطهرت مكة وما حولها ، وطهر البيت من الشرك والرجس .

وباءت الأصنام بالخذلان ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(١١٨).

ولم يبق فى الكعبة مما كان فيها قبل الإسلام إلا قرنا الكبش الذى فدى الله به إسماعيل الذبيح - عليه السلام - .

وفى وجودهما دلالة على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق كما يزعم اليهود. قال محمد بن كعب القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز- رضى الله عنه - رجلاً من علماء اليهود - وكان قد أسلم وحسن إسلامه - : أى بنى إبراهيم أمر بذبحه ؟

فقال : إسماعيل .

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن يهودًا لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله - تعالى - بذبحه ، ويزعمون أنه إسحاق أبوهم ، ومن الدليل عليه أن قرنى الكبش كانا منوطين بالكعبة فى أيدى بنى إسماعيل ، إلى أن احترق البيت واحترق القرنان فى أيام الزبير والحجاج .

قال الشعبى - رحمه الله - : رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: والذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة وقد يبس .

---

(١١٨) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

وقال الأصمعى : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، إسحاق كان أم إسماعيل ؟ فقال : يا أصمعى ، أين ذهب عقلك ؟ متى كان اسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه(١١٩).

الكعبة فى عهد النبى والخلفاء :

لقد عزت الكعبة بعز الإسلام ، ولم تعد تشهد فى ساحتها تلك الأصنام التى كانت تعبد من دون الله .

ولقد كان مولد النبى - ﷺ - إيذانًا بذهاب دولتها ، فقد روى الرواة أنه عند ولادته نكست الأصنام . وذكروا أن نفرًا من قريش فيهم ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، كانوا عند صنم يجتمعون إليه ، فدخلوا عليه ليلة فرأوه مكبوبًا على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه على حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلابًا عنيفًا ، فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة . فقال عثمان بن الحويرث : إن هذا لأمر قد حدث . وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله - ﷺ - .

وذكر بعض الرواة أنهم سمعوا هاتفًا يقول :

تردَّى لمولود أنارت بنوره ... جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طرا وأرعدت ... قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب(١٢٠)

وأمن الناس جميعًا فى الجزيرة العربية ، حتى إن الراكب كان يأتى من أقصاها إلى الكعبة لا يخشى أحدًا إلا الله .

والتقى المسلمون على الحب بعد أن دخل الناس جميعًا فى دين الله أفواجا .

---

(١١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٧٥ .

(١٢٠) أخرجه ابن عساكر ، وذكره السيوطى فى الخصائص ونقله النبهانى فى حجة الله على العالمين ص ١٥٧ .

وأول حج رسمى فى الإسلام كان بعد نزول الأمر بفرضه ، وكان أبو بكر أمير الحج فيه ، وذلك فى السنة التاسعة .

والحج هو سيد العبادات ففيه نقلة بالمسلم من عالم المادة إلى عالم الروح ، وفيه تجرد عن كل أثقال الحياة وتكاليفها العادية إلى حياة إلهية ربانية كل ما فيها يربطه بالله سبحانه وتعالى .. أليس مرتحلاً إلى بيت الله ؟ إنه مسيرة نحو الله ولقاء بأحباب الله وإحساس بقرب الله .

وفى العام العاشر حج النبى – ﷺ – حجة الوداع التى أرسى فيها للناس معالم دينهم وقواعده ، وعلمهم كيف يؤدون هذه الفريضة الخامسة قائلاً لهم : خذوا عنى مناسككم ، كما قال حين فرضت الصلاة : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كيف حج رسول الله ؟

خرج النبى – ﷺ – من المدينة ومعه مائة ألف من المسلمين الذين توافدوا إلى المدينة تشرفًا بمصاحبة النبى – ﷺ – وتبركًا ، وما وصلوا مكة حتى كان عددهم قد بلغ مائة وخمسة وعشرين ألفًا .

وكان النبى – ﷺ – يركب ناقته القصواء . ولم يكن معه من الزاد شيء يذكر ..

وأهَلَّ النبى – ﷺ – بالتلبية بعد أن أحرم بنية الحج والعمرة . وكانت تلبيته هى ما يلبى به المسلمون اليوم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وقطع المسافة بين المدينة ومكة فى تسعة أيام من الخامس والعشرين من ذى القعدة حتى الرابع من ذى الحجة . وحين وقع بصره على البيت هتف قائلاً : اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة .

وبدأ بالطواف ، لأن تحية المسجد الحرام الطواف .

ودنا من الحجر الأسود فاستلمه وهو يقول : باسم الله .. الله أكبر .

ثم طاف حول البيت سبع مرات بادئًا من يمينه جاعلاً البيت على يساره ، وهرول فى الأشواط الثلاثة الأولى، ثم تمهل فى الأشواط الأربعة الباقية جاعلا رداء الإحرام على كتفه الأيسر ، وكاشفًا الكتف الأيمن .

وكان كلما مر أمام الحجر الأسود الذى بدأ الطواف منه بعد أن استلمه يشير إليه ويستلمه بعصاه .

وكان يردد قوله تعالى – بين الحجر الأسود والركن اليمانى – : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(١٢١).

وبعد أن انتهى من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(١٢٢) ثم صلى ركعتين .

ثم عاد إلى الحجر الأسود فقبله .

ثم توجه إلى الصفا والمروة وقال : « إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام . أبدأ بما بدأ الله به » .

وصعد الصفا ، ونظر إلى الكعبة قائلاً : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ونزل من الصفا واتجه إلى المروة ساعيًا بينهما، وكان يهرول بين العلامتين المعروفتين بالميلين الأخضرين الآن ، ويمشى بالسرعة العادية فى غيرهما . وعندما وصل إلى المروة اعتلاها ونظر إلى الكعبة وهلل وكبر ودعا ثم عاد إلى الصفا ، وهكذا سبعة أشواط . وانتهى الشوط السابق عند المروة .

ثم توجه إلى الأبطح حيث كان يقيم حتى جاء اليوم الثامن من ذى القعدة فتوجه إلى منى . وبات بها ، ثم انطلق إلى عرفات فى اليوم التاسع قبل طلوع الشمس ، ونزل بخيمة نمرة بوادى عرفة .

---

(١٢١) الآية ٢٠١ من سورة البقرة . (١٢٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

وكان اليوم يوم جمعة ، وحين زالت الشمس خطب خطبة الوداع الجامعة وأمر بلالاً أن يؤذن للصلاة فأذن . فصلى رسول الله - ﷺ - صلاتى الظهر والعصر قصرًا وجمعًا ، بأذان واحد وإقامتين .

وبعد انتهاء الصلاة توجه إلى الموضع المعروف بالموقف وأخذ يدعو ربه وهو على ناقته ومن بين هذا الدعاء الخالص قوله :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، لا يخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغم أنفه لك . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفًا رحيما ، يا خير المسئولين ويا خير المعطين » .

وبعد خطبة الوداع نزل قوله - تعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[١٢٣] .

وبعد غروب الشمس توجه النبى - ﷺ - إلى المزدلفة ، وأردف خلفه أسامة بن زيد على راحلته ، وظل يكبر طول الطريق إلى المزدلفة .

وفى المزدلفة أمر بلالاً أن يؤذن، ثم صلى المغرب- ثلاث ركعات- والعشاء- ركعتين جمع تأخير بأذان واحد وإقامتين، ولم يصل غير الفرض .

ثم استراح ونام ليلته حتى الفجر ، وصلى الفجر مبكرًا فى صبيحة يوم العاشر من ذى الحجة ، ثم ركب راحلته إلى المشعر الحرام ، واتجه إلى القبلة وظل يدعو إلى أن تبدد الظلام وأسفر الصبح ، وظل يكبر دون انقطاع .

وأمر الفضل بن عباس وكان رديفه أن ينتقى له سبع جمرات ، وسار متجهًا إلى منى . وعند وصوله إلى وادى محسر أمر الناس بمجاوزته بسرعة ،

---

(١٢٣) الآية ٣ من سورة المائدة .

وحث ناقته على الإسراع ، لأن ذلك المكان هو الذى نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل .

وجاء إلى جمرة العقبة ، وجعل مكة على يساره ومنى على يمينه ، ورمى - وهو على راحلته - سبع جمار ، جمرة بعد جمرة وهو يكبر .

وأوقف التلبية بعد رمي الجمرات .

وعاد إلى منى ، ثم جمع للناس خلاصة الدين فى كلمات قلائل من جوامع كلمه حيث قال : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، واطيعوا إذا أمرتكم تدخلوا جنة ربكم »[١٢٤].

وخطب الناس بمنى ، ثم توجه إلى مقام النحر حيث نحر بيده الشريفة ثلاثًا وستين بدنة ، وأمر عليًا أن يكمل المائة .

وحلق شعره وقلم أظفاره .

وامتطى راحلته متوجهًا إلى مكة ، وأدى طواف الإفاضة قبل الظهر .

وبعد الطواف شرب من ماء زمزم وهو واقف ، ثم عاد إلى منى فبات بها ليلته .

وفى اليوم الحادى عشر عند زوال الشمس توجه لرمى الجمار ، فرمى الجمرة الأولى بسبع حصيات ، ثم الجمرة الوسطى بسبع حصيات ، ثم جمرة العقبة بسبع حصيات وكان يكبر عند كل جمرة ..

وأقام بمنى يومى الثانى عشر والثالث عشر وهو يقصر الصلوات دون جمع ثم خرج إلى مكة بعد زوال الثالث عشر من ذى الحجة وأقام بالأبطح يومًا وليلة ، وقبل فجر اليوم الرابع عشر ذهب إلى الحرم ، وطاف طواف الوداع وأدى صلاة الفجر بالكعبة .

وعاد - ﷺ - بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة .

---

(١٢٤) أخرجه أحمد عن أبى نضرة .

وكانت مدة إقامته فى مكة منذ وصوله إليها حتى خروجه منها عشرة أيام(١٢٥).

لقد عظم النبى - ﷺ - الكعبة بيت الله الحرام ، وحياها أعظم تحية ، وكساها الحبرات ، وعظمها خلفاؤه من بعده .

وأصبحت ملجأ يلجأ إليه المظلومون يحتمون بحماها ويأمنون فى جوارها .

وبمناسبة كسوة النبى - ﷺ - الكعبة نتحدث عن :

كسوة الكعبة :

عرفنا مما سبق أن أول من كسا الكعبة بعد إسماعيل - عليه السلام - هو تُبَّع ملك اليمن حين زار الكعبة وعظم البيت ، وأُرِىَ فى المنام أن يكسو الكعبة فكساها بالخصف ، ثم كساها المعافير ، ثم كساها الملاء ، وقد أنشد فى ذلك شعرًا :

وكسونا البيت الذى حرَّم الله مُلاءً منضدًا وبُرودًا

وأوصى خلفاءه من بعده بملازمة كسوتها وتعظيمها ، فكانوا يكسونها الوصايل والعصب والمسوح والأنطاع(١٢٦)..

وظل الناس يداومون على كسوة الكعبة تقربًا إلى الله فيهدون إليها ما يستجيدونه من أنواع الثياب ..

وأوجب قصى بن كلاب حين آل إليه أمر البيت على قريش القيام بكسوة الكعبة ، فكانت تكسى كل عام ، يتعاونون فى ذلك ، حتى جاء أبو ربيعة

---

(١٢٥) راجع فى ذلك الطبقات الكبرى - سيرة ابن هشام - كتب السنن باب الحج - حقيقة الحج لوحيد الدين جان ص ٨٩ .

(١٢٦) الوصايل : أثواب حمر مخططة ، والعصب : أثواب يمنية يشد المصبوغ منه مع غير المصبوغ فيظهر مُوَشّى ، والمسوح : أثواب من الشعر ، والأنطاع : أثواب من الجلد والخصف : ثياب غليظة ، والمعافير : ثياب تنسب إلى معافر وهو حى من همدان .

المخزومي الملقب بالعدل . فقال : أنا أكسو الكعبة عامًا ، وقريش كلها تكسوها عامًا ، ولقب العدل لذلك .. والتزم بذلك طول حياته ..

وفقدت أم العباس بن عبد المطلب ابنها « ضرارا » يومًا ، فنذرت لئن رد الله عليها ابنها لتكسون الكعبة ، فَرُدَّ ابنها إليها .. فكستها الحرير والديباج .

وكانت الكسوة الجديدة تطرح فوق الكسوة القديمة لا تخلع عنها ..

وحين جاء الإسلام وفتحت مكة ، كسا النبى - ﷺ - الكعبة ثيابًا يمنية ، وسار على هذه السنة خلفاؤه من بعده ، وقد كساها كل من عمر وعثمان ثيابًا رقيقة من مصر يطلق عليها « القباطى المصرية » .

وفى خلافة معاوية جعل الكسوة مرتين فى العام بدلاً من مرة واحدة ، كان فى عاشوراء يكسوها الديباج ، وفى آخر رمضان يكسوها القباطى ..

وظل الجديد يطرح على القديم حتى خشى على البناء من الهدم ، ورفع هذا الأمر للمهدى العباسى حين حج ، فأمر بأن تجرد من كسوتها القديمة ولا يبقى عليها إلا الكساء الجديد . وهكذا يفعل كل عام ، وارتضى المسلمون ذلك . وظل الأمر على هذا الحال حتى وقتنا هذا .

وزاد المأمون كسوة ثالثة فى العام ..

كان يكسوها القباطى فى أول رجب ، والديباج الأبيض فى ليلة القدر ، والديباج الأحمر فى يوم التروية .

لقد راعى مناسبات جليلة فى الكسوة ..

والواقع أن العباسيين بذلوا عناية كبيرة فى كسوة الكعبة وتطريزها واختيار ألوانها ونقشها وحياكتها ، وفتحوا الباب لمن جاء بعدهم فى هذا الميدان ..

وخلعوا شعارهم « اللون الأسود » على كساء الكعبة الذى ظل ملتزمًا حتى الآن ..

وظل العباسيون يعتنون بأمر الكسوة حتى سقطت الخلافة العباسية ، فانتقلت العناية بها إلى مصر. حيث قامت بهذا الأمر بالتناوب بينها وبين اليمن حينا .

كان الملك الظاهر بيبرس فى مصر هو أول حاكم اهتم بكسوة الكعبة المشرفة بعد انقضاء دولة العباسيين وكان ذلك فى سنة ٦٥٨ هـ وقام بعده فى العام الذى يليه الملك المظفر ملك اليمن بكسوتها عام ٦٥٩ هـ .. وظل الأمر كذلك حتى استقر الأمر نهائيًا فى مصر ..

ففى عام ٧٥١ هـ خصص الملك الصالح إسماعيل بن قلاوون ملك مصر وقفًا لكسوة الكعبة الخارجية وجعلها سوداء ، ولكسوة الكعبة الداخلية وجعلها حمراء ، ولكسوة الحجرة النبوية الشريفة وجعلها خضراء . على أن تكون كسوة الكعبة الخارجية مرة كل سنة ، وكسوتها الداخلية وكسوة الحجرة النبوية مرة كل خمس سنوات ..

لقد كان الملك الصالح يكسوها على نفقته – فقد خصص لذلك – وقفًا ظل يستغل فى هذا الأمر الطيب من بعده ، حتى جاء محمد على بعد ذلك بقرون فحل هذا الوقف ، وجعل نفقة الكسوة الخارجية على عاتق الحكومة المصرية .

وتولت تركيا أمر الكسوة الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة..

وكانت مصر تحتفل بإرسال الكسوة كل عام فى منتصف شهر ذى القعدة ، ويخرج الناس فى ذلك اليوم الذى تعطل فيه الأعمال الرسمية يشاهدون ركب «المحمل» – وقد ابتدعت فكرته – شجرة الدر – وقد استعرضت فوقه قطع الكسوة ، ويصبح يومًا مشهودًا تكثر فيه الدعوات والابتهالات إلى الله ويهنىء الناس بعضهم بعضًا .

وكانت الكسوة تصنع فى مدينة « تنيس » المصرية شمال دمياط ، وكانت تشتهر بالمنسوجات الثمينة . ثم أقيمت لها دار فى القاهرة خاصة بها . لها إدارة تشرف عليها وموظفون وعمال مخصصون لهذا العمل .. كانوا يقومون

بمصنع : ثماني ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالسيج فيه : لا إله إلا الله . محمد رسول الله . وستارة لباب الكعبة ، وستارة لباب التوبة ، وكسوة لمقام إبراهيم ، وستارة للمنبر الشريف ، وكيس لمفتاح بيت الله الحرام .

وظلت مصر حريصة على إرسال هذه الكسوة كل عام حتى عام ١٣٨٣ هـ .

وأنشأت الحكومة السعودية مصنعًا خاصًا بذلك ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت كسوة الكعبة الشريفة التزامًا سعوديًا ..

تقوم الحكومة السعودية بإلباسها الكعبة فى التاسع من شهر ذى الحجة من كل عام وهو يوم عرفة .. ويطوف الحجاج طواف الإفاضة فيرون الكعبة فى حلتها الجديدة وكسائها الرشيق البهيج[١٢٧].

لقد دخلت كسوة الكعبة فى ميدان الفقه الإسلامى حتى ذكر الفقهاء أنه من نذر أن يكسو الكعبة فعليه الوفاء بذلك لأنه يندرج تحت قوله - ﷺ - : من نذر أن يطيع الله فليطعه[١٢٨].

كما أن الشافعى أفتى بقطع يد سارق ستارة الكعبة ، لأنها تعتبر فى حرز .

وإن كان أبو حنيفة قال : لا قطع عليه لأنها ليست ملكًا لأحد .

إنها زينة للكعبة وجمال لها ، ومتعلق من متعلقاتها ينبغى احترامه والحفاظ عليه والتعدى عليه - مهما كانت نية صاحبه - امتهان للكعبة وحرمتها نعوذ بالله منه .

حصار حول الكعبة :

رشح معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ابنه يزيد للخلافة من بعده ، وأخذ البيعة له .

---

(١٢٧) أعتمدنا فى معلومات هذا الفصل على ما كتبه الأستاذ عبد الستار فيض فى مجلة الوعى الإسلامى عدد ٢٨٧ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ .

(١٢٨) اعلام الساجد ص ٢١٠ .

ولكن بعض المسلمين أبطأوا عن ذلك .

وكان ممن أبطأوا عبد الله بن الزبير الذى اعتصم بالكعبة ممتنعًا بها .

وأرسل إليه « يزيد بن معاوية » « مسلم بن عقبة » والى المدينة فى جيش كثيف ، ولكنه ماتَ فى الطريق ..

وكان عندما أحس بالموت قد اختار أحد جنوده الذين يثق بهم وهو «الحصين بن نمير الكندى» ، لينفذ ما أوصى به يزيد ، وأوصاه أن يشتد فى قتال عبد الله بن الزبير .

ومضى الحصين بن نمير إلى مكة .

وحاصر عبد الله بن الزبير الذى كان محتميًا بالبيت الحرام .. ولما لم يلن عبد الله أمام الحصار . نصب « الحصين بن نمير » المنجنيق على جبل أبى قبيس وعلى الجبل الأحمر ، وهما يحيطان بالكعبة المشرفة ..

ولم يرع حرمة هذا المكان ، ولم يتذكر أنه أول بيت وضع للناس ، وكأنه لم يقرأ قوله – تعالى – : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

وأخذ يقذف عبد الله بن الزبير بحمم من نار ، فأصابت قذائفه الكعبة فأحرقتها وهدمتها .

ويقال : إنه سُمع للكعبة أنين حين أصابتها قذائف المنجنيق الملتهبة .

وأصابت القذائف الحجر الأسود ، وتصدع ثلاث قطع ، وتمكن عبد الله بن الزبير من ضم هذه القطع بعضها ببعض وشدها بالفضة ، وثبَّتها فى مكانها إلا شظية منه انفصلت ولم يعثر لها على أثر .

وتألم الناس فى كل مكان لما أصاب الكعبة من تهدم وحزن كثير من المسلمين لهذا الشقاق الذى أصاب المسلمين وتألموا بسبب تلك الفتنة التى أصابتهم جميعا بكثير من البلاء .

وبعد موت يزيد فك الحصينَ بن نمير الحصار عن الكعبة .

وأراد عبد الله بن الزبير أن يعيد بناء الكعبة من جديد ، فاستشار وجوه المسلمين ، فوافقوا جميعًا على بنائها ، فقد أصبحت فى حال يرثى لها ، بعد أن انهارت جدرانها ، واحترق سقفها ، وتبعثرت أحجارها .

وكان من رأى ابن عباس – رضى الله عنهما – أن ترمم فقط ، وتترك على ما كان رسول الله – ﷺ – قد اشترك فى بنائها ، وخشية أن يجيء بعد ابن الزبير من يهدمها ويعيدها إلى ما كانت عليه .

لكن ابن الزبير استشهد بالحديث الذى ذكرته خالته عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – وفيه يقول النبى – ﷺ – لعائشة : لولا حداثة عهد قومك بالكفر لأعدت فى البيت ما تركوا منه ..

ولما رأى ابن عباس تصميم ابن الزبير على بنائها – ولا بناء إلا بعد إزالة الأنقاض وهدم ما تداعى من جدران – قال لابن الزبير : أحذرك أن تترك المسلمين بغير قبلة يتجهون إليها فى صلاتهم ، انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليه الستور حتى يطوف الناس من ورائها ، وبعد الفراغ من البناء أزل ما نصبته من خشب .

ففعل ابن الزبير ذلك ، وأحاط الكعبة بسياج من أخشاب كان الناس يتجهون إليها ويطوفون حولها ، والعمل من داخل هذه الأخشاب قائم على قدم وساق فى تعمير الكعبة .

وحين هم ابن الزبير بالبناء نقل ما كان بداخل الكعبة من كنوز إلى دار شيبة بن عثمان ، وأعد الحجارة وآلات البناء .

ولما تقدم للهدم ليقيم البناء رفض الناس معاونته خوفاً ، بل إن كثيراً منهم هرب من مكة ، أو فر إلى رءوس الجبال .

فأخذ عبد الله المعول بيده ، وأقبل يهدم ويرمى بالحجارة ، فلما رأى الناس أنه لم يُصب بسوء تقدم كثير منهم فساعدوه ، ومنهم بعض الأحباش الذين استأجرهم لهذا العمل ، وكانوا بين المتلكئين فى الاستجابة له فى بادىء الأمر .

وأخذ ابن الزبير الحجر الأسود ولفه بديباجة ووضعه فى صندوق أغلقه ، واحتفظ به فى دار الندوة .

واستمر الناس فى الهدم وكشف الأساس حتى وصلوا إلى القواعد التى بنى عليها إبراهيم – عليه السلام – .

وحين حاولوا التعمق فى الحفر أكثر من ذلك لفحتهم نار حامية فابتعدوا مسرعين .

لقد ظهرت قواعد إبراهيم – عليه السلام – قوية متماسكة عجيبة الشكل واللون ..

إن هذا يدل على أن الله أرسى قواعد البيت بحكمته ، فلا دخل لبشر فيها ولا يحق لأحد أن يتدخل فى تغييرها وتبديلها وتعميقها..

وقد عرفنا – سابقًا – أن مكة زلزلت حين أراد أحد القرشيين نزع حجر من أحجار القواعد من مكانه ، وها هى ذى الآن نجد نارا حامية توشك أن تلفح رجال ابن الزبير حين حاولوا تجاوز هذه القواعد .. فما أرفع شأن هذا البيت وما أعظم مكانته ..

إن على الناس – عند الضرورة – أن يرفعوا الجدران فوق القواعد ، أو أن يجددوا البناء ، أو يزينوه ويجملوه ويكسوه .. دون مساس بهذه القواعد التى أرستها حكمة الله .

وعلى هذه القواعد بنى عبد الله بن الزبير الكعبة .

والتزم في بنائه ما أشار به النبي – ﷺ – ذات يوم حين قال لعائشة «لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وبنيتها على قواعد إبراهيم » ..

فأدخل فيها الحِجْر .. وزاد فى طولها تسعة أذرع . فصار طولها سبعة وعشرين ذراعًا . وجعل لها بابين متصلين بالأرض ، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحد ، وجعل لها درجة فى ركنها الشامى يصعد منها إلى سطحها ، وجعل لها ميزابًا يصب فى الحجر ، وجعل فيها نوافذ للضوء .

حيلته فى وضع الحجر الأسود مكانه :

وخشى ابن الزبير الفتنة التى حدثت أيام بناء القرشيين للكعبة عند وضع الحجر الأسود . فقد ذكر الأزرق فى « أخبار مكة » أن ابن الزبير أوعز إلى ابنه عباد وإلى جبير بن شيبة بن عثمان أن يحملا الحجر الأسود فى ثوب ويخرجاه وهو يصلى الظهر – وكان يومًا شديد الحر – ويضعاه فى مكانه من الركن . وقال لهما : سأطيل الصلاة حتى تفرغا . فإذا فرغتما فكبرا لأخفف الصلاة .

ونفذ الرجلان ما أراده ابن الزبير– وكان الذى وضعه بيده هو عبَّاد وأعانه جبير – وقيل : وضعه بيده حمزة بن عبد الله بن الزبير بأمر أبيه(١٢٩) ولما انتهيا كبرا ، فخفف ابن الزبير من صلاته وسلم . وتسامع الناس بالخبر فغضبوا وثارت ثائرتهم .

ولكن ابن الزبير هدأ من ثائرتهم ، وأخبرهم أنه أراد بذلك قطع الخلاف بينهم .. فسكتوا .

وبعد أن انتهى من البناء مسح جوفها بالعنبر والمسك ، ودهن جدرانها من الخارج بالمسك والعنبر ، ثم كساها كسوة حسنة من الديباج والقباطى ، وجعل لها قفلاً ومفتاحًا من الذهب وحلاها بالذهب ، وأعاد إليها ما كان قد أودعه بيت شيبة بن عثمان من كنوز وحلى وثياب ، ولم يهمل الساحة حول الكعبة ، فسواها ونظفها وجعلها ناعمة الملمس جميلة المنظر .

لقد بذل ابن الزبير فى بناء الكعبة غاية جهده ، وقد وضع نصب عينيه حديث رسول الله – ﷺ – الذى سمعه من خالته أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وعبد الله هو ابن أسماء بنت أبى بكر ، وأبوه هو الزبير بن العوام حوارى رسول الله – ﷺ – وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

---

(١٢٩) نقل ذلك السهيلى عن الزبير بن بكار . وراجع الخبر فى مكة المشرفة لأمينة الصاوى وفي مجلة الوعي الإسلامي عدد ذى الحجة ١٣٩٨ هـ .

وبعد أن فرغ من البناء والتزيين والتحسين خطب فى الناس قائلاً لهم : أيها الناس من كانت عليه طاعة فليعتمر من التنعيم . - وهو أقرب حل إلى الحرم اعتمرت منه عائشة - رضى الله عنها - وبه مسجد يقال له مسجد عائشة - ثم دعاهم إلى التقرب إلى الله بالنحر والتصدق بما يستطيعون ، اعترافًا بالنعمة وحمدًا لله على توفيقهم أن أعادوا للكعبة هيئتها وبهجتها وجمالها .

وخرج راجلاً هو وبعض التابعين ، فأحرم بالعمرة من ذلك المكان الذى دعا إليه ، وأقبل إلى البيت طائعًا خاشعًا شاكرًا أنعم ربه ، وأهدى للبيت مائة بدنة ، نحرت جميعا جهة التنعيم ، ولم يبق أحد من أشراف مكة لم يقدم لله هديا ، وكان يومًا مشهودًا كثرت فيه الصدقات والهبات وعتق الرقاب والبكاء والدعاء .

الكعبة والحجاج :

لقد تحرى ابن الزبير جهده أن تكون الكعبة المشرفة عند تجديدها على الصورة التى أشار إليها النبى - ﷺ - .

ولكن الأحداث السياسية التى جرت بعد ذلك لم تترك الأمر على ما هو عليه .

فقد تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، وولى الحجاج بن يوسف الثقفى إمارة الجيش المتوجه لحصار ابن الزبير فى مكة المكرمة ولجأ ابن الزبير إلى الكعبة فحاصرها الحجاج ودارت المعارك حول الكعبة وانهالت عليها القذائف وانتهت المعركة بقتل ابن الزبير بعد تهدم الكثير من جدران الكعبة ، واحترقت ستائرها حتى أصبحت رمادًا .

وأراد الحجاج أن يمحو كل أثر لابن الزبير .

فكتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه فى هدم الكعبة ، وإعادة بنائها على ما كانت عليه قبل ذلك ، واتهم الحجاج ابن الزبير فى رسالته أنه بناها على

أساس نُظِرَ إليه بعين الغضب من أهل مكة ، وابتعد به كثيرًا عن البناء الذى كانت قريش قد أقامته ، واشترك فيه رسول الله – ﷺ – بنفسه ، فقد زاد فى البيت ما ليس فيه ، وأحدث فيه بابًا آخر ، ونزل بالبابين اللذين جعلهما إلى الأرض ..

فكتب عبد الملك إلى الحجاج يقول : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء . أما ما زاده فى طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه ، وسُد الباب الذى فتحه ..

وكان الحجاج ينتظر هذا الخطاب بفارغ الصبر ، فأقبل على البناء فهدم منه ستَّة أذرع وشبرًا – هى ما أضافه ابن الزبير إلى الكعبة من حجر إسماعيل– وأعاد بناءها على أساس قريش التى قد أقتصرت عليه بسبب الإنفاق وعجزت عن إقامتها كما كانت، وكبس أرضها بما هدم منها وسد الباب الغربى الذى فتحه ابن الزبير . وكان ذلك فى سنة ٧٣ هـ .

ثم كتب إلى عبد الملك بما فعل ..

عبد الملك يندم :

وجاء عبد الملك معتمرًا ، وجعل يطوف حول الكعبة وقال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين . وكان الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى حاضرًا . فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنا سمعت منها ما سمعه ابن الزبير .

فقال عبد الملك : وما سمعت ؟

قال : سمعت منها أن النبى – ﷺ – قال لها : يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر ، فإن قومك قصروا فى البناء ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريبًا من سبعة أذرع – ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقيًا وغربيًا – هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : قلت لا ، قال :

تعززًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا ، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى ، حتى إذا كاد أن يدخل دفعُوه فسقط .

فقال عبد الملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا ؟

قال : نعم .

قال : وددت أنى تركت ابن الزبير وما تحمل[١٣٠].

ويبدو أن عبد الملك ندم وحزن ، وتمنى أن لو كان لم يأمر الحجاج بنقض ما بناه ابن الزبير الذى تحرى فيه رغبة رسول الله – ﷺ – .

وعاد إلى دمشق مهمومًا حزينًا ، وقيل : إنه ظل يردد : لعنة الله على الحَجاج ، لعنة الله على الحَجاج .

واستشار العلماء وأصحاب الرأى أن يعيد البناء كما بناه ابن الزبير ولكنهم قالوا له : ليست الكعبة ملعبّة للملوك والأمراء .

فسكت عبد الملك وهو حزين ..

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان يحب أن يرد الكعبة إلى ما بناه ابن الزبير . حين أخبره عمر بن عبد العزيز لما سأله عن ذلك . وما منعه من ذلك إلا أن الحجاج فعل ما فعل بأمر أبيه ، أو لأن العلماء حذروه من ذلك .

وقد بدا لهارون الرشيد الخليفة العباسى أن يحقق رغبة رسول الله – ﷺ – واستشار الإمام مالكًا – رضى الله عنه – فى ذلك . فقال له :

ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تجعل بيت الله ملعبة ، فتذهب هيبته من صدور الناس ، ويهون أمره عليهم .

فأمسك هارون عن عزمه .

---

(١٣٠) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٥ ، وقد روى مسلم حديث عائشة .

لقد نظر مالك إلى قضية أصولية وهى : درء المفاسد أولى من جلب المصالح . لقد أفتى الفقهاء بعدم تعرض الملوك لبناء الكعبة احترامًا لها وحفاظًا على قدسيتها ، أما من شاء منهم أن يكسوها ويحسنها ويجملها فليفعل ، ومن شاء أن يعمر الحرم فلا بأس بذلك .

ولذلك حين جاء الوليد بن عبد الملك خليفة للمسلمين أرسل بستة وثلاثين ألف دينار ، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى ميزابها ، وعلى الأساطين والأركان فى جوفها .

فكان الوليد هو أول من ذَهَّبَ الكعبة فى الإسلام .

وفى عهد الأمين العباسى جُدد الذهب وأعيدت صياغته وأضيف إليه بما تقدر قيمته بثمانية عشر ألف دينار ..

القرامطة والحجر الأسود :

فى سنة مائتين واحدى وتسعين ظهرت فتنة القرامطة بقيادة زعيمهم أبى طاهر القرمطى ، وكان طاغية زنديقًا ، وهاجم هؤلاء القرامطة الكعبة فى جيش كثيف وقتلوا الحُجاج ، ووقف زعيمهم فوق الكعبة يقول :

أنـا بالله وبالله أنـا   يخلق الخلق وأفنيهم أنـا[١٣١]

لقد بلغ من جرأة هؤلاء المارقين أن سفكوا دماء المسلمين فى الأشهر الحرم ، وقتلوا الحُجاج ، واقتحموا الحرم المكى والمسجد الحرام ، وملأوه بالجثث وردموا بئر زمزم ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ، وأخذ شيطانهم يقول :

ولو كان هذا البيت لله ربنا   لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية   محللة لم تبق شرقًا ولا غربًا

أى دخلوا البيت الحرام بملابس الحل فى أشهر الحج ، ودون أن يحرموا .

---

(١٣١) دول الإسلام للذهبى جـ ١ ص ١٧٥ ، ١٧٨ .

وقال مخاطبًا الحجاج : يا حمير إنكم تقولون : من دخله كان آمنًا . ثم قلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر[١٣٢].

لقد روع هذا الطاغيةُ الأحمقُ الآمنين ، وانتهك حرمة البيت الحرام ، وقتل كما جاء فى بعض الأقوال ألفًا وسبعمائة محرم ، وفى بعض الأقوال الأخرى : قتل ثلاثة عشر ألفًا من الرجال والنساء ، ونهب ما فى الكعبة من حلى ، وجردها مما هو عليها من ذهب .

ويقول الذهبى : إن القتلى بمكة قاربوا ثلاثين ألفًا ، وسبَوْا الحريم والصغار ، وأقاموا بمكة جمعة ، ولم يحج أحد ولا وقف بالناس إمام ، وكان من القتلى كثير من العلماء .

ولم يعتبر القرامطة بما أصاب بعض أصحابه من سهام القدر . فقد انقض سهم من جبل أبى قبيس على رجل منهم كان أبو طاهر قد أمره بنزع ميزاب الكعبة فأرداه قبل أن ينزعه .. واستمروا فى تخريبهم .

وأصدر أبو طاهر الأمر إلى رجل آخر فرفض ورفضوا جميعًا ..

وخرج إلى هجر ومعه الحجر الأسود . وقيل : إن أربعين جملاً قد حملته بالتوالى فهلكت جميعًا على الرغم من صغر حجمه ..

لقد صور له وهمه أن يقيم كعبة أخرى فى هجر يصرف الناس إليها ..

وما يدرى أن أبرهة سبقه بهذا الخيال المريض ، وراح ضحية خياله .

لقد زعم هذا القرمطى اللعين أنه يرضى بذلك عبيد الله المهدى إمام الشيعة فى أفريقيا ..

ولكن المهدى تبرأ منه ، وأرسل إليه يؤنبه ويوبخه ، ويقول له : عجبت من أنك تمتن علينا بما ارتكبت واقترفت باسمنا من جرائم فى حرم الله وجيرانه ، بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم الدماء فيها وإهانة أهلها ..

---

(١٣٢) قطر الولى فى معرفة الولى للشوكانى ص ٢٩٩ .

ثم تعديت ذلك إلى أن قلعت الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ، ورجوت أن نشكرك على ذلك ، فلعنك الله . ثم لعنك والسلام على من يسلم المسلمون من لسانه ويده[١٣٣].

وقد فشل القرامطة فى صرف الناس عن قبلتهم المشرفة المباركة ، إلى تلك القبلة المزعومة التى أقاموها فى هجر . واضطروا فيما بعد راغمين إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه فى البيت العتيق . وظل هذا البيت كما كان من عهد إبراهيم – عليه السلام – مثابة للناس وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود[١٣٤].

لقد ظل الحجر غريبًا ما يقرب من ربع قرن ، ثم استوى فى مكانه جالسًا معززًا مكرمًا ، وجعل له طوق من الفضة ليشد به ، حتى لا يسهل انتزاعه من موضعه .

ولسائل أن يسأل : لماذا لم يهلك الله القرامطة كما أهلك أصحاب الفيل بالطير الأبابيل ؟

وقد تكون الإجابة على ذلك بأن القرامطة دخلوا الحرم مستظلين براية الإسلام وإن كانوا قد انحرفوا بدعوته ، وقد أجاب الإمام الزركشى بنحو ذلك فقال : إنهم لم يُمنعوا كما منع أصحاب الفيل لأن دعوة الإسلام قد تمت والكلمة قد بلغت والجماعة قد ثبتت ، وقد أخبر النبى – ﷺ – بوقوع الفتن بعده وأن الكعبة ستهدم وأن المدينة ستغزى ..

وقد حدث ذلك فعلاً بأيدى مسلمة – بكل أسف – هدم الحجاج الكعبة وغزا يزيد المدينة[١٣٥]، وأخيرًا جاء هذا القرمطى الخبيث فاقتلع الحجر الأسود ..

---

(١٣٣) الكعبة المشرفة ص ٢١٩ .

(١٣٤) فى ظلال الحرمين لمحمد كامل حتة ص ١٢٢ .

(١٣٥) إعلام الساجد ص ١٧١ .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[١٣٦] .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى اعتدى فيها على الحجر الأسود .

فقد سبق أن الجراهمة سرقوه .

وأن طائفة من أولاد مضر حين انتصروا على الإياديين قلعوا الحجر الأسود وخبأوه ، وأعاده الخزاعيون ، وكان ثمن رده توليهم أمر البيت .

ولكن القرامطة كانوا فى اغتصابهم الحجر الأسود غاية فى الوحشية والفظاعة . حتى طهر الله البلاد الإسلامية من شرهم وبغيهم سنة ٣٤٠ هـ حين سار إليهم الوزير الحسن بن محمد المهلبى بجيش كثيف من بغداد ، فالتقى بهم وهزمهم شر هزيمة واستباح عسكرهم[١٣٧] .

وحاول رجل رومى بعد ذلك تحطيم الحجر الأسود ، بعد أن اقترب منه كأنه يريد استلامه ، فضربه بدبوس فتطايرت بعض شظايا منه . وقد قتل هذا الرجل ، قبل أن يتمكن من تنفيذ جريمته .

وفى القرن السابق حاول أفغانى مأجور أن يعتدى على الحجر ، فقبض عليه قبل أن ينفذ جريمته ، وحوكم ، وصدر الحكم بإعدامه ، إن مثل هؤلاء يجب أن يطبق عليهم حد الحرابة لأنهم يفسدون فى الأرض ويحاربون الله ورسوله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ . ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٣٨] .

وفى أول المحرم فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى رُوِّع الحرم بمن زعم أنه المهدى المنتظر ، وأغلق أبواب الحرم ، وحاصر المصلين والطائفين ومنعهم من الخروج ، ولكن مؤامرته باءت بالفشل ، وكان مصيره مصير السابقين من أمثاله الذين اعتدوا على حرمات المسلمين والأماكن المقدسة . ولم يحترموا قدسية هذا البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا ومن دخله كان آمنًا .

---

(١٣٦) من الآية ٤ من سورة محمد . (١٣٧) دول الإسلام جـ ١ ص ٢١١ .

(١٣٨) الآية رقم ٣٣ من سورة المائدة .

مكة باعتبارها واديا تحيط به جبال عرضة للسيول الجارفة بين الحين والحين ، وربما تعرض الحرم ذاته لهذه السيول التى قد تؤثر فيه وقد ذكر كتاب دول الإسلام بعض أنباء هذه السيول ومن بينها ما ذكره فى أحداث سنة ٢٩٧ هـ قال : ورد الخبر إلى بغداد أن أركان البيت الحرام الأربعة غرقت، حتى عم الغرق الطواف، وفاضت بئر زمزم وأن ذلك لم يعهد فيما سلف .

ولكن ذلك السيل لم يصب الكعبة بسوء والحمد لله .

وفى سنة ٩٧٠ هـ قام السلطان سليمان العثمانى بإصلاحات هامة فى الكعبة المشرفة .. وشملت الإصلاحات المطاف والأبواب ، وصبغ باب الكعبة ، وأصلح الميزاب ، وصفحه بالفضة المموهة .

أما فى سنة ١٠١٩ فقد جاء سيل اجتاح مكة ونزلت أمطار غزيرة تصدع بسببها الجدار الشمالى من الكعبة. وكان ذلك فى أيام السلطان العثمانى مراد، فلما انتهى اليه الخبر فكر فى هدم الجدار واعادة بنائه ولكن العلماء اقترحوا عليه أن تحزم الكعبة بحزام قوى من النحاس داخل غشاء من الذهب الخالص، كانت تكاليف ذلك حوالى ثمانية ألف دينار.

لقد كان فى عزم السلطان مراد أن يبنى الكعبة بحجارة موشاة بالذهب والفضة ولكن العلماء رفضوا ذلك[١٣٩] .

وبعد ذلك بعشرين عاما فى سنة ١٠٣٩ هـ فى منتصف شعبان تعرضت مكة لأمطار غزيرة مصحوبة بسيل جارف ما زال حتى غمر المسجد الحرام ، ووصلت المياه إلى منتصف الجدران داخل الكعبة نفسها، وقد انهار من جراء ذلك الجداران الشامى والشرق ومعظم الجدار الغربى. ولم يبق بمكة مكان لم يغمره السيل، وراح ضحية ذلك عدد كبير من الناس .

---

(١٣٩) مجلة الوعى الإسلامى ذو الحجة ١٣٩٨ هـ.

وكان ماء السيل مرا مالحا يضرب لونه إلى السواد .

فرعب الناس وخشوا أن يكون هناك غضب من الله، فلجأوا إليه يُصلون ويتضرعون ويكثرون من الدعاء والاستغفار .

وفتحت سراديب باب إبراهيم التى اندفع منها الماء إلى أسفل مكة.

ومكث المطر ثلاثة أيام من الأربعاء إلى الجمعة بدون انقطاع .

ونادى شريف مكة فى الناس أن يهرعوا إلى تنظيف الحرم، فأسرع الناس متسابقين إلى ذلك بتقدمهم الشريف نفسه ، وأزالوا الطين الواقع بالمطاف وساحة الحرم الشريف ..

إنه عمل يتقرب الإنسان به إلى ربه ، ويأنف من القيام به أمير أو سلطان، وهل هناك أشرف من أن يكون الإنسان خادما فى بيت مولاه وحرمه؟ إنه البيت الذى اختار الله لبنائه الملائكة الأبرار والأنبياء الأطهار .

وإن اللقب الذى يحلو لملك السعودية الآن هو لقب خادم الحرمين وما أجله من لقب وأشرفه من وصف.

ونترك الشيخ طه الولى يقص علينا كيف عمر الحرم بعد ذلك :

« فى يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان من السنة المذكورة. اجتمع الشريف مسعود بعلماء مكة واستفتاهم بما يجب عمله، فاتفق الجميع على هدم ما تقتضى الضرورة هدمه من جدرانها وإعادة بنائها من جديد، وتغطية نفقات هذا العمل من الأموال التى كانت محفوظة بداخلها، وأن يكتبوا بذلك إلى السلطان فى «استانبول» لكى تمدهم الدولة بالمساعدة اللازمة، كما اتفق المجتمعون على ستر الكعبة المعظمة بأخشاب مكسوة بالحرير إلى أن يتم البناء ويكتمل .

وفى الخامس والعشرين من رمضان أحضرت الاخشاب المطلوبة من ميناء جدة، فقام مهندس من أهالى مكة بإقامة الأخشاب حول الكعبة واسدال الستائر الخضراء عليها .

ولما شاع الخبر فى أنحاء العالم الإسلامى بما أصاب الكعبة المعظمة من تصدع وانهيار، حدث هياج شديد فى أوساط المسلمين، فبادر السلطان مراد بإرسال سفينة محملة بالمؤن والأخشاب وسائر الأدوات اللازمة للبناء ..

وكانت الحجارة التى استعملت فى البناء تقطع من جبل معروف بمحلة الشبيكة اشتهر فيما بعد باسم «جبل الكعبة».

ولم يسلم العمل من معارضة بعض الأوساط الدينية التى حاولت منع إزالة الجدران المتصدعة من أساسها والاكتفاء بدعمها فقط، ولكن المهندسين المختصين لم يبالوا بهذه المعارضة. وتابعوا الهدم والبناء حسب ما تقتضيه المصلحة والقواعد الفنية والمعمارية .

وقد رفع بعض الشيوخ أصواتهم بالاحتجاج والاستنكار وألف أحدهم رسالة ضمنها الاحتجاج بعنوان «إيضاح تلخيص المعانى فى بيان هدم الركن اليمانى» ووزع هذه الرسالة على القائمين بالعمل فى تعمير الكعبة .

وقد ذكر الشيخ عبد الله غازى فى كتابه «إفادة الأنام عن تاريخ البيت الحرام» أن المهندسين الذين تعهدوا بناء الكعبة إذ ذاك كانوا مكيين أضيف اليهم أربعة من المهندسين والبنائين المصريين وهؤلاء المصريون - كما وردت أسماؤهم فى كتاب تاريخ الكعبة المعظمة - هم :

سالم القرشى، والمعلم سليمان بن محمد البجع، وابن حاتم، ونور الدين .

وفى الواقع أن مصر نهضت بمسئوليتها الكبرى تجاه بناء الكعبة إثر ذلك التصدع الذى انتابها بسبب السيل الجارف. وبخاصة أن الموسم قد قرب. فرأى والى مصر «محمد باشا الألبانى» الا ينتظر ورود الأمر السلطانى من القسطنطينية، خوفا من ازدياد التصدع فى الكعبة المشرفة فارسل رضوان «أغا» مندوبا من قبله الى مكة المكرمة . وخوله صلاحية تامة لاتخاذ التدابير كما ارسل سفينة محملة بآلات العمارة اللازمة .

ثم وصل مندوب السلطان العثمانى إلى مكة، وباشر العمل مع رضوان أغا مندوب والى مصر[١٤٠].

وقد تناول البناء والتغيير جميع جدران الكعبة المعظمة وأركانها ما عدا الحجر الأسود. وظل العمل قرابة عام كامل، إلى نهاية شعبان سنة أربعين والف. وفى العاشر من رمضان البست الكعبة المشرفة كسوتها المباركة فى احتفال مهيب حضره الحكام والأمراء والأعيان.

وفى اثناء العمل انفلق الحجر الأسود إلى اربع شظايا فارتاع المهندسون والبناءون لهذا الأمر ، وجمعوا الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر واللادن فتماسك إلى أمد طويل ، ثم عاد فتفكك، فعالجوه فتماسك فترة ، وعاد إلى التفكك فأصلحه خبير اتخذ له مركبا خاصا تماسكت به قطعه بصورة متينة دائمة ..

وعلى عادة تسجيل الأحداث الهامة شعرا كتب بعضهم متحدثا عن مراحل بناء الكعبة عبر العصور :

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم ورتبتهم حسب الذى أخبر الثقة
ملائكة الرحمن ، آدم ، ابنه كذا خليل الرحمن، ثم العمالقة
وجرهم. يتلوهم قصى، قريشهم كذا ابن الزبير ثم حجاج لاحقه

وزاد بعضهم :

وخاتمهم من آل عثمان بدرهم مراد المعالى،أسعد الله شارقه[١٤١]

الكعبة فى عهدها الجديد

على الرغم من أن التجديد الأخير بلغ الغاية فى الروعة والإتقان، وتسابق الناس جميعا فى الإسهام فيه، كل بما يقدر عليه من جهد. إلا أنه لم يكن آخر إصلاح وتعمير .

---

(١٤٠) تاريخ الكعبة المعظمة - حسين عبد الله باسلامة ص١٠٠.

(١٤١) مجلة الوعى الإسلامى ذو الحجة ١٣٩٨ هـ العدد رقم ١٦٨.

فقد تمت بعده عدة إصلاحات وتجديدات حتى ظهرت الكعبة الآن فى أبهى صورة من الرُّواء والاتقان .

وفى ظل الأسرة السعودية – حظيت البلاد بالأمان والخير ونالت الكعبة من الاهتمام والتنظيم الشيء الكثير فجرت توسعات هائلة فى الحرم والمسجد، وإصلاحات فى الكعبة ذاتها .

أما الإصلاحات التى جرت فى الكعبة نفسها فقد تمت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف فى عهد الملك سعود على النحو الآتى :

ظهر فى أثناء عمارة المسجد خلل فى سقف الكعبة وتصدع فى بعض الجدران فشكلت لجنة لمعاينة ذلك وتقرير ما يجب عمله، وتم بناءً على ذلك :

- إزالة السقف الأعلى وتغييره بسقف جديد.
- ترميم السقف الأسفل وتغيير الأعواد والأخشاب التالفة.
- اقامة «ميدة» على الجدارين المتصدعين، على أن تحيط الميدة بجدران الكعبة كلها .
- ترميم الجدران الأخرى.
- ترميم الكسوة الرخامية بباطن الجدران وتثبيتها من جديد فى أماكنها كما كانت .

وبدأ العمل فعلا فى رجب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف. باحتفال رسمى حضره الملك فيصل باعتباره وليا للعهد فى ذلك الوقت، وباشر المنوطون بالعمل أعمالهم فى بيت الله متوخين رضاه، وقد التزموا ألا يزيدوا فى البناء ما لم يكن من قبل، مستعملين المواد الوطنية فى الترميم والإصلاح .

وقام الملك سعود فى شعبان من العام المذكور بوضع آخر حجر فى الكسوة الرخامية التى غطيت بها جدران الكعبة من الداخل، وانتهى بذلك العمل الجليل فى آخر ترميم وإصلاح للكعبة حتى الآن .

على أن يد الإصلاح والتعمير ما زالت جارية فى الحرم حتى الآن، وقد شهد توسعات هائلة ما كانت اقصى الأحلام تطمح اليه.

التوسعات فى الحرم :

ويمكن استعراض الزيادات التى تمت فى حرم الكعبة على النحو الآتى :

● أول زيادة تمت فى الحرم المكى كانت فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه سنة ١٧ هـ .

وكان قد بلغه نبأ سيل انحدر من وادى مكة إلى ساحة المسجد الحرام ، فركب من فوره معتمرا، وأصلح ما أعطبه السيل، ثم رأى كثرة الناس وازدحام المصلين بالمسجد الحرام، ولم يكن يزيد فى ذلك الوقت عن مدار الطواف ، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد ، وهدمها وأدخل أرضها إلى المطاف ، وبنى حائطا حوله بارتفاع القامة إلا قليلا ، وضعت فوقها المصابيح لإنارة المسجد، وجعل له أبوابا كما كانت بين الدور قبل أن تهدم، وحول مجرى السيل الذى اعتاد دخول الحرم ببناء سد امام المجرى الذى يأتى منه .

● وجاء عهد الخليفة الثالث عثمان - رضى الله عنه - فاشترى مزيدا من الدور التى حول المسجد وهدمها وأضافها اليه وكان ذلك فى ٢٦ هـ، وجعل للمسجد أروقة، وكان قبل ذلك متسعا لا سقف له يظل المصلين وهذه هى الزيادة الثانية.

● وكانت الزيادة الثالثة فى عهد ابن الزبير، فإنه أعاد بناء البيت - كما علمنا - ولم يكتف بذلك بل زاد من توسعة الحرم حوله حتى بلغت مساحته ٣٢٤٠٠ ذراع مربع، وسقفه وجعل فيه أعمدة من الرخام، وكان ذلك فى سنة ٦٥ هـ .

● وعندما هدمت الكعبة وأعيد بناؤها فى عهد عبد الملك بن مروان بيد الحجاج بن يوسف الثقفى. لم يُضف شىء إلى مساحتها، ولكن عبد الملك

أمر برفع الجدر وسقف المسجد بالساج، وجعل على رأس كل عمود من أعمدته خمسين مثقالا من الذهب وتم ذلك بعد تعمير ابن الزبير للبيت بعشر سنوات أى فى سنة ٧٥ هـ .

● وفى خلافة الوليد بن عبد الملك تم توسيع المسجد مرة أخرى ، وإقامة أعمدة رخامية أتى بها من مصر والشام بدلا من الأعمدة السابقة جعلت على رءوسها صفائح الذهب ، وجعل لساحة المسجد سرادقات تظل الناس من الحر فى الظهيرة ، وأنشأ رواقا واحدا يدور حول المسجد الحرام والكعبة المشرفة . وكان ذلك فى سنة ٩١ هـ .

● وفى عهد الخلافة العباسية تمت زيادة أخرى أمر بها المنصور ، فقد اشترى الدور الواقعة فى الجهتين الشمالية والغربية وأضيفت إلى المسجد ، وأمر ببناء منارة فى نهاية الزيادة من الجهة الغربية ، وأصبحت مساحة المسجد ضعف ما كانت عليه ، وزاد من تزيينه ، وزخرفته بالذهب والفسيفساء ، وألبس حجر إسماعيل الرخام ، وظلت أعمال الإصلاح ثلاث سنوات من سنة ١٣٧ هـ - إلى سنة ١٤٠ هـ .

● وفى عهد ابنه المهدى كانت زيادة أخرى تعادل كل الزيادات السابقة ، على مرحلتين، المرحلة سنة ١٦٠ هـ ، اشترى فى خلالها الدور الواقعة بين المسجد الحرام والمسعى من الجانب الشرقى، والدور الواقعة فى الجهة الغربية . وأضاف ذلك كله إلى المسجد.

ثم لما حج فى سنة ١٦٤ هـ وجد أن الكعبة غير متوسطة حرمها لأن الزيادة لم تشمل جميع النواحى. فأمر بتربيع المسجد وتوسيعه من الجهة الجنوبية مهما تكلف ذلك، وباشر الفنيون العمل ، ومات المهدى قبل أن تتم التوسعة التى تمت فى عهد ابنه الهادى .

● وفى عهد المقتدر العباسى تمت زيادتان أخريان احداهما من الجهة الشمالية والثانية من الجهة الغربية .

● وبقى الأمر على ذلك حتى العصر الحاضر. عهد السعوديين حيث تمت توسعة المسجد توسعة هائلة يشهدها كل من تشرف بزيارة بيت الله . فقد بلغت مساحة الحرام ١٦٠١٦٨ مترا مربعا ، يتسع لنصف مليون مصل فى وقت واحد . وتحيط بالحرم ساحات خارجية تتسع لأربعة آلاف سيارة .

وجعلت له أدوار علوية تضاعف عدد المصلين، وجُعل للمسعى دور علوى أيضا، ورصفت أرض الحرم كلها بالرخام وشيدت عدة منارات رائعة، وزينت جدرانه وأسقفه بأبهى أنواع الزينة، وفرشت أرضه بأرق أنواع الفرش ، وصنعت الكهرباء صنعها فى تكييف الجو حتى يشعر المصلون والعاكفون بأنهم فى جو ربيعى بديع ، وامتد التكييف إلى ساحة الطواف فلا يشعر الطائف وهو يطوف بحر الشمس ولفح النار تحت قدميه[١٤٢] .

لقد بذل القائمون بالأمر فى السعودية خصوصا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز جهودا كبيرة مشكورة فى النهوض بالحرمين الشريفين يشهد بها القاصى والدانى، وتقابل من كل حاج ومعتمر بالثناء الطيب والدعاء المخلص لتلك الأيادى التى شكرت نعمة الله فبذلت ما أفاء الله عليها فى تعمير حرمه وإراحة ضيفه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ..

أبواب المسجد الحرام :

لقد بدا المسجد الحرام الآن فى أبهى صورة وأجمل منظر، وفى وسطه الكعبة تشرق بنور الله تزدان بكسوتها الشريفة فينعكس سناها على الطائفين والقائمين والركع السجود..

وأصبح للمسجد الحرام الآن ثلاثة وعشرون بابا.

---

(١٤٢) استعنا فى عرض هذه الحقائق بما ورد فى استطلاع مجلة الوعى الإسلامى حول زيادات المسجد الحرام بقلم الاستاذ عبد الستار محمد فيض. عدد ٢٦٤ ذو الحجة ١٤٠٦.

منها ثمانية فى الشمال هى :

باب الدريبة
باب الزيادة
باب الباسطية
باب عمرو بن العاص
باب المحكمة
باب القطبى
باب الزمامية
باب سعود – وهو باب رئيسى

ومن الجهة الجنوبية سبعة أبواب هى :

باب أم هانىء
باب الرحمة
باب الصفا
باب بازان.
باب العجلة
باب أجياد
باب مخزوم

ومن الجهة الشرقية أربعة أبواب هى :

باب على
باب النبى – ﷺ –
باب السلام وهو باب رئيسى، وأول باب يدخل الحجاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم .
باب عباس

ومن الجهة الغربية ثلاثة أبواب هى : .

باب ابراهيم
باب العمرة ، وهو باب رئيسى .
باب الحزورة

فريضة الحج

لقد فرض الله الحج على الناس ، وجعله ركنا من اركان الإسلام ، وهو الركن الخامس ..

وكان الحج فريضة منذ بنى هذا البيت .

وقد مر بنا أن الأنبياء قديما كانوا يحجون .

جاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما قال – قال رسول الله – ﷺ –: صلى فى مسجد الخيف سبعون نبيا منهم موسى– عليه السلام – كأنى أنظر اليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو محرم على بعير من إبل شنوءة مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان[١٤٣] .

وذكر أن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال لرجل : إذا أتيت إلى منى ، وانتهيت إلى موضع كذا وكذا، فإن هناك شجرة لم تغيل ولم تجرد ، ولم تسرف ولم تسرح قد نزل تحتها سبعون نبيا فانزل تحتها[١٤٤] .

وقد ذكر بعض الرواة طرفا من أخبار حج سليمان بن داود عليهما السلام. قالوا : إن سليمان – عليه السلام – لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز واستصحب من الجن والانس والشياطين والطير والوحش أعدادا كثيرة ، وحملتهم الرياح .

فلما وافى الحرم أقام به ما شاء أن يقيم، وكان ينحر كل يوم من النياق والثيران والشياه عددا وفيرا .

قالوا : وإنه قال لمن حضره من أشراف قومه :

هذا مكان يخرج منه نبى عربى من صفته كذا وكذا، يعطى النصر على من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء، لا تأخذه فى الله لومة لائم.

---

(١٤٣) رواه الطبرانى فى الأوسط واسناده حسن.

(١٤٤) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣٤ ومعنى لم تغيل: لم يسقط ورقها – لم تجرد: لم يصبها الجراد. لم تسرف: لم تصبها السرفة. لم تسرح: لم يصبها السرح أى الابل.

قالوا : فبأى دين يدين يا نبى الله؟ .

قال : يدين بالحنيفية – وطوبى لمن أدركه وآمن به .

قالوا : فكم بيننا وبين خروجه يا نبى الله ؟

قال : بمقدار ألف عام، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل.

وأقام سليمان – عليه السلام – بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحا، وسار نحو اليمن.(١٤٥).

وقد ذكر الزركشى فى كتابه أنه روى : ما من نبى خرج بعد عذاب قومه إلا إلى مكة ودفن بها، وأن بها مئين أو ألوفا من الأنبياء(١٤٦).

كما ذكر عن بعض السلف أن الملك إذا نزل إلى الأرض فى بعض أمور الله – تعالى – فأول ما يأمره الله – تعالى – به زيارة البيت، فينقض من تحت العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر، ثم يطوف بالبيت سبعا ويركع ركعتين ثم يغدو لحاجته(١٤٧) .

الحرم الآمن

لقد رفع الله شأن هذا البيت وجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء ، ولقد صح أنه يعوذ به كل خائف فيأمن .

ومن أمان الله للخائف فى البيت أن الله يعاقب كل من يروعه فى الدنيا قبل الآخرة.

وقد روى الرواة أن سعيد بن جبير حين أخذه الحجاج وقتله قال : وشى بى واش وأنا فى بلد الله الحرام. أكله إلى الله – وهو يعنى خالدا القسرى.

---

(١٤٥) حياة الحيوان جـ٢ ص ٦٦٢ باب الهدهد.

(١٤٦) اعلام المساجد ص ١٩٤.

(١٤٧) رواه الأزرقى فى تاريخ مكة عن وهب بن منبه أنه قرأه فى الكتب الأولى وفى شفاء الغرام ص ١٨٢ ج وانظر اعلام الساجد ص ١٩٥ .

وكان خالد القسرى واليا على مكة من قبل عبد الملك، ثم أصبح واليا على العراق بعد الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان متهما في دينه، وأمه كانت نصرانية وبنى لها كنيسة تتعبد فيها ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

ألا قبح الرحمن ظهر مطية اتتنا تهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كان أمه تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه ويهدم من بعض منار المساجد

وقد عزل في عهد هشام، وتولى بعده يوسف بن عمر الثقفى فقتل خالدا شر قتلة(١٤٨). وكان ذلك استجابة لدعوة سعيد بن جبير.

الطير والحيوان يأمنان فى الحرم

ولقد عرف الحيوان الأعجم أن من دخل الحرم فهو آمن . وأدرك أن الحج فريضة مكتوبة على الخلق. ورأى بعض الناس فى بعض الأزمنة طيورا تحج.

ومن العجائب في ذلك. ان طائرا أصغر من البلبل، لونه لون الحبرة، ريشة حمراء وريشة سوداء، دقيق الساقين طويلهما، له عنق طويل دقيق المنقار طويلة، كأنه من طير البحر أقبل يوم السبت السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ست وعشرين ومائتين حين طلعت الشمس ، والناس فى الطواف كثيرون من الحاج وغيرهم، وعبر من ناحية أجياد حتى وقع فى المسجد الحرام قريبا من زمزم مقابل الحجر الأسود. وهو إلى الحجر الأسود أقرب، ثم وقع على منكب رجل فى الطواف عند الحجر الأسود من حجاج أهل خراسان . فلبى وهو على منكبه الأيمن ، فطاف الرجل به ، والناس يدنون وينظرون اليه وهو ساكن غير مستوحش منهم، والرجل الذى هو عليه يمشى فى الطواف وهم ينظرون اليه وعينا الرجل تدمعان على خديه ولحيته.

قال عبد الله بن ربيعة : رأيته على منكبه الأيمن والناس يدنون منه وينظرون اليه فلا ينفر منهم ولا يطير ، وكنت أخرج من الطواف فأركع خلف المقام ، ثم أعود وهو على منكب الرجل .

---

(١٤٨) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص ٣٠١.

ثم جاء إنسان من أهل الطواف فوضع يده عليه فلم يطر، وطاف به بعد ذلك، ثم طار من قبل نفسه، حتى وقع على يمين المقام، ومكث ساعة طويلة وهو يمد عنقه ويقبضها إلى جناحه. والناس ينظرون اليه.

فأقبل فتى من الحجبة فضرب بيده فيه فأخذه ليريه رجلا منهم كان يركع خلف المقام فصاح الطير فى يده أشد صياح بصوت لا يشبه أصوات الطيور، ففزع منه وأرسله من يده.

فطار حتى أتى بين يدى دار الندوة خارجا من الظلال قريبا من الأسطوانة الحمراء.

واجتمع الناس ينظرون اليه وهو مستأنس فى ذلك كله غير مستوحش منهم، ثم طار من قِبلَ نفسه فخرج من باب المسجد الذى بين دار الندوة ودار العجلة نحو قيقعان[١٤٩] .

فهذا الخبر يدل على أن الطيور تأنس إلى الكعبة، ويقبل عليها من يقبل أحيانا فى الموسم كما يقبل الناس... وليس ذلك عجيبا فكل ما فى الوجود من مخلوقات عاقلة وغير عاقلة تعرف الله وتسبح بحمده طائعة أو كارهة .

قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[١٥٠]

وقال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[١٥١] .

---

(١٤٩) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ٤٨٧ نقله عن تاريخ مكة للأزرقى.

(١٥٠) آية ١٥ – الرعد. (١٥١) آية ١٨ – الحج

وقال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾(١٥٢)

بل ان الطير والوحش والحيوان فى ذكر لا ينقطع ، وهى محفوظة بهذا الذكر حتى تتركه فتقع فريسة الصياد. ذكر الدميرى قال : روينا عن ابن طبرزد بإسناده إلى الحكم بن عبد الله بن حطان عن الزهرى عن أبى واقد عن روح بن حبيب قال : بينما أنا عند أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - إذ أُتِىَ بغراب - فلما رآه بجناحين حمد الله - تعالى - ثم قال : قال رسول الله - ﷺ - : ما صيد قط صيد إلا بنقص من تسبيح، ولا أنبت الله - تعالى - نابتة إلا وكل بها ملكا يحصى عليها تسبيحها حتى يأتى به يوم القيامة ، ولا عضدت شجرة ولا قطعت إلا بنقص من تسبيح، ولا دخل على امرىء مكروه إلا بذنب، وما عفا الله عنه أكثر.

يا غراب، اعبد الله، ثم خلى سبيله(١٥٣).

وفى حج الوحش والحيوان وائتناسه بالكعبة روى طلق بن حبيب قال : كنا جلوسا مع عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله تعالى عنه - فى الحِجْر ، إذ قلص الظل وقامت المجالس، وإذا نحن ببريق «أيْم» طالع من باب بنى شيبة، فاشرأبت له أعين الناس فطاف بالبيت سبعا وصلى ركعتين وراء المقام ، فقمنا اليه وقلنا له : أيها المعتمر قد قضى الله نسكك ، وإن بأرضنا عبيدا وسفهاء وإنا نخشى عليك منهم فمر ذاهبا نحو السماء فلم نره(١٥٤).

ولقد ورد فى امثال العرب قولهم : آمن من حمام الحرم، وآمن من ظباء الحرم.

---

(١٥٢) من آية ٤٤ - الاسراء. (١٥٣) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣١١ مادة غراب وروى مثله عن عمر بن الخطاب فى مادة قسورة.

(١٥٤) الأيم: الحية الذكر. حياة الحيوان جـ ١ ص ١٧٦ باب الأيم - رواه عن الأزرقى فى تاريخ مكة.

روى عن مجاهد قال : دخل مكة قوم تجار من الشام فى الجاهلية، بعد قصى بن كلاب، فنزلوا بوادى طوى تحت سمرات يستظلون بها، فاختبزوا على ملة لهم . ولم يكن معهم أدم . فقام رجل منهم فأخذ سهما ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى ، فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها .

فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلى بها وبعضهم يشوى، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التى كانوا تحتها[١٥٥] .

الاكثار من زيارة الكعبة

لقد دعا النبى ﷺ المسلمين إلى الاكثار من زيارة الكعبة والطواف بها. ومن الآثار الواردة فى ذلك. «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة».

وقد أخرج مسلم فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» .

وروى عنه ﷺ أنه قال : «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة»[١٥٦] .

وإن الكعبة لتشتاق إلى زوارها كما يشتاقون اليها.

فقد روى جابر – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : شكت الكعبة إلى الله تعالى – قلة زوارها فأوحى الله إليها لأبعثن اليك أقواما يحنون اليك كما تحن الحمامة إلى فراخها .[١٥٧] .

---

(١٥٥) حياة الحيوان جـ٢ ص ١٩٠.

(١٥٦) رواه النسائى عن عبد الله بن مسعود.

(١٥٧) كامل ابن عدى فى ترجمة سهل بن قرير عن محمد بن المنكدر. وفى حياة الحيوان ٤٤٨/١.

وممن كان يكثر من الحج ويأخذ من علم الناس وأخبارهم ما رواه الامام أحمد قال : حدثنا إسماعيل. قال : حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء – وكانا يكثران السفر نحو هذا البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوى : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل، فكان من كلامه : انك لا تدع شيئا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرا منه .

وقد كان الحرم وما زال مأوى للمجاورين حوله يطلبون العلم ويستكثرون منه ويتقربون إلى الله فالثواب فى ظله بمائة الف ثواب..

وقد التقى فى ظله كثير من العلماء عبر العصور وتركوا من خلفهم ثروات علمية هائلة تشهد بما رزقهم الله من علم غزير وفضل كبير..

وقد كانت المجاورة فى ظلال الحرمين همُّ كثير من العلماء السابقين واللاحقين ، وما زالت أروقتهما – ولله الحمد – عامرة بذوى الفضل الذين يقصدونهما من كافة بقاع الديار الاسلامية .

مناسك أبطلها الاسلام

أرسل الله جبريل لآدم وابراهيم يعلمهما مناسك الحج.

وألهم الله نبيه – ﷺ – هذه المناسك . فعلمها للناس فى حجته الأخيرة – حجة الوداع – وقد مر بنا بيان هذا الحج .

وقد كان الجاهليون قد أدخلوا فى مناسك الحج ما ليس منها ، وفعلت الوثنية فعلها فيهم ..

وعرفنا أنهم كانوا حين يهلون بالتلبية يشركون مع الله آلهتهم – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

وقد ألغى الإسلام ذلك. وأفرد الله بالوحدانية والتلبية..

وكانوا يطوفون بالبيت عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، فنهى النبى - ﷺ - عن ذلك .

وكانت صلاتهم عند البيت كما يقول القرآن الكريم ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾[١٥٨] .

قال ابن عطية : الذى مربى من أمر العرب فى أكثر من ديوان أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديما قبل الإسلام على جهة التقرب والتضرع قال : ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من حراء وبينهما أربعة أميال، وكذلك كان مخزمة بين قيس بن عبد مناف يصفر عندالبيت فيسمع من حراء ، وكان قبل مولد النبى - ﷺ - عام الفيل .

وذكر القرطبى فى معنى المكاء والتصدية قال : المكاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية الصفير يريدون أن يشغلوا بذلك النبى - ﷺ - عن الصلاة .

ولكن المعروف فى اللغة أن المكاء هو الصفير ، والتصدية هى التصفيق . كل ذلك أبطله الاسلام .

كما أبطل المكوس التى كان يجبيها الجاهليون من الحجاج . وقيل انه من أسباب انهيار ملك الجراهمة بغيهم على الحجاج واسرافهم فى فرض الضرائب والمكوس عليهم[١٥٩] .

لقد علم الإسلام الناس الخشوع والرحمة والتعاطف ، وأرسى فى نفوسهم قواعد الإنسانية العامة والمواساة الكريمة ، ولذلك أصبح من آداب الحج

---

(١٥٨) الأنفال ٣٥ والمكاء الصفير والتصدية التصفيق .
(١٥٩) فى ظلال الحرمين ص ١١٤ .

الإقبال على الله بالسكينة والوقار وترك المراء والجدال قال - تعالى :

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

● وكان الموسم فرصة لتذكير الخلفاء والأمراء بواجبهم .

ذكر الغزالى فى إحيائه أن أبا جعفر المنصور حج ونزل فى دار الندوة، وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت، فخرج ذات ليلة فسمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله .

فاستدعاه، وقال له : ما الذى سمعتك آنفا تقول ؟

فقال له : يا أمير المؤمنين، إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله ، وامتلأت بلاد الله بذلك بغيا وفسادا أنت .

قال المنصور : ويحك ، كيف يدخلنى الطمع ، والصفراء والبيضاء ببابى ، وملك الأرض فى قبضتى ؟

قال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، واتخذت بينك وبينهم حجابا وحجبة ، وأمرت ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العارى .

ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق .

فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك تجمع الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا خان الله ورسوله فمالنا لا نخونه .

فأجمعوا على ألا يصل اليك من أمور الناس إلا ما أرادوا، فصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنت غافل عنهم .

وما زال به يعظه ويذكره حتى بكى المنصور : وقال : كيف أعمل والعلماء قد فرَّت منى والعُبَّاد لم تقرب منى، والصالحون لم يدخلوا على ؟

فقال : يا أمير المؤمنين. افتح الباب، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم وخذ المال مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن أنَّ من هرب منك يعود اليك .

وكان الرشيد يقول : والله إنى أريد الحج كل سنة ما يمنعنى من ذلك إلا رجل من ولد عمر رضى الله عنه يسمعنى ما أكره - يعنى به عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر العمرى المدنى الزاهد[١٦٠] .

حمام الحرم

من المناظر المألوفة فى الحرم ذلك الحمام الذى يرفرف فى ساحة الحرم الشريف ، ويطير آمنا فوق رءوس الطائفين والمصلين. ومن العجيب أنك لا ترى له مخلفات على الإطلاق ..

قيل إن نوحا عليه السلام حين أرسل الحمامة تكتشف له الأرض وهو فى السفينة عادت إليه وفى منقارها غصن زيتون ، فاستبشر بها ، ودعا لها ، فسكناها الحرم من بركة دعوته لها .

وروى البزار فى مسنده أن الله - تعالى - أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار وأن ذلك صد المشركين عنه - ﷺ - وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين ..

ويرشدنا هذا الخبر إلى ان صلاح الآباء قد يكون سببا فى نجاية الذرية ونجاتها وتوفيقها إلى الخير.. والله جل وعلا يقول : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾[١٦١] .

---

(١٦٠) حياة الحيوان جـ٢ ص ٥٧٠.
(١٦١) الكهف من آية ٨٢.

وليس الحمام وحده الذى يعشش آمنا فى الحرم، فالدميرى يذكر فى كتابه أن هناك نوعا من الخطاطيف يسكن الحرم ، ويعشش فى سقفه وفى باب ابراهيم وباب بنى شيبة . وبعض الناس يزعم أنه من الطير الأبابيل الذى عذب الله به أصحاب الفيل .

الكعبة من الداخل

وليكن مسك الختام وصف للكعبة من الداخل يقصه علينا من أكرمه الله بدخولها، راجين أن يكتب الله لنا هذه الرؤية المباركة، فيكون حديثنا عن معاينة ومشاهدة، بعد أن كان عن محادثة ومطالعة ..

« هى عبارة عن بهو مربع الأضلاع، مشطور الزاوية الشمالية إلى يمين الداخل، وبهذه الشطرة باب صغير يؤدى إلى سلم يصل إلى السطح، ويعتمد السقف على أعمدة ثلاثة من خشب العود، امتنعت على البلى من عهد عبد الله بن الزبير حتى الآن . وتكسو جدرانها أستار من الحرير مطرزة بالآيات القرآنية وهى مزينة بالقناديل الذهبية والستائر الثمينة »[١٦٣] .

هذا وصف تدركه ملاحظة الحس .

ولكن دخول الكعبة يشعر الداخل – قطعا – برهبة مشوبة بالحب والرضا والسكينة .. وإن ذلك ليحدث لمُشاهِدها من الخارج. فما بالك لو ارتقى السلم إلى بابها الذهبى ، وفُتح الباب أمامه ليلتقى فى داخلها بكل نفحات الوجود، وسعادة الدنيا والأمل بثواب الآخرة .

إن الدنيا على رحابتها لتضيق أمام هذه المساحة المحدودة فى هذه الأمتار المربعة، وإنها على صغر حجمها لرحبة جدا لا يكاد يحصر فكر أو يحدها بصر، وعظيمة جدا لا يستطيع أن يعبر عن عظمتها لسان. ومرتفعة جدا لا يحول دون سموها سقف أو بنيان ..

---

(١٦٣) فى ظلال الحرمين لمحمد كامل حتة .

وقد عبرت إحدى المحظوظات عن تجربتها السعيدة تلك بقولها :

« وعندما من الله علي بالدخول إليها أخذت أرتقى الدرج بأقصى ما أستطيع من السرعة، وكأننى أخشى أن يحول بينى وبين الدخول حائل ، وعندما وجدتنى أقف على عتبة الباب أعلى الدرج شعرت بأن ماضى كله قد انفصل عن حاضرى تماما، وأننى فى لحظة ليست كباقى لحظات العمر التى عرفتها من قبل. لحظة وجود جديد... ميلاد روحى يتم وسط أنوار تتلألأ وتكبيرات وتهليلات ...»[١٦٤] .

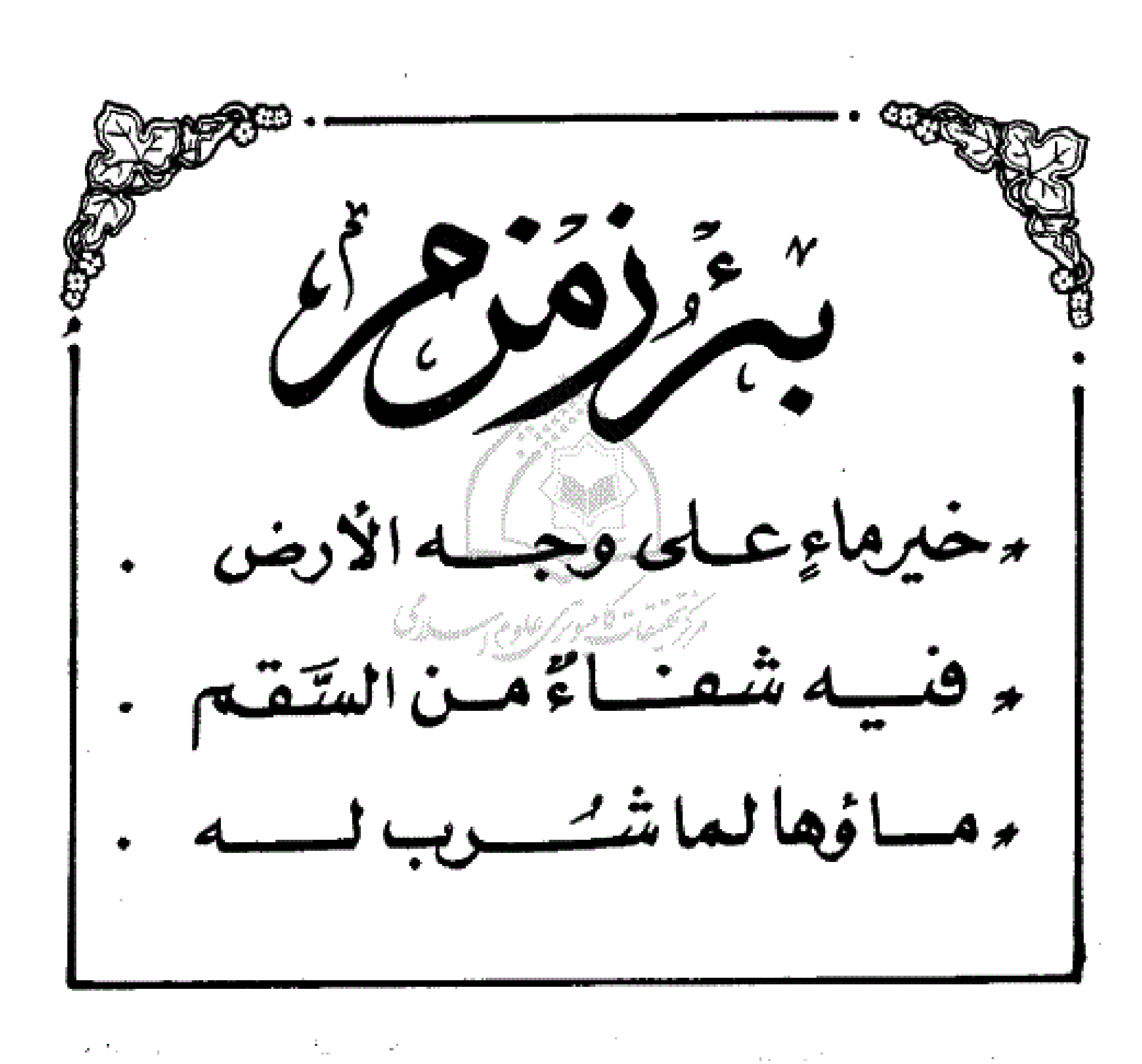
إن لدخول الكعبة مذاقا خاصا وثوابا خاصا كذلك ».

فقد روى الثقاب بأسانيد مختلفة عن النبى - ﷺ - : « من دخل البيت فصلى فيه دخل فى حسنة ، وخرج من سيئة مغفورا له . وفى لفظ : من دخل البيت خرج مغفورا له »[١٦٥] .

وروى عن الحسن البصرى : «من دخل الكعبة دخل فى رحمة الله - عز وجل - وفى حمى الله تعالى وفى أمنه ومن خرج خرج مغفورا له .

(١٦٤) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى .

(١٦٥) تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣٥٩ أخرجه الطبرانى عن عطاء عن ابن عباس .


بئر زمزم
خير ماءٍ على وجه الأرض
فيه شفاءٌ من السّقم
ماؤها لما شُرب له

زمزم

علاقة زمزم بسلسلة القصص القرآني . أن زمزم جزء من الكعبة المشرفة .. وهي استجابة لدعوة ابراهيم – عليه السلام – حين قال : ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١٦٦)

ولا عمران يدون مياه ، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (١٦٧)

وقد عرفنا من أحاديثنا السابقة أن زمزم منة الله على نبيه اسماعيل – عليه السلام – فجرها تحت قدميه ، حين اشتد به العطش هو وأمه ، وجعلها شِرْباً له ولحجاج بيت الله فى المستقبل .

لقد أرسل الله جبريل – عليه السلام – فهمز الأرض بعقبه أو بجناحه فظهر الماء . وكانت أمه تجرى بين الصفا والمروة بحثا عن مخرج تنقذ به وليدها من العطش .. وبينما هى كذلك إذ سمعت أصوات السباع فخافتها على ابنها ، فجاءت تشتد نحو ، فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خده ويشرب .(١٦٨) .

وقد جعل الله – جلت قدرته – هذه العين طيبة مباركة ،على الرغم من صغر حجمها ، فهى تقوم مقام الأنهار الكبيرة ، مما يدل على أنها من فيض رحمة الله التى وسعت كل شيء .

لقد بارك الله فيها حتى إنها لتفى بحاجة الحجيج الأعظم مهما بلغ عددهم ، وإنها لتمدهم بالرى والغذاء معا .

---

(١٦٦) ابراهيم ٣٧ . (١٦٧) الأنبياء ٣٠ .

(١٦٨) سيرة ابن هشام جـ١ صـ١٢٢ ، ويفحص : يكشف الماء ويوسع له ، والحسى : الحفرة الصغيرة .

وقد وردت فى ذلك آثار شريفة طيبة . فقد قال - ﷺ - : « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » .

وقد رواه الحاكم فى المستدرك من حديث أبى ذر :

قال أبو ذر - رضى الله عنه - : .. وأقبلت حتى جئت إلى رسول الله - ﷺ - فقال : من أنت ؟ ومن أين أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وما جاء بك ؟

فأنشأت أعلمه الخبر .

فقال : من أين كنت تأكل وتشرب ؟

فقلت : من ماء زمزم .

فقال : أما إنه لطعام طعم .. (١٦٩)

قيل : إن أبا ذر مكث ثلاثين يوما يتقوت منه فسمن حتى تكسرت عكن بطنه .

وروى عن النبى - ﷺ - قوله : « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام من الطعم ، وشفاء من السقم - وشر ماء على الأرض ماء بوادى برهوت بحضرموت وعليه رِجْل الجراد من الهواء - وفيه آيات بينات » منها أنه يقتات به ، ولهذا لا يجوز الاستنجاء به . (١٧٠)

وقال بعض الرواة : إن الخليل - عليه السلام - بعد أن نبعت العين حفرها (١٧١) ، وكان إبراهيم يلم بابنه وأمّه راكبا البراق كل يوم - على ظهر البراق - وهو مركب الأنبياء .

---

(١٦٩) أخرجه الطبرانى فى الصغير ، وفى جمع الجوامع للسيوطى جـ ٢ صـ ٢٢٢٥ برقم ٧١ / ١٤٤٨٣ .

(١٧٠) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى صـ ٢٠٥ والحديث أخرجه الطبرانى فى معجمه من طريق موسى بن هارون مسندا إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - .

(١٧١) ذكر ذلك يحيى حمزة كوشك فى كتابه « زمزم » منسوبا إلى الفاكهى فى شفاء الغرام .

ولولا حفر إبراهيم الذى وسع زمزم وعمَّقها ما عمرت مكة ..

وكان ظهور زمزم قبل الميلاد بحوالى تسعة عشر قرنا ، وذلك على حسب التاريخ الذى أورده أهل الكتاب حين قالوا : إن إسماعيل ولد سنة ١٩١٠ قبل الميلاد ..

وهذا التاريخ مقارب لما سبق أن ذكرناه فى رحلة إبراهيم إلى مصر حيث كان الهكسوس « ملوك الرعاة » يحكمونها .

أما تسميتها « زمزم » فقد أشرنا – فيما سبق – إلى أن هاجر أم إسماعيل – عليهما السلام – حين رأت الماء يتدفق ويسيح خشيت عليه من التبدد والضياع فى الوادى ، فجعلت تُحَوِّط حوله ، وتقول بلسانها : زم ، زم يا مبارك ، أى اجتمع ولا تتفرق ...

وقيل فى تعليل ذلك أقوال أخرى :

منها أن الزمزمة عند العرب معناها الكثرة والاجتماع . فسميت بذلك لكثرة الماء واجتماعه ..

ومنها أنها زُمَّت بالتراب حتى لا يتفرق الماء يمنة ويسرة .

ومنها أنها أخذت من الزمزمة وهى صوت الماء ..

ومنها أن الفُرس زمزموا عليها حين حجوا إليها ، ولهم صوت يخرجونه من خياشيمهم عند شرب الماء يسمى زمومة ، وقد نهاهم «عمر» – رضى الله عنه – عن ذلك .. [١٧٢] . أو لزمزمة جبريل عليه السلام وكلامه عنها .

ولزمزم تسميات أخرى .

وقد ذكر العلماء أن زمزم لها أسماء أخرى لها تعليلات .

فهى زَمْزَم – بفتح وسكون وفتح – كما قدمنا ..

---

(١٧٢) لسان العرب لابن منظور .

وزمّم - بميم مشددة - بعد الزاى.
وهى الشبّاعة أى التى تشبع من يشرب منها من الجوع.
وهى الرّواء والمُرْوِيَة: لأنها تروى من العطش.
وهى ركضة جبريل، والركضة ضرب الأرض بالرجل.
وهى هزمة جبريل، والهزمة كالهمزة أى غمزة جبريل الأرض.
وهى النافعة، لما فيها من نفع كثير لا حصر له.
وهى العافية، لما تذهب به من العلل والأمراض.
وهى الميمونة، لما فيها من يمن وبركة.
وهى بَرّة، لما فيها من البر وهو الخير.
وهى المضنونة، من الضَنّ وهو المنع، أى الحرص عليه لنفاسته، فالضنين هو النفيس.

ولها أسماء غير ذلك أشار إليها صاحب كتاب «زمزم طعام طعم وشفاء سقم».
أما طعام وشفاء سقم فقد ورد فى ذلك حديث شريف سبقت الاشارة إليه.

وعلى الرغم من أن ماء زمزم رِواء فإن فيه أثر ملوحة تعقب حلاوة. يعرف ذلك من ذاقه.

وعلل الزركشى هذه الملوحة تعليلا ذوقيا فقد قال: إن الله خصها بذلك حتى يغلب على شاربها الملح الإيمانى، ولو جعله عذبا لغلب الطبع البشرى، وفى ذلك رد على أبى العلاء المعرى فى قوله:

لك الحمد أمواه البلاد بأسرها عِذابٌ، وخصت بالملوحة زمزم(١٧٣)

خصائص زمزم

ومن خصائص زمزم أن ماءها يعظم، ويكثر فى الموسم كثرة خارقة، ويحلو، وروى أن مياه الأرض العذبة، ترفع قبل يوم القيامة ما عدا زمزم..

ولهذا الماء فضل كبير يعرفه المسلمون ويحرصون عليه، حتى إنهم ليتهادونه حين عودتهم من رحلتى الحج والعمرة.

---

(١٧٣) إعلام الساجد صـ ٢٦٥.

قال الامام بدر الدين ابن الصاحب المصرى : وازنت ماء زمزم بماء مكة فوجدت زمزم أثقل من العين بنحو الربع ، ثم اعتبرتها بميزان الطب فوجدتها تفضل مياه الأرض كلها طبا وشرعا .[١٧٤]

ويرى العارفون أنه نافع لكل شيء بدليل الحديث الشريف : « ماء زمزم لما شرب له» - بشرط حسن النية وصدق الاعتقاد ..

وقد قال الأطباء : ان هذا الماء نافع للكلى والأمعاء والمعدة والكبد .[١٧٥]

وترجع أسباب هذه الخصائص التى منحها الله هذا الماء إلى ما يأتى :

● أنه ليس ماء عاديا ، ولكنه فجره الله فى مناسبة خاصة بمعجزة .. فقد كان نتيجة ركضة جبريل عليه السلام - لنبى الله اسماعيل - عليه السلام - وذلك منذ ما يقرب أو يزيد على أربعة آلاف سنة . فى مكان لا يتوقع وجود الماء فيه بحال من الأحوال ..

● انه نابع من تحت أقدس مكان فى الأرض .. من تحت الكعبة المشرفة - أول بيت لله وضع للناس فى الأرض . ومن جهة الصفا والمروة وهما من شعائر الله ..

● ان هناك أحاديث كثيرة تحدثت عن فضائل هذا الماء ، وحثت على شربه والاستكثار منه والاستشفاء به فمن ذلك قوله - ﷺ - : « ماء زمزم لما شرب له »[١٧٦]

---

(١٧٤) زمزم صـ ٣٠ .

(١٧٥) زمزم طعام طعم صـ ٣٠ .

(١٧٦) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٥ صـ١٤٨ فى كتاب الحج . باب سقاية الحاج - وفى مسند الامام أحمد حـ ٣ صـ ٣٧٢ - مرويا عن جابر وفى جمع الجوامع حـ ٣ صـ١٨٢٩ برقم ٤ / ١٨٣٥٦ .

وقوله – ﷺ – « ماء زمزم لما شرب له ، فإن شربته لتشفى به شفاك الله ، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله ، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه » .[177]

وفى رواية بزيادة : وهى هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل .

وقوله – ﷺ – « ماء زمزم شفاء من كل داء » .[178]

● وكان النبى – ﷺ – يحث على التضلع منه .[179]

ومعنى التضلع ملء الأضلاع منه أى الاكثار من الشرب حتى تمتلىء الأضلاع شبعا وريا .[180]

● وقد غسل صدر النبى حين شقه الملكان بماء زمزم ، وما ذلك إلا لخصيصة فى ذلك الماء لا توجد فى غيره .

● ومن غير شك أن هذا الماء منذ نبع أقبل على شربه الأطهار والأخيار ، فإنه فى مكان مقدس لا يقصده إلا كل طاهر يحج الكعبة . ومن ثم فقد شرب منه الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام وهم ذريته فهو أبو الأنبياء ..

ومازال يحج هذا البيت من استجاب لدعاء إبراهيم أزلا .. ومن اختاره الله فوفقه للتلبية .. فيشرب من هذا الماء ويستكثر فلا يجد إلا الرى والشبع والبركة والنفع ..

---

(١٧٧) الحديث فى المستدرك للحاكم حـ ١ صـ ٣٧٢ – مرويا عن جابر وفى جمع الجوامع صـ ١٣٨٠ برقم ٥/ ١٨٣٥٧ .

(١٧٨) الحديث فى الجامع الصغير برقم ٧٧٦٢ وفى جمع الجوامع برقم ١٨٣٥٩/٧ – وفيه كلام – .

(١٧٩) زمزم صـ ٣١ .

(١٨٠) لسان العرب لابن منظور .

لقد أصبح الشرب من زمزم سنة . فإنه بعد أن ينتهى الحاج أو المعتمر من الطواف يصلى ركعتين فى مقام إبراهيم - عليه السلام - ثم يتوجه إلى زمزم فيشرب من مائها ، ويدعو الله عند شربه بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة ، فيحقق الله مطلوبه ..

تحقق صدق ذلك ..

وقد تحقق صدق هذا الأثر الوارد عن النبى - ﷺ «ماء زمزم لما شرب له » .

وكان النبى - ﷺ - يدعو عند شربه ، وكان الصحابة يدعون ، ومن دعاء ابن عباس - رضى الله عنهما - اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل سقم برحمتك يا أرحم الراحمين ..

وروى عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كنت عند ابن عباس جالسا فجاءه رجل فقال : جئت زمزم فشربت منها كما ينبغى ؟

قال : وكيف ؟

قال : إذا شربت منها فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله ، وتنفس ثلاثا وتضلع منها ، فإذا فرغت فاحمد الله - عز وجل - فإن رسول الله - ﷺ - قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم » . (١٨١)

هناك كثير والحمد لله - من قديم العصور كانوا يشربون - ومازال المسلمون يشربون بنية الشفاء من المرض - وبخاصة المستعصى - أو بنية التوبة ، أو نية العلم ، أو نية التوفيق فى أمر من الأمور ، أو نية التوفيق فى أمر

---

(١٨١) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٠١٧ برقم ٣٠٦١ باب الشرب من زمزم وقال فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله موثوقون.

من الأمور ، أو نية نجابة الأولاد ، أو نية ذهاب الهم والغم أو غير ذلك من مقاصد الخير ويحصل كل منهم على مقصوده ..

حكى الإمام السيوطى فى ترجمته الذاتية لنفسه قال : لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها أن أصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

فأجابه الله إلى طلبه وحقق أمله. فيقول : رزقت التبحر فى سبعة علوم، هى: التفسير، والحديث، والفقه والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة(١٨٢).

أما الشفاء من المرض ببركة الشرب من هذا الماء فهو حاصل مجرب ، وقد حدث ذلك مراراً وتكراراً مما لا يحتاج إلى دليل .

فكم من أناس داهمهم المرض حتى يئسوا من الشفاء ، وحجوا واستقوا من زمزم على نية الشفاء ، فعادوا وقد لبسوا ثوب الصحة والعافية وكم من شيوخ كاد الهرم يقعدهم عادوا من حجهم أو اعتمارهم كأنهم فى سن الفتوة والشباب ...

وقد حدث أحد الأصدقاء عن قريب له كان مبتلى بالإدمان ، وحج وشرب من زمزم على نية شفائه من إدمانه، وقال فى دعائه : اللهم إنه قد صح عن نبيك - ﷺ - أنه قال : ماء زمزم لما شرب له . وأنا أشرب يارب على نية أن تخلصنى من هذا الداء اللعين الذى استولى على ، وأهلك أموالى وخرَّب صحتى .. وأخذ يشرب حتى تضلع وما أن انتهى من شربه حتى أخذ يقىء حتى أفرغ ما فى جوفه ..

وكأن هذا القىء قد طهر أمعاءه وغسل جسمه وشفى من الإدمان تماما ، حتى أصبح يتقزز من منظر المدمنين وسماع أخبارهم، وعادت إليه صحته

---

(١٨٢) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى جـ ١ ص ١٤٨ .

وشبابه، بعد أن كانت علامات الهرم قد ظهرت عليه وهو فى شرخ الشباب. فسبحان القادر الوهاب ..

لقد صح عن النبى - ﷺ - أن ماء زمزم يبرد الحمى ويذهب الصداع . وأن النظر فى زمزم عبادة وهى تحط الخطايا ، قالوا : ومن فضائلها أن من حثا على رأسه ثلاث حثيات منها لم تصبه زلة .

وقد ذكر المناوى تعليلا لذلك السر الذى جعله الله فى هذا الماء المبارك قال : إن ماء زمزم جعله الله سقيا وغياثا لولد خليله ، فبقى غياثا لمن بعده ، فمن شربه بإخلاص وجد ذلك الغوث ، قال الحكيم الترمذى : هذا جار للعباد على مقاصدهم وصدقهم فى تلك المقاصد والنيات ، لأن الموحد إذا رابه أمر فشأنه الفزع إلى ربه، فإذا فزع إليه واستغاث به وجده غياثا ، وإنما يناله العبد على قدر نيته فإن النية تبلغ بالعبد عناصر الأشياء، والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها ، وعلى قدر العقل والمعرفة بقدر القلب على الطيران إلى الله - تعالى - فالشارب لزمزم على ذلك[١٨٣]

إعادة حفر زمزم بعد طمرها

عرفنا أن زمزم فجرها الله لإسماعيل - عليه السلام .

وجاء الجراهمة فنزلوا حول البئر بعد استئذان هاجر . وأقاموا فترة من الزمن ، ثم غلبوا على ولاية البيت بعد أبناء إسماعيل .

وتطاول الزمن وبغى الجراهمة فى الحرم فنحاهم الله عن مكة ..

ويقال : إن هناك حربا دارت بين الجراهمة وأعدائهم، هزم فيها الجراهمة ، فطاردهم أعداؤهم إلى خارج مكة ، فعمد الجراهمة إلى بئر زمزم فطمروها، ودفنوا فيها بعض النفائس والأسلحة .. انتقاما من هؤلاء الذين انتصروا عليهم ، حتى يحرموهم من المورد الرئيسى للحياة .. وهو الماء وذهب مكان البئر بمرور الزمن ، وحفر أهل مكة آبارا جديدة أخذوا يستقون منها ونسوا أمر زمزم تماما .

---

(١٨٣) «زمزم طعام طعم» ص ٢٩ من كلام المناوى فى شرح الجامع الصغير عند قوله ﷺ : «ماء زمزم لما شرب له..»

وقد ذكر ابن هشام في سيرته أسماء بعض هذه الآبار التي كان يستقي منها أهل مكة قبل أن يعاد حفر زمزم ..

- فمن هذه الآبار «الطوىً» وهي بئر حفرها عبد شمس بن عبد مناف . كانت بأعلى مكة عند البيضاء .

- وحفر هاشم بن عبد مناف بئرا اسمها «بَذَّر»

قال ياقوت : بذر من التبذير ، وهو التفريق، وسميت بذلك لأن ماءها كان يخرج متفرقا من غير مكان .

وكانت عند خطم الخندمة على فم شِعب أبي طالب وقال حين حفرها :

أنبطت بذَّراً بماء قَلاَّس جعلت ماءها بلاغاً للناس

- وحفر المطعم بن عدى بئرا وسماها « سَجْلة ».

ويقال : إن الذى حفرها هو هاشم بن عبد مناف ، فوهبها ابنه أسد بن هاشم. لعدى بن نوفل، وورثها ابنه المطعم بن عدى.. وفي هذه الهبة تقول خالدة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدى سَجْلة تروى الحجيج زُغْلَةً فزُغلة

وقيل : إن الذى حفرها هو قُصيّ.

- وحفر أمية بن عبد شمس بئرا أسماها «الحَفر» حفرها لنفسه وقيل : إنها كانت لبني تيم بن مرة .

- وحفر بنو أسد بن عبد العُزّى «سُقَيَّة»

- وحفر بنو عبد الدار «أم أحراد» .

- وحفر بنو جمح «السُّنبِلة».

- وحفر بنو سهم « الغَمْر ».

وكانت هناك آبار قبلها منها : «رُمّ» ، و «خُم» وغيرهما ..

حتى أعاد عبد المطلب حفر « زمزم» فعفّت على غيرها من الآبار ، لقربها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ماسواها من المياه ، ولتاريخها العبق فهي منسوبة لإسماعيل – عليه السلام – أبي العرب[١٨٤] .

وقد سبق حديثنا عن حفر عبد المطلب بن هاشم لزمزم .

(١٨٤) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

ولكن نخص بالتسجيل هنا ما سبق أن وعدنا بذكره ، وهو قصة «عبد الله الذبيح أبى النبي – ﷺ – فقد كاد عبد الله يذهب ضحية هذه البئر ..

واليكم هذه القصة .. قصة الذبيح

حين كاثرت قريش عبد المطلب، وطمعوا أن يشاركوه زمزم بعد أن حفرها هو وولده الحارث بمفردهما .. وعيروه قلة الولد ، نذر : لئن رزقه الله عشرة من البنين ليقربن واحدا منهم لله ..

لقد هاله أن يتعب هو وولده وحدهما فى الحفر حتى إذا ما لاح الماء أقبل هؤلاء الذين كانوا يسخرون منه يشاركونه فيه .

ولقد كان يهتف من أعماقه وهو يحفر بهذا الرجز الذى ينبىء عن إخلاصه لله ، وصدقه فى سعيه له ..

لا هم قد لبيت من دعانى وجئت سعى المسرع العجلان
ثبت اليقين صادق الإيمان يتبعنى الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بما يعانى لا هم فلتصدق لنا الأمانى
مالى بما لم ترضه يدان[١٨٥]

مالقريش وماله ؟ ولماذا هذا الحسد على ما أفاءه الله عليه من نعمة ؟ وآثره به من قرب ؟

وتمر الأيام ، ويرزق عبد المطلب بعشرة ذكور ، وبلغوا مبلغ الرجال، وكان آخرهم عبد الله ..

وعزم عبد المطلب – غير متردد – على الوفاء بنذره

ولكن أيهم يختار وكلهم عزيز عنده أثير لديه ؟

أقرع بينهم ، جمعهم ذات يوم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء فلم ينكص واحد منهم ، وأجابوه جميعا .. وقالوا : كيف نصنع ؟

---

(١٨٥) على هامش السيرة لطه حسين جـ ١ ص ١٢

قال : ليأخذ كل منكم سهما يكتب عليه اسمه . وأقرع بين السهام . فخرج سهم عبد الله .. وهو آخرهم ولادة فى ذلك الوقت، وأحب الأولاد آخرهم وأصغرهم – كما يقول العرب –

وأعاد القرعة مرتين فخرجت على عبد الله فأقبل ليذبحه ، وامتثل عبد الله لأمر أبيه كما امتثل جده إسماعيل – عليه السلام – منذ قرون لأمر أبيه حين أخبره بأن الله أمره بذبحه ..

وشق على قريش ما عزم عليه عبد المطلب ، فقامت تمنعه ، إنه إن فعل تصبح سنة فى العرب ، ولا قبل لهم بذلك .

وحاكمته قريش إلى كاهنة مشهورة اسمها «قطبة بنت سجاح» كان العرب يلجأون اليها فى شدائدهم.

وتفرست هذه الكاهنة فى عبد الله، وأخبرتهم بأنه سيكون لولد منه شأن وأى شأن...

إذن فقد فتحت باب الأمل فى إنقاذه .. بقولها .. سيكون له ولد .. وإذن فسيحيا ، ويتزوج ، ويولد له .. ومعنى ذلك أنه لن يذبح .

ولكن كيف يكون الطريق لإنقاذه وعبد المطلب مصر على الوفاء بنذره ؟ وإن عبد المطلب ليس بالضعيف الواهن فى إيمانه، ولكنه ذو عزيمة قوية ووفاء نادر .

وحلت لهم الكاهنة هذه المشكلة ..

قالت لهم : كم دية الرجل فيكم ؟

قالوا لها : عشرة من الإبل .

قالت : اقرعوا بين ابنكم وبين عشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة عليه فزيدوا عشرة من الابل ثم اقترعوا ..

وافعلوا ذلك حتى تخرج القرعة على الإبل .

وارتضى عبد المطلب هذا الحل .

وعاد وأقرع بين ابنه وبين عشرة من الابل ، فخرجت القرعة على عبد الله ، فزاد عشرة أخرى وأقرع ، فخرجت على عبد الله ، وما زال عبد المطلب يزيد ويقرع حتى خرجت القرعة على مائة من الابل وأعاد عبد المطلب القرعة ثلاث مرات ليرضى ضميره فخرجت على الابل.

عند ذلك أشرق وجه عبد المطلب وتهلل، وقال : الحمد لله .. إنه لفداء يسير، ما أهون ذلك أمام أن يبقى له عبد الله .. ونحر الإبل ، وأباح لحمها للناس والوحوش والطيور(١٨٦) .

ومن ذلك الوقت أصبحت دية الرجل فى العرب مائة من الابل ، وجاء الإسلام فأقر ذلك فيما أقر من صالح شرائع الجاهلية ومن ذلك الوقت ازداد شأن عبد الله ارتفاعا .. كما ارتفع شأن زمزم التى من أجلها كان نذر عبد المطلب.

قريش تفتخر بزمزم

لقد كان استنباط زمزم بهذه الصورة مفخرة لعبد المطلب ، ثم لبنى هاشم ، ثم لقريش كلها .. بعد أن أقرت لعبد المطلب بالسبق والتفرد ، واعترفت له بالفضل فى إظهارها .

وأصبحت السقاية شرفا يحوزه بنو هاشم ، وقد توارثوه منذ عهد قصى، وقد استعاده قصى بعد أن اختلسه الخزاعيون فترة من الزمن ..

وفى ذلك الشرف يقول بعض شعراء قريش مفتخرا بالسقاية والرفادة :

ورثنا المجد من آبائنا فنما بنا صُعُدا
ألم نسق الحجيج وننحر الدَّلاَّفة الرُّفدا
ونُلقى عند تصريف المنايا شُدَّداً رُفُدا
وزمزم فى أرومتنا ونفقأ عين من حسدا(١٨٧)

(١٨٦) سيرة ابن هشام – على هامش السيرة .

(١٨٧) هذا الشاعر مسافر بن أبى عمرو بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف =

وامتدح الشعراء الهاشميين لأنهم يسروا أمر السقى للحجيج ، وقاموا بهذا الأمر خير قيام باحتفارهم زمزم على يد عبد المطلب .. فقال أحدهم :

وساقى الحجيج ثم للخير هاشم   وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزما عند المقام فأصبحت   سقايته فخرا على كل ذى فخر

أما سقاية عبد المطلب الحجيج فكان أمرها عجبا وأى عجب!
يقولون: كانت له ابل كثيرة– فحين يجيء الموسم يخلط لبنها بالعسل ويجعله فى حوض من أدم عند زمزم ، ويشترى الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحجاج يفعل ذلك لكسر غلظ ماء زمزم ، وكان ماؤها إذ ذاك غليظا ..

وورث السقاية منه ابنه العباس .. وأقره النبى – ﷺ – عليها ، والعباس يلقب بساقى الحرمين .

سقاية زمزم

السقاية : الإناء يسقى به ، ومنه قوله – تعالى – ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أخيه ﴾(188) .

والسقاية : الموضع الذى يتخذ فيه الشراب فى المواسم وغيرها ، ويقال للبيت الذى يتخذ مجمعا للماء ويسقى منه الناس السقاية ..

وسقاية الحاج سقيهم الشراب . وجاء فى القرآن الكريم : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ لاَيَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ﴾(189) .

وكانت السقاية من مآثر قريش فى الجاهلية وظلت لهم فى الاسلام، فقد قال النبى – ﷺ – فى الفتح : كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت ..

= والدلافة : الإبل تمشى متمهلة لسمنها – الرُفد : جمع رفود وهى التى تملأ الرفد وهو القدح الذى يحلب فيه– رفدا– فى البيت الثالث– من الرفد وهو العطاء– الأرومة الأصل – سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٣ .

(١٨٨) يوسف ٧٠
(١٨٩) التوبة ١٩

قال صاحب اللسان : هي ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء(١٩٠) .

وفي عام الفتح تطلع العباس بن عبد المطلب إلى مفتاح الكعبة ، ورغب أن تجتمع له السدانة والسقاية، وكانت في يده السقاية فقط، أما السدانة فكانت في يد عثمان بن طلحة. وأمسك النبي – ﷺ – بمفتاح الكعبة في يده . ثم دفعه إلى عثمان وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(١٩١) قيل إن هذه الآية نزلت يوم ذاك .

وحين حج النبي – ﷺ – حجة الوداع، مضى إلى بئر زمزم ، وكانت السقاية – كما قدمنا – في يد العباس. ودعا بدلو فتوضأ وشرب ، ولم ينزع – ﷺ – الماء بيده لأنه أراد أن يترك الحق لأهله .

وقال في ذلك : انزعوا يا بني عبد المطلب فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم(١٩٢) وأنه ﷺ لصاحب حق في ذلك فهو ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وأثر عنه أنه قال يوم حنين على سبيل إثارة حماس قومه .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب(١٩٣) .

ولكنه أراد ألا يأتي واحد بعد ذلك، فيغتصب هذا الحق من أصحابه وينزع بيده ، قائلا : لقد فعل النبي – ﷺ – ذلك

إن انتزاع الماء وإعطاءه الحجاج شرف يقوم به أهله – فإن العمل في الكعبة – بيت الله – من قبيل الأوسمة على صدور أصحابها ، يتوارثه أهله كابرا عن كابر ..

حتى إن تعمير هذه البئر وتطهيرها وتطويرها كان بيد من إليه السقاية ، لقد كان الناس جميعا يتمنون أن تتاح لهم فرصة الاشتراك في هذا العمل

---

(١٩٠) لسان العرب – مادة سقى (١٩١) النساء ٥٨.

(١٩٢) [illegible] ص ٢٣ (١٩٣) تفسير القرطبي سورة يس عند قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر﴾

الجليل . ولكنهم كانوا ينظرون دائما إلى أنه لا ينبغى أن ينازع الحق أهله ... فإن ذلك شرف خاص بأصحابه ، ونعمة أنعم بها على قوم تقابل بالغبطة لا بالحسد ، وبالشكر لا بالحقد ..

ومن الطرائف التى حدثت قديما ويرويها ابن جبير فى رحلته ما يلى :

« ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف - زاده الله تعظيما وتكريما - ان النفقة فيه ممنوعة - أى على غير القائمين بأمره - لا يجد الموسر إليها سبيلا ، فى تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك، ولو كان الأمر مباحا في ذلك لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عَسْجَدًا[١٩٤] وتربه عنبرا ، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك .

قال : ومن أغرب ما اتفق لواحد من ذوى اليسار أنه وصل إلى الحرم ، فرأى تنور[١٩٥] بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها ، فاجتمع بالقائم بالأمر، وقال: أريد أن أتأنق فى بناء تنور زمزم وطيّه وتجديد قبته، وأبلغ فى ذلك الغاية الممكنة، وأنفق فيه من صميم مالى ، وذلك على شرط فى ذلك التزم به ، وهو أن تجعل من قِبَلك رجلا ثقة يقيد مبلغ النفقة فى ذلك فإذا استوفى البناء التمام ، وانتهت النفقة منتهاها بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لى ذلك .

فوافق القائم بالأمر ، وعلم أن النفقة فى ذلك ستكون طائلة وسيكون له مثلها .

وألزمه شخصا يقيد قليل الإنفاق وكثيره .

وشرع الرجل فى البناء ، واحتفل بذلك احتفالا كبيرا ، واستفرغ غاية جهده ، لا يقصد من وراء ذلك إلا رضاء الله - سبحانه وتعالى - وخدمة حجاج بيته .

---

(١٩٤) العسجد : الذهب .

(١٩٥) التنور : المكان الذى ينفجر فيه الماء او هو موضع إجتماعه .

حتى فرغ البناء على الصفة المطلوبة ، وقد تجددت زمزم ونظفت ظرفها ووسائلها وأوانيها ، وبذل الرجل فى ذلك نفقات واسعة ، وهو جذلان فرح .

وأصبح القائم بالأمر وهو متهيىء لقبض مثل ما أنفق الرجل وفاء للشرط . ولكنه فوجىء بأن الرجل قد أصبح فى ذمة مولاه وفاز بثواب الله(١٩٦) .

لم تكن الأموال قديما ميسورة ، وكانت الموارد محدودة فتيرأ القائمون بالأمر زمزم على الصورة التى وصفها ابن جبير .

أما الآن - والحمد لله - فموارد المملكة واسعة - زادها الله سعة على سعة - ولذلك فقد توسع أولو الأمر فى تعمير المكان وتطويره بصورة ينشرح لها صدر كل مسلم ولا يسعه إلا الدعاء لهؤلاء الذين وفقهم الله لخدمة ضيوف الله ..

ونعود إلى السقاية . كيف كان يقوم بها أربابها قديما ؟

عرفنا أن عبد المطلب كان يسقى الناس اللبن بالعسل ، ويخلط الزبيب بماء زمزم .. وتبعه ابنه العباس فى ذلك . فقد كان للعباس كَرْم بالطائف ، وكان يحمل زبيبه إلى زمزم كل عام فى الموسم ..

وكانت هناك أحواض يصب فيها ماء زمزم .. ستة أحواض . فى كل حوض منها حوض من آدم ينبذ فيه النبيذ للحاج . وقد وصف بعضهم سقاية العباس بعد أن تطورت بعده بفترة طويلة بقوله :

هى بناء مربع أعلاه قبة كبيرة ساترة لجميعه ، وفى أسفل جدرانها ، ما عدا الجنوبى منها - شبابيك من حديد ، وفى جانبها الشمالى من خارجها حوضان من رخام مفردان ، وباب السقاية بينهما ...

---

(١٩٦) رحلة ابن جبير ص ١٠١ ط دار التحرير .

وفى هذا البناء بركة كبيرة تملأ من بئر زمزم ، ويسكب الماء من البئر فى خشبة طويلة على صفة الميزاب متصلة بالجدار الشرقى من حجرة زمزم ...

ولكن هذا المكان ما زال يتطور تعميرا وتجديدا وتزيينا حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من رونق وبهاء وجمال ونظافة .

إن إقبال الناس على زمزم لما يعرفون من فضلها وبركتها، وفى ذلك لاينافسها أى ماء مهما عذب طعمه أو لذ ذوقه ..

آداب حول استعمال ماء زمزم

كيف شرب النبى ﷺ من زمزم ؟

روى الرواة أن النبى - ﷺ - فى حجة الوداع أمر أن يُفيض الناس نهارا ، ثم أفاض هو بنسائه ليلا فجاء فطاف بالبيت على ناقته ، ثم جاء إلى زمزم ، فطلب سَجْلا من ماء ، فشرب منه ثم تمضمض ومجَّ فى الدلو ، وأمر فأفرغ فى البئر ..

وقال قولته التى أشرنا إليها آنفا : يا بنى عبد المطلب انزعوا فلولا ان تغلبوا عليها لنزعت معكم ..

ثم مشى النبى - ﷺ - إلى سقاية النبيذ .. وهى وضع الزبيب فى ماء زمزم ليحلو - ليشرب ، فقال له العباس رضى الله عنه : ان هذا قد ساطته الأيدى وقد أُثقل، وفى البيت شراب صاف، فأبى النبى - ﷺ - أن يشرب إلا منه، فأعاد عليه العباس ثلاثا فأبى[197] .

لقد أراد النبى - ﷺ - أن يشرب مما يشرب منه الناس ، ولا يكون له تميز عنهم .. وهو سيد المتواضعين وقدوة المتقين ..

وقد ذكر العلماء آدابا للشرب من زمزم .. نجملها فيما يلى :

- أن يستقبل الشارب القبلة وهو يشرب ، يعنى لا يعطى ظهره للكعبة أو جنبه ..

---

(١٩٧) زمزم ص ٣٢ وقد نقله الكاتب عن الأزرقى فى اخبار مكة .

● أن يذكر الله – تعالى – أول شربة.

● أن يتنفس ثلاثا فى أثناء شربه ويسمى الله عقب كل نفس .

● أن يتضلع من الماء .

● أن يحمد الله – تعالى – عقب شربه .

● أن يدعو الله – تعالى – بما يشاء من خيرى الدنيا والآخرة ، ويستحب دعاء ابن عباس – رضى الله عنهما – وكان يقول فى دعائه :

« اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء ».

ولا يقتصر على هذا الدعاء بل يزيد عليه بما يحب من الخير ، ويتجنب أى دعاء يكون فيه مأثم أو قطيعة رحم أو ضرر يحيق بأحد .

● وعليه أن يتناول السقاء بيده اليمنى ، ويذكر الحديث المروى عن النبى – ﷺ – قائلا :

اللهم إنه قد بلغنى عن نبيك – ﷺ – أنه قال : «ماء زمزم لما شرب له » اللهم إنى أشرب هذا الماء على نية كذا وكذا . ويتنفس فى أثناء شربه ثلاثا مع ذكر اسم الله فى كل مرة .

وقد مر الأثر الوارد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى ذلك.

اغراض استعمال ماء زمزم :

لقد من الله على الناس بزمزم لتكون لهم خيرا وبركة .. وأهم ما فى ذلك أن تكون سببا فى إمساك الحياة المادية والمعنوية .. فهى للشرب لإمساك الحياة المادية إذ فيها صيانة للشارب من الموت عطشا .. وفى الوقت نفسه طعام طعم وشفاء سقم .. وهى للوضوء لإقامة الصلاة والصلاة عماد الحياة المعنوية. فهى روح الإسلام وأساس الدين .

وقد مر أن النبى – ﷺ – فى حجة الوداع ، حين أفاض دعا بسجل من الماء فشرب منه وتوضأ ..

وقد كره الامام أحمد الوضوء والغسل بماء زمزم

ولكن المشهور عند جمهور الفقهاء جواز الوضوء بلا كراهة لفعل النبى – ﷺ .

ويستند الحنابلة فى عدم جواز الوضوء أو الغسل إلى قول العباس وهو من بيده السقاية : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل[198] والكراهة للوضوء والغسل مبنية على سببين :

أحدهما أن فى ذلك مخالفة لشرط الواقف .

والثانى أن فيه منافاة لتكريم هذا الماء وتعظيمه ..

وكره بعض الأئمة الغسل دون الوضوء وسندهم فى ذلك أن النبى – ﷺ – توضأ، وأن العباس قال لا أحلها لمغتسل ، فكأنه أحلها ضمنا للمتوضىء .

أما إزالة النجاسة بمائها فيحرم . أو يكره على الأقل .

ويرجع سر الكراهة فى إزالة النجاسة به ، لما فيه من الخصوصية التى لا تتوافر فى غيره . ذلك أنه يقوم مقام القوت ، فقد ورد فى الأثر الشريف : إنها طعام طعم وشفاء سقم[199] .

فينسحب على ماء زمزم حكم المطعومات ..

روى سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبى زيد عن ابن عباس ، رضى الله عنهما – أن رجلا من بنى مخزوم اغتسل من ذلك فوجد من ذلك وجدا شديدا – فقال : لا أحلها لمغتسل ، وهى لشارب ومتوضىء حل وبل[200] .

---

(١٩٨) الحل : الحلال ، والبل اتباع لكلمة الحل.

(١٩٩) اعلام الساجد في أحكام المساجد ص ١٣٥.

(٢٠٠) زمزم ص ٣٥

وقد ورد أن الاستنجاء بماء زمزم يورث مرض البواسير[٢٠١] .

وقد ورد عن الشافعي أنه جوز الغسل بل أفتى باستحياب ذلك .

أما غسل الميت بماء زمزم .. فقد أفتى بعض العلماء بمنعه إلا إذا كان بعد الغسل بقصد تطييبه والتبرك به .

وقد ذكر الفاكهي أن أهل مكة يغسلون موتاهم بماء زمزم بعد الفراغ من غسل الميت وتنظيفه تبركا به - وذكر أن أسماء بنت أبي بكر الصديق غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم .

فخلاصة القول في ذلك أن الغرض الأساسي من ماء زمزم الشرب ..

ويجوز الوضوء به على مذهب الجمهور.

ويجوز الغسل منه عند الشافعي .

أما إزالة النجاسة به فممنوعة ..

أما غسل الميت به فجائز بعد الفراغ من غسله بقصد التطييب والتطهر.

نقل ماء زمزم

أما نقل ماء زمزم فجائز على خلاف متعلقات الكعبة الأخرى .. فقد أفتى العلماء - على اختلاف مذاهبهم - بجواز نقل مياه زمزم وغيرها من مياه الحرم إلى جميع البلدان .

وكانت عائشة - رضي الله عنها - تحمل منه ، وتخبر أن رسول الله - ﷺ - كان يحمله[٢٠٢] .

---

(٢٠١) ذكر ذلك الزركشي في اعلام الساجد ص ١١٦ ، وزمزم ص ٣٥ .

(٢٠٢) رواه الترمذي وقال : حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وجاء في شرح المهذب : يستحب نقله للتبرك .

والفرق بين الماء وغيره . أن الماء يتجدد بخلاف الحجارة والتراب مثلا مما يحرم نقله من متعلقات الحرم .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم(٢٠٣) ، واستعجله فى ذلك ، فبعث إلى النبي - ﷺ - براوتين :

وكان النبى ﷺ يصب على المرضى ويسقيهم من الماء الذى كان يحمله معه من زمزم حكى ذلك البيهقى ، فى شعب الايمان والسنن(٢٠٤) .

استمدادات زمزم

من الملاحظات أن زمزم - وهى عين وليست نهرا جاريا - تقوم مقام الأنهار الكبيرة فى كفايتها وإمداداتها ..

وما ذلك إلا لبركة وضعها الله فيها .

وقد ذكرنا آنفا أن الله أخبر عنها على لسان أصفيائه بأنها تسقى الحجيج الأعظم..

وعلى الرغم من كثرة الحجيج عاما بعد عام حتى بلغوا الملايين فإن واحدا منهم لم يشك التقصير ، أو عدم الحصول على حاجته من ماء زمزم فى أى وقت شاء .

وقد فجر الله هذه العين فى مكان لم يعهد فيه ماء من قبل وبين جبال محيطة وصخور متراكمة وفى أرض قاحلة وصفها إبراهيم - عليه السلام - بقوله «وادٍ غير ذى زرع». فكان تفجيرها معجزة .. وبقاؤها نابعة فوارة بالماء إلى ذلك الوقت منذ ما يقرب من أربعين قرنا استمرار لهذه المعجزة ...

---

(٢٠٣) أخرجه الطبراني في مسند رجال ثقات .

(٢٠٤) زمزم طعام طعم ص٣٦ .

وقد كفل الله الأسباب المهيئة لتغذية هذه البئر لتظل كعهدها جارية بالخير وافرة بالعطاء وافية بالغرض الذى فجرها الله من أجله .

وُممدَّات الآبار عادة تغذى من المياه المتواجدة فى باطن الأرض من الأودية ، أو من الشقوق الصخرية نتيجة لعوامل مختلفة .

وهذه المياه تختزن فى باطن الأرض نتيجة أمطار أو سيول والأمطار فى مكة عادة قليلة ، ولكن السيول كثيراً ماتجتاح مكة بين الحين والحين ، وقد تعرض الحرم الشريف لأضرار مختلفة نتيجة هذه السيول. وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن تعميرات الحرم .

وتشير الدلائل إلى أن هناك علاقة ما بين الأمطار والسيول التى تجتاح مكة من حين لآخر وبين بئر زمزم .

فقد أشار الأزرقى فى تاريخ مكة أن زمزم فى سنتى ٢٢٣ هـ - ٢٢٤ هـ قل ماؤها جدا حتى جاء المطر والسيل سنة ٢٢٥ هـ فكثر ماؤها جدا .

وأشار أيضا فى موضع آخر إلى أن زمزم يأتى عليها زمان يكون ماؤها أعذب من النيل والفرات، وقد حدث ذلك سنة ٢٨١ هـ حين أصاب مكة سنة ٢٧٩ هـ أمطار كثيرة حتى سال واديها فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها ، فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبعة أذرع تقريبا، وعذب ماؤها جدا حتى صار أعذب مياه مكة[٢٠٥] .

فقد تأثرت زمزم بالزيادة فى الخبر الأول ، كما تأثرت بالزيادة والعذوبة فى الخبر الثانى .

إلا أن اللافت للنظر أن زمزم مهما بلغ ارتفاع الماء فيها لا تجاوز مجراها ، على الرغم من ارتفاعها فى مقرها وارتفاع الحرم عن بقية مكة ، ويقولون : إنه لو أنها كانت فى بطن الوادى لسال ماؤها على وجه الأرض. وما ذلك إلا لحفظ إلهى لها ، وتقدير ربانى بأن يظل ماء زمزم فى داخل الحرم لا يجاوزه ..

(٢٠٥) زمزم ص ٧٠ ، ص ٧٢.

على أن الأمطار والسيول ليستا هما المصدر الرئيسى لإمداد زمزم بالمياه ..

إن هناك سرا أعظم من ذلك . تدل عليه مشاهدات الخبراء الذين يذكرون أن بئر زمزم تعمل كبئر ارتوازى عندما تهطل الأمطار فقد لاحظ صاحب كتاب «زمزم» سنة ١٣٨٨ هـ حين هطلت أمطار غزيرة وجرت سيول كثيرة اقتحمت الحرم ، أن بئر زمزم كانت تتدفق منها المياه إلى أعلى منطلقة إلى الخارج ، ولم تستقبل شيئا من السيول والأمطار المقتحمة ، حتى كان البسطاء يقولون : إن البئر ينظف نفسه .. والتقط المهندس خرطوما ووضعه وسط البئر فوجد الماء يتدفق من الطرف الآخر مما يدل على أن هناك قوة ضاغطة من أسفل إلى أعلى .. واستخلص من ذلك أن هناك مصدرا مستقلا لإمداد بئر زمزم بالماء يحفظ عليها بقاءها ونظافتها واستمرارها .

لقد أثبت الخبراء أن زمزم تستمد ماءها من صخور قاعية تكونت فى العصور القديمة عبر ثلاث تصدعات صخرية ، تمتد من الكعبة المشرفة والصفا والمروة وتلتقي فى البئر. ويصل الضغط الرأسى للمياه المتدفقة إلى حوالى عشرة أمتار .

ويعلو طبقة الصخر الموجودة طبقة من الرمل الناعم يصل سمكها إلى ١٦ مترا .

علما بأن للمياه الجوفية المتدفقة عبر المواد الغرينية خواص طبيعية وكيمائية تختلف عن مثيلاتها فى زمزم .

مكونات ماء زمزم

نظرا لأهمية ماء زمزم بالنسبة للمسلمين ، وكثرة الأحاديث الواردة فى فضله ، اعتنى كثير من الباحثين بتحليل هذا الماء لمعرفة مكوناته ..

وقد جرت أبحاث مبكرة فى ذلك قبل العصر الحاضر فقد ذكر الاستاذ صالح محمد جمال فى مقدمة كتاب أخبار مكة للأزرقى :

أن ماء زمزم قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك

وحامض الأزوتيك والبوتاس مما يجعله أشبه بالمياه المعدنية » أما فى العهد السعودى فقد ازداد الاهتمام بذلك . وكثرت الأبحاث المستفيضة حول زمزم .

وقد شكلت لجنة مصرية زارت الحجاز عام ١٩٥٣ لتحليل عينات من ماء زمزم وأظهرت نتيجة التحليلات ما يأتى :

التحليل الكيميائى الأيونى لمياه زمزم	جزء فى المليون
قلويات (فى صورة كاك أ ٣)	٢٦٣٫٠٠
كلوريدات كل٣	٧٨٦٫٠٠
العسر الدائم (كاك أ ٣)	١٢٤٠٫٠٠
سلفات (كب أ ٤)	٥٢٨٫٢
كالسيوم (كا)	٤٤٤٫٥
مغنسيوم (م)	١٣٠٫٧
صوديوم (ص)	٥٠١٫٦
بوتاسيوم (بو)	٣٠١٫٠٠
نشادر (ن يد ٣)	١٠٫٠٠
النوشادر العضوى (ن يد ٣)	٠٫٦٦
أوزوتيت (ن أ ٢)	٠٫٥
أوزتات (ن أ ٣)	١٤٤٨٫٠٠
الأوكسجين الممتص من البرمنجات الحمضية فى أربع ساعات	٥٫٠٠
ألومنيوم (فى صورة الومنيوم)	لا يوجد
حديد	٠٫١٥
معادن ثقيلة (نحاس – رصاص – زنك – صفيح)	لا يوجد
فلوريدات (فل)	١٫٥
منجنيز	لا يوجد
سليكا (س أ ٢)	٤٠
تركيز ايون الهيدروجين	٧٫٠٥
مجموع المواد الصلبة الذاتية	٤٥٠٠

لقد كانت خلاصة التقرير بالنسبة للخواص الطبيعة مايأتى :

«الماء بوجه عام نقى الا فى بعض المواد العالقة ، وليس له رائحة ، ولكن مذاقه ملحى قليلا ، بسبب احتوائه على بعض الأملاح»[٢٠٦] .

وقد أجريت تحليلات أخرى بواسطة لجان مختلفة من جهات متعددة وبتكليف من المسئولين بالمملكة السعودية تدل على اهتمام المختصين بأمر هذه البئر التى تمثل موقعا ممتازا فى قلب كل مسلم .

وقد أثبتت التحليلات المختلفة صلاحية هذا الماء صلاحية كاملة للشرب ، وتوافقه مع المعايير التى يجب توافرها فى مياه الشرب ..

وهذه المعايير التى يجب توافرها فى مياه الشرب تتلخص فيما يأتى :-

- من جهة الخواص الطبيعية

يجب توافر عنصر النقاء فى اللون ، مع الخلو من العكارة ، مع ضرورة ان يكون الطعم مقبولا . والرائحة كذلك ..

- من جهة الخواص الكيمائية :

فإنه يجب أن يكون الماء خاليا من المواد السامة القاتلة أو المؤثرة على الصحة ، أو المؤثرة على طعم الماء كزيادة الأملاح ووجود الحديد والمنجيز وإن وجد شىء من ذلك يجب الا يزيد على الحد المقرر الذى يمنع تناوله ..

وقد أثبتت التحليلات التى نعتمد فى إثباتها على كتاب الأستاذ يحيى حمزة كوشك مايأتى :

أ – المواد السامة ب – المواد الكيمائية ذات التأثير على الصحة

المادة	الحد الأقصى	المادة	الحد الأقصى
الرصاص الزرنيخ الكروم (سداسى التكافؤ) الليثيوم السيانيد	٠ر١٠٠ ملليجرام فى اللتر لا يوجد ٠ر٠٥ ملليجرام فى اللتر ٠ر٠٥ ملليجرام فى اللتر ٠ر٠١ ملليجرام فى اللتر	الفلوريدات(فل) النترات (ن)	١ر٥ ملليجرام فى اللتر ١٠ر٠ ملليجرام فى اللتر

(٢٠٦) زمزم ص ١٠٩

ج – المواد الكيماوية التى تؤثر على طعم المياه

المادة	المسموح به	الحد الأقصى
مجموع الأملاح	١٠٠٠	١٢٠٠ ملليجرام فى اللتر
الحديد	٠ر٣	١ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
المنجنيز	٠ر٣	١ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
بشرط ألا تزيد نسبة الحديد والمنجنيز معا عن ١ر٥		
النحاس	١ر٠٠	١ر٥ ملليجرام فى اللتر
الزنك	٥ر٠٠	١٥ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
المغنيسيوم	١٠٠ر٠٠	١٥٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكالسيوم	١٥٠ر٠٠	١٥٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكبريتات (كب أ)	٢٥٠ر٠٠	٥٠٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكلوريدات (كل)	٣٠٠ر٠٠	٦٠٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الفينول	ر٠٠١	٠ر٠٠٢ ملليجرام فى اللتر
الاسر الايدروجينى	٧:٨,٨	٦,٥: ٩ ملليجرام فى اللتر

- **من جهة المواد المشعة**

المادة	الحد الأقصى
المشعات من فصيلة (الفا)	١٠ : ٩ ميكروكيرى فى المليمتر
المشعات من فصيلة (بيتا)	١٠ : ٨ ميكروكيرى فى المليمتر

● من جهة المعايير البكتريولوجية

أ – المياه المعالجة – يجب ألا يزيد العدد الاجمالى للمجموعة القولونية عن واحد فى ١٠٠ ملليمتر .

ب – المياه الجوفية غير المعالجة . يجب ألا يزيد العدد الإجمالى للمجموعة القولونية عن واحد فى ١٠٠ ملليمتر .

وإذا تجاوزت النسبة الحد الأقصى فى جميع الأحوال وجب عرض الأمر على المختصين قبل التصريح باستعمال المياه ..

وبناء على التحليل الذى أجرته اللجنة المصرية والمثبت قبل ذلك يلاحظ الصلاحية الكاملة لمياه زمزم لجميع المواصفات الموافقة للمعايير الواجب توافرها لمياه الشرب .

زمزم عبر الزمان

أعاد عبد المطلب حفر زمزم – كما عرفنا – وكان يسقى الحجيج من مائها منقوعا فيه الزبيب . فى أحواض نصبها حولها ..

وعلى هذا السنن جرى ابنه العباس – رضى الله عنه –
وفى عهد ابنه عبدالله كان لزمزم حوضان .
حوض بينها وبين الركن يشرب منه الناس
وحوض من ورائها للوضوء يخرج منه سرب إلى باب الصفا ..

وكان موضع سقايته التى ينبذ فيها الزبيب بالماء بين الركن وزمزم مما يلى الصفا .

وكان له مجلس فى زاوية زمزم يجلس فيه ، واحتُفظ به بعد حتى أقيمت فوقه قبة ، أقامها سليمان بن عبدالله بن عباس ، وكان الوالى على مكة يومئذ من قبل الأمويين خالدين عبدالله القسرى ..

جدد هذه القبة بعد ذلك المنصور فى خلافته وعمل على زمزم شباكا ، وفرش أرضها بالرخام ..

وكانت البئر مكشوفة إلا من قبة صغيرة فوقها

فلما جاء المعتصم العباسى سقف زمزم كلها بالساج المذهب ، وزينها بالقناديل التى تضاء طول العام ، وكانت قبل ذلك تزين فى الموسم ..

وأقيم حوض كبير ، ذرعه اثنا عشر ذراعا مربعا وفرش بالرخام فى أرضه وحوائطه ..

ويخرج الماء من البئر عبر قناة من الرصاص ..

ومازالت يد التطوير تعمل عملها فى زمزم وغرفتها وأحواضها حتى جاء ابن عبدربه صاحب العقد الفريد فوصفها بقوله :

«زمزم بشرق الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعا ، وهى بئر واسعة تنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب ، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان ...»(٢٠٧) .

وحتى جاء ابن جبير بعد ذلك فوصفها فى رحلته بقوله :

«وقبة زمزم تقابل الركن الأسود ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، ومن ركنها الى مقام ابراهيم عشر خطوات ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر فى وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم ... وباب القبة ناظر إلى الشرق .. وتنور البئر من الرخام وقد ألصق بعضه ببعض وأفرغ فى أثنائه الرصاص ... الخ(٢٠٨) .

أما التقى الفاسى فى كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»

فيصف زمزم بأنها بيت مربع وفى جدرانه تسعة أحواض للماء يملآن من بئر زمزم فيتوضأ الناس منها إلا واحدا منها معطلاً ، وفى الحائط الذى يلى الكعبة شبابيك . وهذا البيت مسقوف بالساج . ماخلا الموضع الذى يحاذى بئر زمزم فعليه شباك خشب(٢٠٩) .

---

(٢٠٧) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٨١ .

(٢٠٨) رحلة ابن جبير ص ٧٦

(٢٠٩) زمزم ص ٣٩

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى أقيم سبيل برسم السلطان الملك المؤيد يشرب منه الناس .

وفى أوائل القرن العاشر أقام السلطان سليم العثمانى دائرا لبيت زمزم مطرزا بالذهب كتب فوقه اسمه ..

ثم جدد بيت زمزم في منتصف القرن العاشر فرخمت أرضه وجعل فوقه سقف بالخشب المزخرف .

وقد تجدد ذلك الدائر في عهد السلطان سليمان العثماني وأعيد تجديده في عهد السلطان عبد الحميد ..

وأقيم فوق البئر شباك من حديد يحول بين الناس والغرق في البئر ، وعلقت به سلاسل . كان لها تأثير فى طعم الماء ، فقلعت بعد ذلك وأبعدت .

وظل الحكام والخلفاء يتناوبون التعمير والتزيين لزمزم وغرفتها وقبتها وشبابيكها .

حتى جاء الملك عبد العزيز آل سعود. فأنشأ سبيلين أحدهما بالجهة الشرقية مما يلى قبة زمزم ، والثانى من الجهة الجنوبية لبيت زمزم ، وجدد عمارة السبيل القديم الذى أقيم في عهد العثمانيين .. وتم ذلك في سنة ١٣٤٥ هـ وسنة ١٣٤٦هـ .

وظل ذلك قائما حتى صدر الأمر الملكي السعودى بتوسعة المطاف وعمارة المسجد الحرام فتم تجديد غرفة زمزم وهدم البناء الذى فوق البئر ، وخفضت فوهتها إلى أسفل المطاف ووسعت الغرفة وأقيمت بها صنابير للشرب ، وأصبحت مساحة مكان الشرب ١٠٠ر٧٤ مترا مربعا خصص منها ٥٤ر٢٧ مترا للرجال والباقى للنساء . ومازالت يد التطوير والتنظيم والتحسين قائمة مستمرة على النحو الذى سنراه بعد .

تطوير زمزم

لقد كانت زمزم بئرا يستخرج الماء منها بواسطة الدلاء ، وتصب فى حوض يستقى منه الناس – على نحو ماعرفنا .

وكان استخراج الماء من البئر خاصا بمن بيده السقاية، وكان سقَى الحجيج من الحياض التى يفرغ فيها الماء قُرْبة يتنافس فيها الناس . ولكن يد التنظيم الحديثة لعبت دوراً هاما فى استخراج الماء وتوزيعه عبر مضخات وأنابيب كفلت للحجاج الحصول عليه بيسر وسهولة وأمان .

ونحن نشاهد الآن هذه الأوانى البرتقالية اللون المتراصة فى صفوف منسقة بين أيدى المصلين تحفظ ماء زمزم المثلج وتقدمه سائغاً للشاربين دون أدنى مشقة .

إن وراء هذا التيسير والتقريب مجهودات رائعة يقوم بها فنيون متخصصون ، ويشرف عليهم مسئولون يقظون

فقد قامت الآلات الحديثة بدورها الرائع فى استخراج الماء ورفعه وتوزيعه وتبريده

وقد ركبت على فوهة البئر مضختان تعملان بقوة الكهرباء ..
إحداهما كبرى قوتها خمسون حصانا وطاقتها الانتاجية ثلاثون مترا مكعبا فى الساعة .
والثانية صغرى وطاقتها الإنتاجية ٢١,٦ مترا مكعبا فى الساعة .. وتضخ الآلتان الماء إلى شتى أنحاء الحرم ..

وأقيمت آلات للتبريد من نفس المياه حتى لايكون الثلج الذى يبرد المياه فى الحرم من ماء غير زمزم

ولقد كان لضخ الماء عن طريق الآلات أثر فى تعذيب ماء زمزم وتحليته .
وإنا لنترك لقلم أحد المسئولين عن هذه العملية التعبير عن ذلك بأسلوبه الشيق وهو المهندس يحيى حمزة كوشك الذى قال – فى كتابه « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » :
« كنت فى العاشرة من عمرى حين كلف والدى من قبل وزارة الأوقاف بعملية إنشاء مظلة على بئر زمزم »

وكان والدى دائم التفكير فى كيفية توصيل مياه زمزم إلى الشاربين بطريقة أكثر نظافة ، فانتهز هذه الفرصة واقترح على وزارة الأوقاف استخراج ماء زمزم من البئر بواسطة المضخات .

ووافقت الوزارة على هذا الاقتراح بشرط ألا تدفع قيمة الآلات إلا بعد تشغيلها ونجاحها .

ووافق الوالد واشترى مضخات غاطسة ، وبدأ فى تركيب إحداها ، وصادف فى ذلك الكثير من العقبات والاعتراضات من الزمازمة وغيرهم ، فقد كان بعض العامة يعتقدون أنه لايمكن استخراج الماء من البئر إلا بواسطة الدلو .

واعترض البعض على أساس أن هذه المضخات سوف تصدر أصواتا مزعجة تقلق المصلين والطائفين حول الكعبة ..

ومع ذلك استمر الوالد فى عملية تركيب المضخة إلى أن تم تركيبها وتشغيلها بنجاح . واستخرج الماء بواسطتها من البئر .. ..

عندئذ كلف الوالد بتركيب مضخة أخرى فى البئر كمضخة احتياطية .

وكان من نتائج تركيب هذه المضخة أن تحسن طعم الماء ، لأن الدلاء كانت تأخذ من المياه الطافية على وجه البئر . بينما كانت المضخات ترفع الماء من عمق أربعة أو خمسة أمتار تحت سطح الماء

.. ..

« ومرت الأيام والسنون ..

ثم تقدمتُ باقتراح تعقيم مياه زمزم بحيث لا تفقد خواصها وطعمها المميز ، مع دراسة تشمل توسعة المطاف ونقل مدخل بئر زمزم إلى خارج محيط دائرة المطاف الجديدة ، وتوزيع مياه زمزم داخل غرفة البئر . وفى أنحاء الحرم بواسطة النوافير الخاصة بالشرب لمنع استخدام هذه المياه فى الاستحمام أو الوضوء بداخل الحرم على أن يتم تعقيم هذه المياه بالأشعة فوق البنفسجية ، وكذلك تبريدها كهربائيا بواسطة التبريد المركزى ، أو وحدات التبريد المستقلة .

كما تم دراسة موضوع توزيع مياه زمزم بالدوارق ، وقدم اقتراح بمنع هذه الدوارق لتجنب التلوث الناتج عن استخدامها ، وعدم رؤية مابداخلها ، وتعبئة مياه زمزم المبردة فى زجاجات من البلاستيك وتوزيعها داخل الحرم باردة نقية سائغة للشاربين .

وقد أوقف استعمال الدلاء فى البئر تماماً ..

وفى عام ١٣٩٩ هـ عندما بدأ العمل فى توسعة المطاف ، كان لابد من نقل مداخل بئر زمزم إلى مكان جديد بعيد عن المطاف ، حتى يتسنى توسعته بالشكل الذى هو عليه الآن ..

« هذا وقد أشرفت على إعداد الدراسات التى قدمها المهندسون الاستشاريون وقمت بمناقشة مشروع تعقيم مياه زمزم بالأشعة فوق البنفسجية وتبريدها وعمل شبكة تعقيم مياه زمزم ومياه الصرف وكذلك أعمال التوسعة للمطاف مع وزارة المالية

ووفق عليه ، وبدىء فى تنفيذه ..

وجرى العمل فى التشطيبات النهائية بما فيها تركيب أجهزة التعقيم والتبريد .. »[٢٠٩]

وقد تم ذلك فعلا .. ولايسع الحجاج من كل مكان إلا أن يشكروا تلك الأيدى والعقول التى أسهمت بنجاح فى إتمام ذلك العمل الجليل .

تعقيم مياه زمزم

لم يكتف المسئولون – كما أشار التقرير السابق – بتيسير تداول المياه المستخرجة من زمزم داخل الحرم ، بل اهتموا بتعقيمها بالأشعة فوق البنفسجية .

ذلك أن كثرة استخدام الدلاء ، واستحمام الحجاج بجوار البئر سابقا ، ثم التحسب من تسرب المياه الجوفية ألزم ضرورة تعقيم المياه للمحافظة على صحة الحجاج ..

---

(٢٠٩) زمزم طعام طعم (المقدمة)

والأشعة فوق البنفسجية طاقة مشعة تنتج من استخدام المياه الزئبقية المنخفضة الضغط والمحمية بأنواع خاصة من الزجاج الذى يسمح للأشعة بالمرور بقوة ٢٥٣٧ A لوحدة الانجستروم

وهذه الأشعة أثبتت فعاليتها فى القضاء على الكائنات الحية الدقيقة وفى عمليات التعقيم الميكروبيولوجي للغازات والسوائل .

وقد اختار المسئولون الأشعة البنفسجية فى تعقيم زمزم لأسباب منها :

● رغبة المسئولين فى عدم إضافة أى كيماويات إلى الماء كما يحدث فى التعقيم الكيماوى

● انخفاض التكاليف بالنسبة لهذه الوسيلة وسهولة استعمالها ، وعدم وجود تأثير لها فى طعم الماء أو لونه أو رائحته . إلى غير ذلك من الأسباب .

وقد قامت المملكة بالفعل باستخدام هذه الأشعة لتعقيم زمزم ومازالت الآلات التى استخدمت لذلك تقوم بهذه المهمة .

عمليات التنظيف

وكان القائمون على أمر زمزم يقومون بتنظيف زمزم بين الحين والحين .. وكانت عمليات التنظيف تتم بواسطة « الجم » فى العصور الأولى .. والجم تكثير المياه بواسطة التعميق والحفر .. فإنه إذا كثر الماء نظف وقد يتم التنظيف بواسطة النزح – ويترتب على ذلك وقف استعمالها وهذا من الصعوبة بمكان .. لأن زمزم ليست كغيرها من الآبار التى يمكن الاستغناء عنها فترة من الزمن . ولكنها ضرورة من ضرورات الحاج ، وقد يشعر كثير من الحجاج بالحرج حين يعودون من رحلتهم دون أن يتذوقوا ماء زمزم ..

أما فى العصر الحاضر فيتم التنظيف بواسطة استعمال الغواصين الماهرين القادرين على استعمال الأجهزة الحديثة . وقد استعانت المملكة بغواصين أحدهما مصرى والآخر باكستانى وقد بذل هذان الغواصان جهوداً جبارة تفوق الخيال فى القيام بمهمتهما . واستخرجا من البئر مخلفات مختلفة . مابين

قطع معدنية وأوان فخارية وجلدية ونحاسية وحبال وأخشاب وأقمشة وأحجار .. وغير ذلك مما يسقط فى الآبار بسبب الزحام أو الإهمال أو السهو .

لقد ظلت عملية التنظيف قائمة يتناوب خلالها الغواصان المصرى والباكستانى عملية الغوص لمدة شهرين تقريباً .

من يوم الأربعاء الموافق ١٩٧٩/٤/١٥ م – ١٣٩٩/٥/٢٨ هـ حتى يوم الأربعاء الموافق ١٩٧٩/٦/٢٠ م – ١٣٩٩/٧/٢٥ هـ

والغواصان هما محمد يونس المصرى ، ومحمد لطيف الباكستانى .. وكان الغوص يتم أربع مرات فى اليوم لكل غواص نوبتان

وقد أصبحت زمزم بعد هذه العملية من التنظيف خالية تماما – وإلى ما شاء الله – من أى أشياء غريبة فى داخلها ..

وقد اكتشف الغواصان فى أثناء نزولهما إلى قاع البئر أن هناك فتحات فى قاع البئر ينساب فيها الماء إلى زمزم تتجه إحداها إلى الكعبة وتتجه الأخرى إلى أجياد وجبل أبى قبيس ..

مما يثبت أن منابع زمزم هبة مباركة من الله – سبحانه وتعالى –

لقد أثبت التاريخ أن هذا البيت بنى على قواعد اختارها الله – سبحانه وتعالى – لمن بناه ، وليست عملية اجتهادية تركت لمخلوق فاختار المكان .. بدليل أن قريشاً حين أرادت أن تجدد البناء لم تستطع هدم القواعد التى بنى عليها ، وكذلك عبدالله بن الزبير لم يستطع أن يزحزح حجراً من مكانه من هذه القواعد . فالبيت بيت الله ، والبناء تم بتوفيق الله ، والأمر بالحج فرض فرضه الله ، والحجاج هم ضيفان الله .. أراد أن يكرمهم بسقى من عنده ، ففجر لهم عيناً من فيض رحمته تجرى منابعها من تحت بيته الكريم وحرمه الآمن فحق لهذه العين أن تكون مهوى الأفئدة ومحط الآمال .. ومحل عناية المسئولين عنها فى كل زمان ..

ولقد ظهر حرص المسئولين على تحقيق آمال الوفود التى لا تنقطع عن

الحج والزيارة ، والتى تصل رحلتها إلى مكة المكرمة برحلة أخرى إلى المدينة المنورة ، تزور مسجد النبى -ﷺ- وتشرف بالسلام عليه والصلاة فى روضته الشريفة ... فكان أن يسرت الحكومة السعودية أمر الحصول على ماء زمزم فى الحرم النبوى ، كما يسرته فى الحرم المكى تماماً ،. وأصبحت الأوانى الجميلة النظيفة التى تمتلىء بمياه زمزم الشهية أمام الزائرين والمصلين والغادين والرائحين فى أبهاء الحرم الشريف النبوى ، قدمته زمزم هدية سائغة للشاربين ، فى تحية متبادلة بين الحرمين ، وشهادة بصلة الرحم الوثيقة بين المقامين .. مقام إبراهيم الخليل ومقام حفيده النبى الوفى الكريم – ﷺ –

وبعد ..

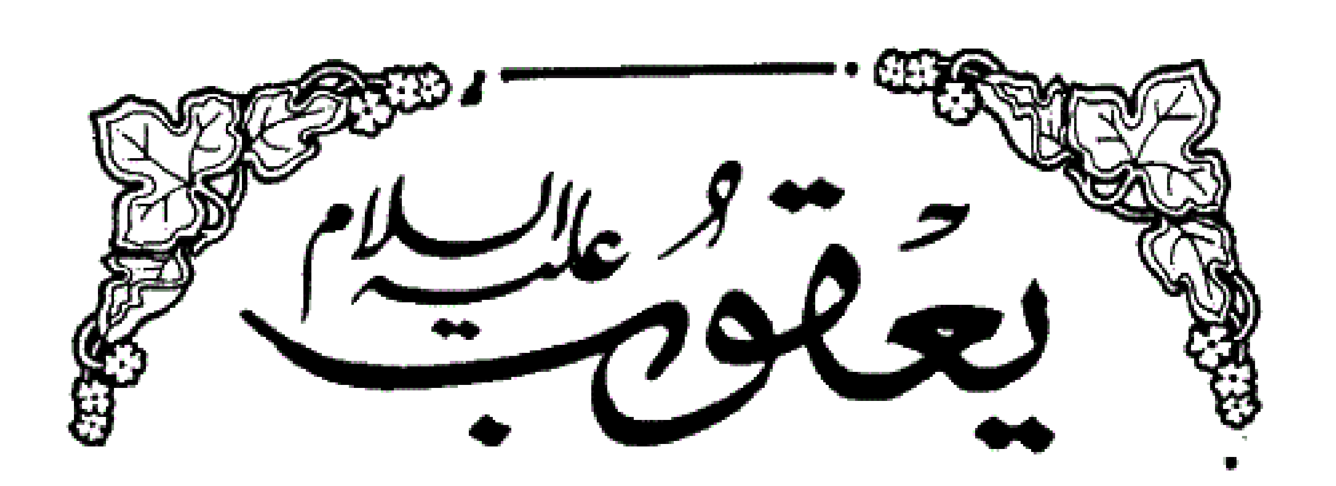
فقد طفنا بعقولنا وقلوبنا حول الكعبة وزمزم فى رحلة قلمية .. لا نزعم أننا وفيناها حقها كما يجب ..

ولقد تجولنا معاً فى رحاب الحرم الآمن .. أول بيت وضع للناس فى الأرض .. حجه فرض ، وتقديسه أمر ، وحبه عبادة ، والنظر إليه تحليق فى ملكوت الله ، والطواف حوله تخلص من قيود المادة وسباحة فى فضاء الروح . لا نزعم – مرة أخرى – أننا وفينا الموضوع حقه ..

بل نشعر أننا مازلنا عاجزين أمام وصف هذا الرحاب الطاهر الكبير الزاخر بالأنس والأمن والسكينة .. والعجز على أى حال سمة الإنسان .. والتقصير دأب المخلوق .. والعى صفة الضعفاء .. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه

ونرجو الله .. أن يغفر الخطأ ، ويتجاوز عن التقصير ، ويجبر العجز والعى .. ويجعل ما كتبناه فى ميزان الحسنات .. وهو نعم المولى ونعم النصير .





- مولد يعقوب
- رحلته إلى العراق
- زواجه من ابنتي خاله
- عودته إلى الشام
- نذره بناء بيت الله
- لقاؤه بأخيه
- أبناؤه
- رسالته
- يعقوب والمحنة الكبرى

مولده :

كانت البشرى بمولد يعقوب مبكرة جدًا ، فقد كانت قبل أن يولد أبوه ..

جاءت الملائكة إلى جده إبراهيم - عليه السلام - فى صورة بشر ، فأمر بذبح عجل لهم ليقريهم به على عادته فى إكرام ضيوفه ، وقرّبه إليهم ، فامتنعوا ، فأوجس منهم خيفة فطمأنوه وبشروه بولد يولد له اسمه إسحاق ، ويولد لهذا الولد غلام اسمه يعقوب .. وهذا ما حكاه القرآن الكريم بقوله :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[1]

وكانت البشارة والتسمية من الله .. وهذا يردُّ على ما ذكر من أنه سمى يعقوب لأنه ولد عقب توأم له اسمه عيصو ..

وهذا الاسم ليس عربيا[2].

وليعقوب اسم آخر هو « إسرائيل » وإليه ينسب بنو إسرائيل . وقد ورد هذا الاسم فى قوله - تعالى - :

---

(١) الآيات من ٦٩ : ٧١ من سورة هود .

(٢) من الطريف أن هناك طائرًا اسمه يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، وهو عربى صحيح يوصف بشدة العدو ، قال الشاعر : « عادى فقصر دونه اليعقوب » وتجمع على : اليعاقيب ، حياة الحيوان جـ ٢ ص ٧١٠ .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[3]

كما ورد في موضع آخر من سورة مريم[4] وإليه ينسب بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في مواضع كثيرة جدًا فى القرآن الكريم .

وكان إسحاق والد يعقوب قد تزوج من ابنة عمه « رفقة بنت بتوئيل أخى إبراهيم » .

وحملت بتوأمين هما عيسو - بالسين أو بالصاد - ويعقوب .. وتذكر دائرة المعارف : أنه حين جاءها المخاض اقتتل التوأمان فى بطنها أيهما ينزل قبل الآخر ؟ فقال عيصو ليعقوب : لئن نزلت قبلى لأعترضن فى بطن أمى فأقتلها . فتأخر يعقوب ، ونزل عيصو أولاً[5].

ومن العجيب أن تنسب دائرة المعارف هذا الخبر إلى الأساطير الإسلامية .

مع أنه لا يوجد ما يسمى أساطير إسلامية أولاً .. وتاريخ الأنبياء فى الإسلام مصدره القرآن الكريم ..

وما ذكره بعض رواة الأخبار في ذلك مستمد من أهل الكتاب وكتبهم ورواتهم ثانيًا ..

بل إن بعضهم يتزيد فيضيف بأن أمهما كانت تسمع تحاورهما وأخبرت أباهما بذلك ، فقال لها : أنبئينى حين تسمعينهما . فأنبأته ، فوضع أذنه

---

(٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .

(٤) فى الآية ٥٨ من سورة مريم .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٢ مادة إسرائيل .

عند بطنها فسمع تهديد عيصو السابق . فقال له إسحاق : يا مبارك ارع حق أمك(٦).

وواضح ما فى هذا الكلام من الغلو فى الخيال .

وقد ناقضت دائرة المعارف نفسها بذلك بعد قليل بقولها : ونجد هذه القصة أيضًا فى كتب اليهود .

أما تسميته « إسرائيل » فقد جاءت متأخرة عن اسمه يعقوب ، وكانت لها مناسبة . ذلك أنه حين خرج من الشام قاصدًا العراق ، كان يسرى فى الليل ويكمن فى النهار فسمى « إسرائيل » لذلك(٧).

ونشأ الولدان فى كنف أبيهما يرعاهما . وأنشأت المصادر الكتابية قصصًا حول علاقة الولدين بأبويهما فقالت : وكان عيصو أثيرًا لدى أبيه ، ويعقوب أثيرًا عند أمه ..

وكبر الولدان معًا ، وشبًا ، وكانا يسعيان فى الحياة .. وتقدمت السن بإسحاق أبيهما ، وكُفَّ بصره ..

وفى يوم قال لابنه عيصو : إئتنى بكبش لأذبحه وأقدمه قربانًا لله وأدعو لك عسى أن تنفعك دعوتى ..

وسمعت الأم ذلك ، فقالت ليعقوب : أسرع وقدم الكبش قبل أن يأتى أخوك ..

وجاء يعقوب لأبيه بالكبش وقد وضع على منكبه ما يشبه الشعر لأن عيصو كان ذا شعر كثيف على منكبيه .

فدعا له إسحاق وهو يظنه عيصو : قائلاً : اللهم اجعل من ذريته الأنبياء والملوك .

---

(٦) بدائع الزهور لابن إياس ص ٨٩ .
(٧) دائرة المعارف الإسلامية .

ولما جاء عيصو بعده ومعه الكبش الذى طلبه . قال له : ألم أدع لك قبل ذلك ؟ فقال عيصو : لا ، ولكنك دعوت لأخى يعقوب .

وغضب عيصو من سبق أخيه يعقوب إلى أبيه وفوزه بالدعوة ، وأخذ يهدده ويتوعده ..

لكن اباه طمأنه ودعا له بتكثير الولد حتى تكون ذريته عدد الرمل والحصى ولا يملكهم أحد غيرهم .. فكان من نسله بنو الأصفر وهم ملوك الفرنجة .

وبقيت فى نفس عيصو غصة من يعقوب .. وهان فى نظره وأخذ يتهدده . وخشيت أمه أن ينفذ عيصو وعيده فى يعقوب ، وهو ولدها الذى تحبه . وأخبرت زوجها إسحاق بمخاوفها .. فطلب من يعقوب أو طلبت هى منه أن يرحل إلى « فدان آرام » فى العراق ، حيث يقيم خاله لابان .. ويمكث عنده فترة من الوقت حتى تنجلى غمرة الغضب بينه وبين أخيه ، ويعود الصفاء بينهما كما كان .. وقالت له أمه : ولعله يزوجك من إحدى بناته .

ونفذ يعقوب وصية والده فى الحال ..

ويمم وجهه شطر العراق . يخترق الصحراء ويطوى البيداء ..

يسرى بالليل ويستريح بالنهار .. وطالت به شقة السفر حتى خامره اليأس ، وهو وحده فى هذه الفيافى الواسعة التى لا أنيس فيها ولا سمير ..

وفى يوم اشتد به الضيق وانتابته الوساوس ، وغلب عليه التعب ، وهم بأن يكر راجعًا من حيث أتى ، وجلس تحت صخرة يستريح وهو يقاوم هذه الأحاسيس ، وغلبه النوم فنام ، فرأى فى نومه ما يفتح أمامه طريق الأمل ، ويبشره بأن الله يدخر له فى مستقبله أيامًا سعيدة ، وثروة سخية من الأولاد فيهم النبوة والكتاب ..

فقام من نومه فرحًا مسرورًا ، وتبدد ما فى نفسه من بأس ، وتبخر ما كان يحس به من تعب .. وسار فى طريقه لا يلوى على شىء .. حتى وصل إلى العراق .

وسأل عن المكان الذى يقيم فيه خاله « لابان بن بتويل » فدلوه عليه ، ورأى فتاة تسوق أمامها أغنامًا ، قالوا له : إنها ابنته ، فتقدم إليها وعرفها بنفسه ، فأحسنت لقاءه واصطحبته إلى أبيها الذى تلقاه أحسن لقاء ، ورحب به ترحيبًا بالغًا .. وأفسح له مكانًا فى قلبه وبيته .. وزجد يعقوب فى ظل هذا البيت الكريم أمنًا وسلامة .. وأملاً ..

لقد أعجب بـ « راحيل » تلك الفتاة التى اصطحبته إلى الدار وأنس إليها وتمنى لو كان خاله يقبله زوجًا لها ..

وفاتح خاله فى هذا الأمر ، وخطبها إليه ..

فرحب به خاله .. وقال له : مرحبًا بك يا بن الأخت ، ولكن لابد لكل زواج من مهر ، وأنت فقير لا مال لك ..

فليكن مهر زواجك أن تعمل عندى سبع سنوات .. ترعى لى الأغنام ..

فوافق يعقوب على الفور .. وشمر عن ساعد الجد .. وأقبل على عمله فى الرعى فى نشاط .. حتى انطوت صفحة السنوات السبع ، وانتظر من خاله الوفاء بالوعد .

ولم يخل خاله بالوعد ولكنه قال ليعقوب إنه سيزف إليه ابنته الكبرى « ليًا » ورفض أن يزف إليه « راحيل » التى علقها قلبه واستأنسها فؤاده .

فقال لخاله : يا خالى أنا لم أخطب إليك « ليًا » بل خطبت إليك « راحيل » .

فرد عليه « لابان » قائلاً :

أجل يا ابن أختى ، ولكن شريعتنا وتقاليدنا تأبى أن تُزَوِّجَ الصغرى قبل الكبرى .. وأنا على وعدى لك بالنسبة لراحيل بشرط أن تخدمنى سبع سنين أخرى ..

فوافق يعقوب على ذلك ، واستمر يعمل عند خاله سبع سنوات ، انتهت بزفافه أيضًا إلى « راحيل » .

وبذلك تزوج الأختين معًا . وكان ذلك جائزًا فى الشرائع الأولى . ولم تبطله إلا شريعة موسى فى التوراة التى أنزلت عليه بعد ذلك بقرون .

وكان لابان قد أهدى لكل بنت جارية ..

وهب « ليًا » جارية اسمها « زلفا » ..
ووهب « راحيل » جارية اسمها « بَلْها » ..

فأهدت كلتا الزوجتين جاريتها ليعقوب ..

فأصبح ليعقوب زوجتان وجاريتان .. وكل منهن أنجبت .. وهؤلاء الأبناء هم الذين يطلق عليهم الأسباط وهم :

روبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون وهؤلاء من « ليًا » .

ويوسف ، وبنيامين وهذان من « راحيل » .

ودان ، ونفتالى ، وهذان من « بلهة » جارية « راحيل » .

وجاد ، وأشير ، وهذان من « زلفا » جارية « ليًا » .

وقد وُلد هؤلاء جميعًا فى « فدان آرام » بالعراق .. ما عدا بنيامين ، فقد ولد فى الشام عقب عودة يعقوب[8].

ولا اعتراض على رحلة يعقوب إلى العراق .. فهى حقيقة تاريخية . وربما كانت لازمة من لوازم النبوة ، فمن دأب الأنبياء الهجرة .. وجد يعقوب « إبراهيم » – عليه السلام – هو الذى يقول – فيما يحكيه القرآن الكريم – : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[9] وقال : ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[10].

---

(٨) قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٧١ نقلاً عن البداية والنهاية لابن الأثير .
(٩) الآية ٩٩ من سورة الصافات . (١٠) الآية ٢٦ من سورة العنكبوت .

إن الرحلات توسع المدارك ، وتعود الصبر ، وتعين على التفكر والتأمل ، وتربى القدرة على تحمل الأعباء والصعاب . إنها مدرسة أخرى يتلقى فيها الإنسان كثيرًا من دروس الحياة الضرورية والعملية ..

وقد قام النبى - ﷺ - بكثير من الرحلات قبل البعثة ثم كانت رحلته الكبرى بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد ذلك ..

ولكن الاعتراض على الطريقة الانتهازية التى تصور يعقوب فى صورة المختلس للنبوة ..

فقد صورته هذه الأسطورة فى أنه تزيّى بزى أخيه وانتحل شخصيته ، حتى جعل إسحاق يقول : الجسم جسم عيصو والريح ريح يعقوب .. وما هكذا تكون أخلاق الأنبياء ..

ثم إن النبوة ليست سلعة يوزعها الناس كما يشاءون ويتنازعونها فيما بينهم ، ولكنها هبة إلهية يضعها الله حيث شاء والله أعلم حيث يجعل رسالته ..

لقد رفع القرآن الكريم منزلة يعقوب ، وأعطاه حقه الذى ينبغى له . وذكره فى مواضع متفرقة فيها ذكر جميل وثناء عاطر .. وتبين أن النبوة والرسالة التى بدأت بإبراهيم - عليه السلام - قد حفظها الله فى اسحاق ويعقوب ..

وإن أعلم الناس بذلك إسحاق ، وهو نبى يوحى إليه ، فليس من المعقول أن يختار على الله ، ويخص عيصو بالنبوة دون يعقوب . حتى يلجئه إلى هذه الحيلة التى انتزع بها دعوته لتكون النبوة فيه .

ما أروع القرآن فى قصصه ، وما أصدقه من بيان يُنزل الأنبياء منازلهم ، ويرفع من شأنهم وينزه أقدارهم عن النقائص التى تكون فى أراذل الناس ..

لقد ورد اسم يعقوب فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعًا ، موزعة على عشر سور[11]، كما ورد اسم « إسرائيل » مرتين واحدة فى سورة

---

(١١) هى سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، الأنعام ، هود ، يوسف ، مريم ، الأنبياء ، العنكبوت ، ص .

آل عمران ، فى الآية التى ذكرناها آنفًا .. ومرة في سورة مريم[١٢].. أما بنو إسرائيل فقد ورد ذكرهم فى مواضع كثيرة ..

لقد بشر الله إبراهيم - عليه السلام - بنبوة يعقوب قبل أن يولد أبوه إسحاق . ومعنى ذلك أن يعقوب مكتوب فى الأنبياء أزلاً ، فليس لإسحاق أن يغير ما كتبه الله .. وليس هو بالجاهل الذى يفعل ذلك ، ولكنه نبى يوحى إليه .. فما أقبح الافتراء على مقام الأنبياء - عليهم السلام - .

يعقوب وتحريم الطعام :

ذكر الرواة أن يعقوب - عليه السلام - كان قد أصيب بمرض - عرق النَّسا - فنذر إن شفاه الله من هذا المرض ألا يأكل كل ما فيه عرق ، فشُفى فحرم لحوم الإبل وألبانها ..

فلما رآه قومه لا يأكلها حرموها على أنفسهم .. وفى ذلك يقول الله - تعالى - :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[١٣]

لقد كان تحريم يعقوب الطعام على نفسه باجتهادٍ منه - كما يقول القرطبى -[١٤] وليس تحريمًا من الله . وذلك ما يقوله ابن عباس - رضى الله عنهما - :

---

(١٢) هى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴾ الآية ٥٨ من سورة مريم .
(١٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .
(١٤) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٣٥ ط دار الكتب .

لما أصاب يعقوب – عليه السلام – عرق النَّسا[١٥] وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل ، فحرمها على نفسه ، فقالت اليهود – بعد ذلك – : إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرمها وأنزل تحريمها فى التوراة ، فأنزل الله هذه الآية يكذبهم ويرد عليهم : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فلم يأتوا بذلك .. فقال الله عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[١٦].

وربما نزل تحريم ذلك بعدُ ، بسبب ظلمهم وبغيهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[١٧] ولقوله تعالى :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١٨]

ويبدو أن هاتين الآيتين نزلتا أولاً ، فحين ذاع خبرهما بين اليهود ، وعرفوا أن تحريم ما حرم عليهم كان بسبب ظلمهم وبغيهم تغيظوا وزعموا أن ما حرم عليهم كان محرمًا عليهم فى القديم ، على نوح ومن بعده من الأنبياء إلى أن انتهى التحريم إليهم ، هادفين من وراء ذلك إلى تكذيب النبى – ﷺ – فيما أخبر به وأنزل عليه ، فبين الله لهم أن كل الأطعمة كانت حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه . ونزلت الآية التى توضح ذلك . وحين تحداهم بقراءة التوراة لبيان ما فيها من أحكام التحريم عجزوا عن ذلك[١٩] ..

---

(١٥) النَّسا – بفتح النون – والقصر: عرق يخرج من الورك يستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر . يسبب العرج ويعوق المشى .

(١٦) آل عمران ٩٤ . (١٧) النساء ١٦٠ . (١٨) الأنعام ١٤٧ .

(١٩) راجع تعليق على مادة إسرائيل – دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٣ لمحمد عرفة .

أما الظلم الذى استدعى تحريم ما حرم على اليهود فهو ما أشار إليه الحق - سبحانه - فى قوله - تعالى - :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[٢٠]

كل هذه ألوان من الظلم يضاف إليها الصد عن سبيل الله وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وهو ما أشارت إليه الآيتان التاليتان :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٢١]

قصة فى سبب مرض يعقوب :

ويقص الإخباريون قصة فى سبب مرض يعقوب - عليه السلام - بمرض « عرق النّسا » ويسندونها إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - وبعض الأئمة ، فيقولون :

---

(٢٠) الآيات من ١٥٥ : ١٥٩ من سورة النساء .

(٢١) الآيتان ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء .

أقبل يعقوب - عليه السلام - من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو ، وكان رجلاً بطِشًا قويًا ، فلقيه ملك ، فظن يعقوب أنه لص ، فعاجله أن يصرعه ، فغمز المَلَك فخذ يعقوب - عليه السلام - ثم صعد الملك إلى السماء ، ويعقوب ينظر إليه ، فهاج عليه عرق النسا ، ولقى من ذلك بلاء شديدًا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ، ويبيت وله صياح ، فحلف يعقوب - عليه السلام - إن شفاه الله - عز وجل - ألاّ يأكل عرقًا ولا يأكل طعامًا فيه عرق ، فحرمها على نفسه .. وكان سبب غمز الملك فخذه أنه كان قد نذر إن وهب الله له اثنى عشر ولدً ، وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم ، فكان ذلك للخروج من نذره[٢٢].

وهو خبر من الأخبار الإسرائيلية تعوزه المنطقية . فإن بيت المقدس لم يكن قد بني بعد ، والذى بناه هو يعقوب نفسه بعد أن أثرى ، وفاء لنذر كان قد نذره لله ، وبناه بعد عودته من « فدان آرام » وقد انتعشت حالته الاقتصادية ، وأصبح له ولد كثير . ثم إن ولده الثانى عشر لم يولد إلا بعد رجوعه إلى الشام .

والمَلَك وإن صح أن يظهر فى صورة رجل أحيانًا إلا أنه لا يكون فى صورة منفرة تثير الخوف منه والتصارع معه . إنه يكون مبعث رحمة واطمئنان لمن يراه ..

إنه خبر يدعو للالتفات ويستوقف الذهن ويستحق المناقشة ..

عودة مظفرة :

أقام يعقوب عند خاله لابان عشرين سنة كاملة .. ثم استأذن خاله فى العودة إلى موطنه ..

فقال له خاله : لقد بارك الله فى مالى بسببك فخذ منه ما شئت ، وزوَّده بشاء وأبقار وإبل ..

---

(٢٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٣٤ ط دار الكتب.

وهنا تتدخل الأساطير مرة أخرى فتصور يعقوب النبى – عليه السلام – فى صورة المحتال المستغل الطامع فيما ليس له ..

قالوا : إنه طلب من خاله أن يعطيه من كل حمل يولد فى هذه السنة كل ما هو أبقع من الغنم ، وكل ما هو أجلح أبيض من المعز ، وكل ما هو أملح ببياض .. ووافق خاله على ذلك .

فعمد بنو خاله فغيّبوا من ذكور الماشية ما كان على هذه الصفة حتى لا يأتى نتاجٌ يشبهها .

ولكن يعقوب أتى بقضبان رطبة بيض من لوز ولُب فقشرها بُلْقًا ونصبها فى المساقى لتنظر الغنم إليها فيأتى نتاجها مشابهًا لها ..

فكان النتاج أغلبه فى هذا العام وفق ما اشترطه على خاله ، فاحتمله يعقوب وسار به قبل أن يستأذن خاله(٢٣)..

فهل يتناسب هذا مع أخلاق الأنبياء ؟

لقد شوّه هؤلاء القوم سيرة من جعلهم الله قدوة للبشر ، وخلعوا عليهم صفاتهم التى جاء هؤلاء الرسل ليقوموها ..

فهذه إضافات مكذوبة على نبى الله يعقوب .. والأشبه بمقامه – عليه السلام – أن يكون رحيله من عند خاله طبيعيًا ، ومن المحتمل أن يكون خاله زوده ببعض الهدايا التى تعينه على مواجهة الحياة فى رحلته وفى موطنه الجديد ، وليس ببعيد أن يكون قد زوده أيضًا بهدايا أخرى لأخيه عيصو ، تأليفًا لقلبه وتأنيسًا لخاطره ..

فهذا ما يقبله العقل ويطمئن إليه القلب ..

واستقبله أخوه عيصو استقبالاً حسنًا .. لقد كانت هذه السنون كافية لغسل أوضار القلوب ، وتصفية أحقاد النفوس .

---

(٢٣) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٢٥ ط الأنوار المحمدية . والأبقع : ما خالط لونه لون آخر . والأملح : ما خالط بياضه سواد . والأجلح : الحيوان الذى لا قرن له .

وعكف يعقوب على تبليغ دعوة أبيه وجده ، فرسالته استمرار لرسالتهما ، وقد قرر ذلك القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٢٤]

يعقوب يبني بيت المقدس :

سئل النبى – ﷺ – عن أول بيت وضع للناس فقال : البيت الحرام ، ثم قيل له : وأى بيت بعد ذلك ؟ فقال : المسجد الأقصى بينهما أربعون سنة[٢٥].

ومفهوم ذلك أن إبرهيم – عليه السلام – أعاد بناء البيت الحرام بمكة ، وجاء بعده حفيده يعقوب – عليه السلام – فبنى بيت المقدس بإيليا .

وكان يعقوب فى أثناء رحلته إلى خاله لابان ، قد استراح فى الطريق فى ظل صخرة فغلبه النوم ، فرأى فى نومه بشرى بنبوته التى تشرق هذه الأرض بها .. فلما استيقظ استبشر وابتهج ، وتبدد اليأس الذى خامره ، وذهب من نفسه الضيق الذى ألم به . ونذر أن يبنى لله فى هذا المكان مسجدًا يعبد الله فيه ..

---

(٢٤) الآيات ١٣٠ : ١٣٢ من سورة البقرة .

(٢٥) روى في الصحيحين عن أبي ذر ولفظه : سألت رسول الله – ﷺ – عن أول مسجد وضع على الأرض فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عامًا . أعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٢٩ .

فلما أكرمه الله في العراق ، وعاد من عند خاله بعد غياب استمر عشرين عامًا ، وقد تبدلت حاله ، وكثر ماله ، ذهب إلى أورشليم حيث يوجد المكان الذى نام فيه ورأى رؤياه ، وكان قد وضع عليه علامة ظلت قائمة ، وبنى مذبحًا وأطلق عليه « بيت إيل » أى إله إسرائيل .

وهذا البيت هو الذى جدده وعمره بعد ذلك بقرون سليمان بن داود – عليهما السلام – .

وبيت المقدس هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى رسول الله – ﷺ – النازل فى حقه قوله – تعالى – :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[26]

وهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال .

والصلاة فيه كألف صلاة فى غيره ما عدا المسجد الحرام والمسجد النبوى .. وفى حديث مروى عن أنس أن الصلاة فيه تعدل خمسين ألف صلاة[27].

أهل الكتاب يتنازعون نسبة يعقوب إليهم :

لقد كانت شريعة يعقوب – عليه السلام – امتدادًا لشريعة أبيه وجده – عليهما السلام – وهي الحنيفية السمحاء ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾[28].

وهذه الشريعة هى التي بُعث النبى – ﷺ – لإحيائها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾[29].

---

(٢٦) الآية رقم ١ من سورة الإسراء .

(٢٧) رواه ابن ماجه فى سننه ٤٥٣ / ١ – أعلام الساجد ص ٢٨٧ .

(٢٨) الآية ٦٧ من سورة آل عمران . (٢٩) الآية ١٣٣ من سورة النحل .

ولكن اليهود والنصارى يزعمون أن كلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب يدينون بدياناتهم التي يدينون بها اليوم على مافيها من تغيير وتبديل .. وكانوا يقولون للمسلمين - فيما يحكيه القرآن الكريم - : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ .

ولكن القرآن يرد عليهم بقوله :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٣٠]

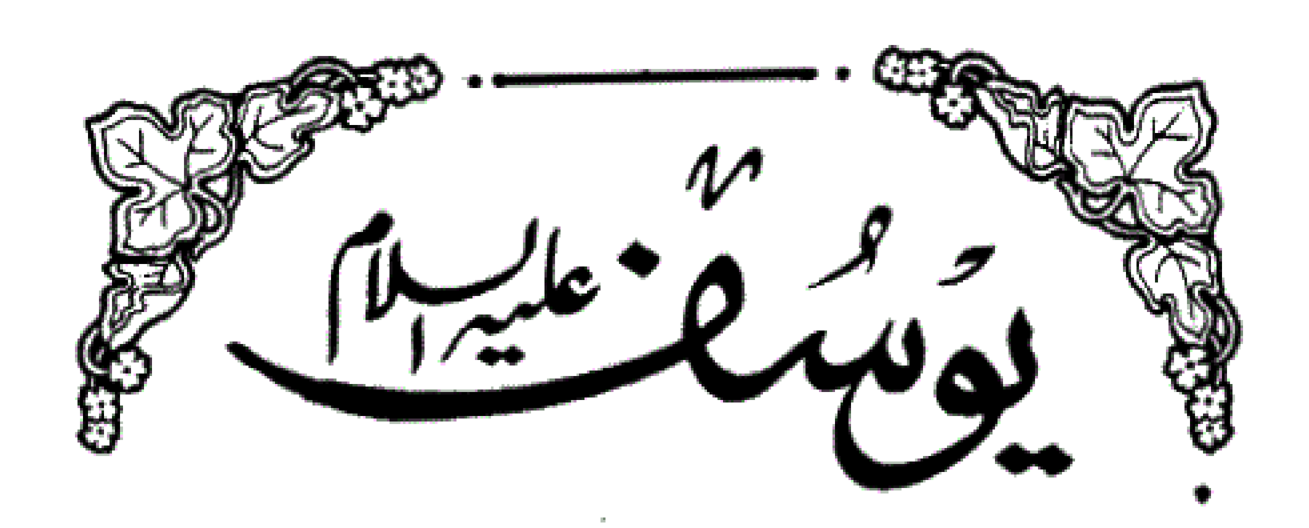
إن الدين الحق هو الإسلام وهو الذى جاء به الأنبياء والمرسلون من لدن آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - والدين الحق براء مما أدخله أتباع الرسل من إضافات وتغييرات هم يحاسبون عليها يوم القيامة .. وهذا الدين الحق الذى هو الإسلام شريعة الله الأزلية والأبدية هو الذى أوصى يعقوب - عليه السلام - أبناءه باتباعه .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٣١]

---

(٣٠) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة البقرة .

(٣١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .



* مولد يوسف
* رؤيا يوسف
* يوسف في الجبّ
* في بيت العزيز
* في السجن
* على عرش مصر
* يوسف واخوته
* يعقوب في مصر
* وفاة يعقوب في مصر
* وفاة يوسف

يوسف عليه السلام

كان مولد يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – منحة لأبيه ومحنة فى الوقت نفسه ..

أما كونه منحة ، فهو نبى ، وقد وهبه الله شطر الحسن ، ورزقه من الحكمة وحسن التدبير وبعد النظر والاستقامة والسداد فى الأمر ما أنزل فى شأنه سورة كاملة وصفها الله – جل شأنه – بأنها من أحسن القصص ..

وقد وصفه النبى – ﷺ – بأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. إنه نبى من سلالة أنبياء فلم لا يكون كذلك ؟

وأما كونه محنة لأبيه ، فقد ابتلى أبوه بحبه وابتلى بفقده ..

كان أحب أبنائه إليه وأقربهم إلى قلبه ، لا يكاد يصبر على فراقه لحظة ، حتى أثار ذلك دوافع الحسد والحقد عند إخوته فأتمروا عليه ، وغيبوه عن والده الذى ظل يبكى على فراقه حتى فقد من كثرة البكاء نور عينيه .. وتواصلت أحزان يعقوب على ابنه حتى اجتمع الشمل بعد كروب وخطوب ، وعادت الفرحة مرة أخرى إلى النفوس والقلوب .. أما كيف حدث ذلك ؟ فهو ما ستعرضه التفاصيل ..

مولد يوسف :

ولد يوسف فى « فدان آرام » حيث كان يعقوب يقيم فى ظل خاله لابان .. ويوسف هو ثمرة زواجه من راحيل ، تلك الفتاة التى علق بقلبه

حبها حين رآها أول ما رآها فى قرية خاله ، واقتادته إلى أبيها ، وقد شعر بالأنس كله فى صحبتها ، ونسى كل آلام رحلته المضنية من حران إلى العراق وحيدًا طريدًا يقاسى هجير الصحراء وظمأ البيداء .. وخطبها إلى أبيها ، وصبر أربعة عشر عامًا حتى زفت إليه .. لقد كانت صغرى بنتى خاله .. ولم ينسه زواجه من الكبرى حبه وتشوقه إلى الصغرى ..

ولم تنجب راحيل فور زواجها من يعقوب ، فقد شكت العقم فترة ، حتى ابتهلت إلى الله أن يهبها من زوجها ولدًا تسعد به ، كما أنجبت أختها منه .. فمن الله عليها بغلام جميل الطلعة مشرق الجبين .. سمته يوسف ..

ثم أنجبت راحيل - بعد عودتها - إلى الشام ولدًا آخر اسمه بنيامين ماتت إثر وضعه ..

وتركت بعد موتها لزوجها ذكراها فى هذين الولدين اللذين أحبهما حبًا شديدًا.

وامتاز يوسف - عليه السلام - منذ نشأته بحسن الخلق وهدوء الطبع ، إلى جانب جمال الصورة وبهاء الطلعة ، فآثره أبوه بمزيد حبه ، وخصه بكثير من عطفه وإقباله ..

والحب قدر من الأقدار لا يملك له الإنسان دفعًا ولا يستطيع أحد مغالبته .

والأب مفطور على حب أبنائه جميعًا ، ولكن الحب قد يتفاوت لسبب يعلمه الله ، وقد يكون مرده إلى النجابة ، وقد يكون مرده إلى اليتم ، إلا أن التفاوت فى الحب لا يقتضى - عند من عصمه الله - الجور فى العطاء أو التفرقة فى أمور الحياة ..

وقد ورد عن النبى - ﷺ - قوله : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »[٣٢].

---

(٣٢) روته عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - يقسم فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمى .. الخ . والحديث فى صحيح الترمذى جـ ١ ص ٢١٣ ، وفى سنن =

لقد علمنا النبى – ﷺ – أن القلوب بيد الله وكان من دعائه : « اللهم إن قلوبنا وجوارحنا بيدك لم تملكنا منها شيئًا فإذا فعلت ذلك بها فكن أنت وليها »[٣٣].

يوسف يقص رؤياه على أبيه :

ولقد ظهرت إرهاصات النبوة عند يوسف مبكرة ..

ظهرت فى صورة الرؤى التى كان يراها فتصدقها الوقائع والأيام .. وربما كان هذا من أسباب حسد إخوته له إلى جانب إيثار أبيه إياه ..

وقد ورد فى حق الرؤيا أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ورد فيها أنها من علامات الوحى ..

وقد رأى يوسف رؤيا عجيبة قصها على أبيه . وذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣٤]

لقد رأى يوسف هذه الرؤيا قبل أن يحتلم ، وقد قصها على أبيه كما حكى القرآن .. وقد فهم أبوه تأويلها ، وعرف أن الكواكب رمز إلى إخوته وهم أحد عشر ولدًا ، سبق أن ذكرنا أسماءهم ، وأن الشمس رمز لأبيه ، والقمر

= النسائى بلفظ : كان رسول الله – ﷺ – يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا فعلى فيما أملك .. الخ . راجع جمع الجوامع جـ ١ ص ٣٧٢١ حديث رقم ٦٩٠/ ٩٩٤١ .

(٣٣) الحديث فى الجامع الصغير برقم ١٥١٢ . وفى جمع الجوامع برقم ٧٢١ / ٩٩٧٤ ط مجمع البحوث .

(٣٤) الآيات من ٤ : ٦ من سورة يوسف .

رمز لأمه .. والأم هنا هى خالته التى كفلته بعد وفاة أمه ، وهى أم بعض إخوته ..

وقد عرف الأب أن هذه الرؤيا ستكون سببًا لمتاعب يوسف ، فطلب منه كتمانها وألا يخبر إخوته بها .

ولكن خالته سمعت الرؤيا ، فأفضت بها إلى بعض أبنائها ، فأخبروا بها الباقين ..

وكان الحسد كامنًا فى نفوسهم ، فأوجدت الرؤيا الفرصة لاستعلان هذا الحسد .. والحسد داء قديم قدم الانسان ..

ظهر أولاً فى إبليس لآدم .. وظهر بعد ذلك عند قابيل لهابيل ..

ثم توارثه أبناء آدم كابرًا عن كابر .. فلم ينج منه أبناء الأنبياء ..

فهؤلاء ورثة النبوة يحقدون على يوسف أن أحبه أبوه أكثر منهم ، وحسدوه أن وهبه الله رؤيا حسنة يفضى تأويلها إلى أنه سيكون مميزًا عنهم ..

وما زالت هذه الوساوس تعتمل فى نفوسهم ، وتشتعل فى صدورهم حتى أجمعوا على تبييت الشر له والتخلص منه ..

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا :

اجتمع الإخوة الأحد عشر .. وتشاوروا فيما بينهم .. كيف يتخلصون من يوسف ؟ إنه عقبة فى طريق حب أبيهم لهم .. لقد زعموا أن يوسف قد استولى على قلب أبيهم تمامًا فلم يعد فيه مكان خال لهم ..

إنه الحسد الذى صور لهم هذه الأوهام ، وحجب عن عيونهم رؤية أبيهم على حقيقته ، نسوا أن أباهم نبى يوحى إليه ، وأن من خصائص الأنبياء العصمة ، فلا ظلم منه واقع عليهم .. ولكنه الحسد .. ذلك الداء الدفين

الذى طلب الله من البشر أن يستعيذوا من شره وشر صاحبه .. ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[٣٥].

وكان محور نقاشهم هو ما قصه القرآن الكريم علينا بقوله :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[٣٦]

لقد ألقت الآيات الضوء على سبب الحقد على يوسف – إنه الإيثار بالحب الزائد .. ومع ذلك فلم ينف الإخوة حب أبيهم لهم .. فقد قالوا : يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا .. وأفعل التفضيل يقتضى المشاركة .

إنه الحقد المتأجج إذن ، فهم يريدون أن يبقى وجه أبيهم لصالحهم فقط ، وأن يكون حبه مقصورًا عليهم لا يشاركهم فيه يوسف وأخوه ..

أما تفكيرهم فى التخلص من يوسف وحده ، فمرجعه إلى صغر بنيامين .. وربما يريدون أن يكون التخلص على مراحل يبدأون أولاً بيوسف ، ثم يأتى دور بنيامين بعد ..

وربما لم يكن بنيامين فى نباهة شأن يوسف ، أو لم تكن له منزلة يوسف عند أبيه ..

وعلى كل فليس ذلك تفكير الأسوياء من الناس ولو كانوا من سلالة أنبياء .

ولذلك فنحن نستبعد أن يكون هؤلاء أنبياء كما رأى البعض استنادًا إلى أنهم الأسباط الوارد ذكرهم فى القرآن الكريم ..

---

(٣٥) سورة الفلق.   (٣٦) الآيات ٨ : ١٠ من سورة يوسف.

وليس أدل على ذلك من وصفهم أباهم بأنه فى ضلال مبين .. وبأنهم فكروا فى ارتكاب جريمة بشعة هى القتل . ومن الذى سيقتل ؟ إنه أخوهم ..

لقد أجمعوا رأيهم على التخلص من يوسف .. ولكن اختلف رأيهم فى طريقة التخلص ..

فمنهم من رأى أن يكون التخلص بالقتل ..

ومنهم من رأى طرحه فى فلاة واسعة تفترسه الذئاب أو الوحوش ..

ولكن غلب رأى واحد منهم على أن يلقوه فى غيابة الجب .. وهو بئر عميقة يستقى منها الورَّاد فى طريق القوافل ، وهو ببيت المقدس يلتقى عليه الغادى والرائح ، وربما التقطه أحد المسافرين فيريحهم منه إلى الأبد ، وبذلك يحققون هدفهم فى إبعاد يوسف عن أبيه ، دون إراقة دمه ..

وكان صاحب هذا الرأى هو يهوذا[٣٧]، أو هو روبيل أو شمعون[٣٨] على اختلاف عند الرواة .

وشروه بثمن بخس :

اتفق رأى الإخوة على هذا الأمر ، وبقيت الخطة لتنفيذه ..

كيف يستخلصونه من تحت عيني والده ، وهو لا يصبر على فراقه ؟ وإذا غاب عنه ولو فترة قصيرة سأل عنه ..

وهداهم الشيطان الذى زين لهم ارتكاب الشر ، ومنَّاهم بعد ارتكابه بالتوبة منه فيصبحون قومًا صالحين ..

هداهم إلى طريقة يستدرجون بها يوسف بعيدًا عن أبيه برغبة منه فذهبوا إليه قائلين :

---

(٣٧) قصص القرآن محمد جاد المولى ص ٧٣ – الثعلبى ص ١١٣ .
(٣٨) ابن كثير فى قصص الأنبياء ص ٢٣٣ عن بعض الرواة .

﴿ يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾[٣٩].

جاءوا لأبيهم من طريق الحب ليوسف .. فقالوا له : أرسله معنا يشاركنا فى لعبنا ومرحنا ونشاطنا ، فإن ذلك يكون أَجَمَّ وأَصْلَحَ له ..

وإن من اللعب ما هو مباح يدعو العقل والتربية له ، فقد يكون من أهداف اللعب التقوية والتنشيط والتدرب على السلاح وفنون الحرب ، ولهذا لم ينكر يعقوب النبى - عليه السلام - عليهم ذلك ..

ولكنه أحس بما يدبرونه بفطرته الصافية وإلهامه الصادق وتجربته السابقة . ولم يشأ أن يخبرهم بما راود نفسه من أحاسيس ، بل أراد أن يمنع يوسف من الخروج معهم بدافع الخوف عليه من افتراس الذئاب له فى غفلة منهم . وربما لم يكونوا متنبهين لهذه الناحية من الخطر ، فطمأنوه بأنهم لن يغفلوا عنه ، وفى الوقت نفسه اغتنموها فرصة فى الدفاع عن أنفسهم عند إخبار أبيهم بفقده ..

وقد صور القرآن الكريم الحوار الذى دار بين يعقوب - عليه السلام - وأولاده بأسلوبه المعجز الرائع ، الذى لم يُغفل مختلف الأحاسيس النفسية التى تعتمل فى نفس الشيخ وبنيه ..

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾[٤٠].

لقد كان يعقوب - عليه السلام - يحس أن الخطر على ابنه هم إخوته لا الذئب ، ولكنه خشى أن يصرح بذلك فيوغر صدورهم عليه ، وربما كنى بالذئب عنهم .. فقد ذكر الرواة فيما يروون عن ابن عباس - رضى

---

(٣٩) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة يوسف .

(٤٠) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يوسف .

الله عنهما – أن يعقوب – عليه السلام – رأى فى منامه كأن يوسف على رأس جبل ، وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه ، وإذا ذئب منها يحمي عنه ، وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام . فلما رأى هذه الرؤيا قال : أخاف أن يأكله الذئب[٤١].

وتحت إلحاحهم الشديد – وربما لمح رغبة من يوسف فى مشاركة إخوته لعبهم – فوافق على أن يخرج يوسف معهم .. ولكنه لم ينس أن يزودهم بنصائحه فى المحافظة عليه ..

وانطلق به الإخوة ، واصطحبوا يوسف بحفاوة بالغة أمام أنظار أبيهم، حتى إذا ما تواروا عنه قلبوا له ظهر المجن .. وأظهروا كوامن نفوسهم ، وصبوا عليه جام غضبهم .. وقرروا أن ينفذوا فيه وعيدهم ، وما أجمعوا عليه أمرهم ..

وربما هَم بعضهم بالبطش به ولكن « يهوذا » نصب من نفسه مدافعًا عنه ، مذكرًا لهم ما اتفقوا عليه من وضعه فى غيابة الجب ، محذرًا لهم من أن القتل لا يليق بهم وهم أبناء يعقوب وأحفاد إسحاق وإبراهيم ، وأنه يجافى ما تلقوه من شرائع ، وهو أمر يأباه العقل والمنطق والأخلاق .. لعله قال ذلك وأكثر منه ، ليقنعهم بوجهة نظره ، ويبعدهم عما أرادوا فعله ..

وقد أوحى الله – سبحانه – إلى يوسف بأنه سيخبرهم بذلك كله فى حينه وهم لا يشعرون ..

وقد يكون الوحى ليوسف فى هذه السن المبكرة أمرًا مستغربًا .. ولكنه حين يكون إلهامًا لا يستغرب .. إنه من قبيل قوله – تعالى – : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾[٤٢].

---

(٤١) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١١٣ .   (٤٢) من الآية ٦٨ من سورة النحل .

إن يوسف لم يكن قد نبيء بعد ، فما زال صغيرًا .. ولكنه حين يكبر وُينبأ يخبرهم بما فعلوه معه كله ..

وألقاه الإخوة في الجب ، لم يرحموا طفولته ، ولم يذكروا أُخُوَّته ، ولم يرعوا يتمه بفقد أمه ، ولم يحفظوا بر أبيهم بسماع نصحه في المحافظة عليه .. لقد أعرضوا عن كل ذلك ، ولم يذكروا إلا الاستجابة لدوافع الحقد والأثرة التي سيطرت على نفوسهم ، واستلت كل نوازع الخير من ضمائرهم ..

لقد جردوه من قيمصه الذي كان عليه ، وربطوه بحبل وألقوا به في الجب ، وأسرع أحدهم فقطع الحبل فهوى إلى القاع ..

وحاول يوسف قبل إلقائه أن يستعطفهم ليردوا قميصه ليستر به عورته إن حيي أو ليكون كفنه إن مات . ولكنهم قابلوه بكل غلظة وأسمعوه قوارص الكلم ، وسخروا منه قائلين : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا فتكسوك وتؤنسك ..

وأوحى الله إلى جبريل : أدرك عبدي .. فأسرع وتلقى يوسف على يديه قبل أن يصل إلى القاع .. وفي الجب صخرة أراحه عليها ، وكساه قميصًا .

وكان الجب مأوى للهوام فهمت به ولكن الله وقاه شرها ..

وقعد يوسف على الصخرة يبكي ، وهو في جب مظلم .. فألهمه الله الصبر .

دعاء الفرج :

وجاءه جبريل يعلمه دعاءً كان هو دعاء الفرج .. قال له : يا يوسف ، كف عن البكاء واشتغل بالدعاء .. فإن الدعاء عند الله بمكان .. ثم قال له : قل :

« اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويا صاحب كل وحيد ، ويا ملجأً كل خائف ، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل

شكوى ، ويا حاضر كل ملأ ، يا حي يا قيوم ، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا إنك على كل شيء قدير »[٤٣].

وقيل : إن الدعاء الذى علمه جبريل ليوسف هو :

« اللهم إنى أسألك باسمك المكنون ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لى وترحمنى ، وأن تجعل لى من أمرى فرجًا ومخرجًا ، وأن ترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب »[٤٤].
وكان النبى يقول : هذا دعاء المصطفين .

وقيل : إن هذا الدعاء الذى تعلمه هو :

« يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملأ ، ويا مفرج كل كرب ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، إئتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدًا سواك[٤٥].

فردد يوسف الدعاء فأخرجه الله من الجب بعد أن قضى فيه ثلاثة أيام .

كان الجب كما قلنا على طريق القوافل ..

وهناك قافلة من الإسماعيليين كانت قادمة من مكة فى اتجاهها إلى مصر تحمل تجارة ، وقافلة أخرى من أهل مدين[٤٦].

وحطت قافلة أهل مدين بجوار الجب ، وأرسلت أحد أفرادها يطلب الماء من الجب ..

وألقى هذا الرجل بدلوه فى الماء فتعلق به يوسف – عليه السلام – .

---

(٤٣) تفسير القرطبى ص ٣٢٧٣ ط دار الشعب ..
(٤٤) يوسف الصديق لابن الخطيب ص ٤٤ .
(٤٥) تفسير القرطبى . (٤٦) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٥٧ .

ورفع الرجل دلوه وهو يظن أنه قد امتلأ بالماء – ولكنه أحس بثقله – على غير المعتاد ، وإذا به أمام صورة من أحسن الصور التى صاغها الله جمالاً وبهاء ..

فلم يملك إلا أن صاح قائلاً : يا بشراى هذا غلام ..

وأقبل أفراد القافلة على صوت صاحبهم ، ونظروا إلى يوسف فى حسنه وبهائه فلم يملكوا إلا أن قالوا : تبارك الله أحسن الخالقين ..

وكان في إمكانهم أن يحتفظوا به معهم ، ولكن فضلوا أن يبيعوه للتجار المتوجهين إلى مصر ..

وهكذا أصبح يوسف فى قبضة الإسماعيليين بعد أن اشتروه بدراهم معدودة من أهل مدين ..

قال الرواة : إن يوسف قد قد نظر فى المرآة ذات يوم فقال : آه يا يوسف ، لو أنت مملوك لعجزت عن دفع ثمنك الملوك ..

وكان عاقبة افتتانه بنفسه أن بيع بثمن بخس دراهم معدودة ..

وقيل : إن الذين باعوه هم إخوته أنفسهم . لأنهم ظلوا بجوار البئر وقتًا يتفقدون أحواله .. حتى جاءت القافلة التى أدلت بدلوها إلى الماء فاستخرجته ، فأسرع الإخوة إليهم قائلين : هذا عبدنا قد أبق منا وأخفى نفسه هنا .. فسألهم التجار أن يبيعوه فباعوه بعشرين درهمًا اقتسمها الإخوة بينهم كل منهم أخذ درهمين وهذا رأى بعيد جدًا .

وعاد الإخوة إلى أبيهم باكين . وفي جيوبهم ثمنه ، وعلى وجناتهم دموع تكذب

وقد ادعوا أن الذئب عدا على يوسف فأكله .. وأروه قميصه الذى كانوا قد ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص .. فلما نظر يعقوب إلى القميص وما عليه من دم كاذب ، ولا يوجد به أثر لناب ذئب أو مخلبه قال : ما أحكم

هذا الذئب وأعقله ، حيث إنه أكل ابنى دون أن يمزق ملابسه .. وهو يقصد بهذا التهكم بهم والسخرية منهم ..

ثم أعلنها لهم صريحة واضحة لا التواء فيها : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ..

إن هذه الأحداث التى ذكرناها على طولها ، ولم نقف بتفاصيلها ، حكاها القرآن الكريم فى إيجاز معجز وإحكام دقيق يعيا أبلغ البلغاء عن الإحاطة به حيث قال :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[٤٧]

ما أشد محنتك أيها الشيخ فى أبنائك ..

هؤلاء الذين كان ينتظر منهم أن يكونوا أقرب الناس استجابة لتعاليمك ومبادئك ، وأسرعهم تطبيقًا لشريعتك لأنهم أبناؤك . هم الذين كانوا أبعد الناس عن ذلك ..

---

(٤٧) الآيات ١٥ : ٢٠ من سورة يوسف

ولو أن يوسف قد أسلمه أبوه لأبعد الناس عنه ما فعل هذه الفعلة التى فعلها أقرب الناس إليه ..

ولكنه البلاء الموكل بالأنبياء ..

وقد روى عن النبى - ﷺ - : « أشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »(٤٨).

لقد كان ابتلاء يعقوب بقسوة أبنائه وجفوتهم لأخيهم واعتدائهم عليه وعدم انصياعهم لأمره أشد من ابتلائه بموت يوسف لو كان قد مات حقًا .. ولكن لا حيلة له إلا الصبر يتذرع به ، ولا ملجأ له إلا الله يلجأ إليه ، ولذلك قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ..

وهكذا أسلم يعقوب أمره إلى الله ..

أكرمى مثواه :

وأخذت القافلة طريقها إلى مصر ..

وفى الطريق ، وقع نظر يوسف على قبر أمه « راحيل » فتسلل إليه ، وألقى بنفسه فوق القبر يلتزمه ويبكي . ولعله أشهدها على ما آلت إليه حاله ، وما صار إليه أمره ، وكيف أُبدِل بالعز ذلاً ، وبالأمن خوفًا ، وبالحب بغضًا ..

وأحس حافظه بفقده ، فبحث عنه فوجده فوق القبر يبكي .. فانتهره ، ولم يقبل عذره(٤٩).

وحملوه مقيدًا حتى وصلوا مصر ..

---

(٤٨) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن فاطمة بنت اليمان أخت حذيفة بن اليمان وأخرجه أحمد فى مسنده باسناد جيد - الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور جـ ١ ص ٥٦ .

(٤٩) أشار إلى هذه القصة الثعلبى ص ١١٩ وابن إياس ص ٩٥ .

وهناك فى سوق الرقيق عرضوه للبيع .. ورآه عزيز مصر ووزيرها « قطفير » وكانوا قد ألبسوه ثوبًا حسنًا – وهو ليس فى حاجة إلى تزيين وتحسين – ولكنها عادة التجار فى تحسين بضاعتهم .. فاشتراه الوزير ..

وكانت مصر فى ذلك الوقت ما تزال تحت حكم العمالقة الذين يطلق عليهم « الهكسوس » الذين احتلوا مصر سنة ١٧١٠ ق . م . وجعلوا عاصمتهم « أواريس » – صان الحجر الحالية – فى شمال شرق الدلتا .. بينها وبين مدينة طيبة ٨٠٠ كيلو متر[٥٠].

لقد تفرس الوزير فى يوسف بأنه سيكون له شأن .. ولذلك أوصى زوجته بأن تكرمه وتحسن معاملته .. وقال لها : عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ..

وكانت فراسته صادقة ، فإن نفع يوسف لم يقتصر على الوزير وبيته ؛ بل عم حتى شمل مصر كلها وما جاورها من بقاع ..

ولذلك قالوا فيما روى من أخبار : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف وقال لامرأته : أكرمى مثواه ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت استجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر ..

ولم تكن امرأة العزيز فى حاجة إلى وصاة زوجها .. فقد أقبلت على يوسف من تلقاء نفسها إقبال أم على ابنها لا إقبال سيدة على عبدها .. وأحلته من قلبها وبيتها محلاً كريمًا .. وما زال هذا المحل يرتفع ويسمو .. حتى تحول عندها إلى عاطفة مشبوبة مع نمو يوسف واكتمال شبابه ..

لقد بدل الله حياة يوسف تبديلاً كاملاً .. فقد دخل مصر عبدًا ذليلاً يعرض فى الأسواق ، ويتزايد الراغبون فى الثمن لشرائه ، فإذا به يصبح فى بيت الذى اشتراه سيدًا مطاع الكلمة ، تخضع سيدة القصر لمشيئته ، وتذعن لإشارته .

---

(٥٠) كفاحنا ضد الغزاة ص ٣٠ – وزارة الارشاد القومى .

عجبًا لذلك ، لقد اختلطت الأمور في نظرها ، فإذا بها وهي السيدة المالكة ترى أنها هي المملوكة لمن اشترته ، وذليلة لعبد بذلت في ثمنه دراهم معدودة .

كانت امرأة العزيز ترقب يوسف في كل شيء ، في حسن تصرفه ، ووضعه للأمور في نصابها ، وبعد نظره ، ودماثة أخلاقه .. ولكنها كانت ترقب على وجه الخصوص ما تراه من جمال مفرط ، وخُلق بديع ، وفتنة طاغية .. ترى كل ذلك صباح مساء ..

فأخذت تحاول الاقتراب منه ، وتستدعيه لمختلف الحاجات وأتفه الأمور . وشيئًا فشيئًا أخذ حب يوسف يتسلل إلى قلبها ، وكلما تكررت رؤيتها له ازداد هذا الحب ، وهي وإن كانت سيدة هذا القصر الذى تخضع جباه كثيرة له محرومة مما يتمتع به عامة النساء ، حتى الفقيرات منهن ، فزوجها عاجز حصور ، وهي امرأة على أى حال ، وقد أعطاها الله حسنًا ونعمة وشبابًا واقتدارًا .

لقد نضعت رغم أنفها إلى يوسف ، ولكن مكانتها ومقامها في القصر حالا بينها وبين إظهار هذا الحب ليوسف – عليه السلام – بعض الوقت .. إلا أن وجوده بجانبها ورؤيتها المستمرة له كان يشعل نار الحب في قلبها والرغبة في نفسها ..

وقد فطن يوسف – عليه السلام – إلى ميل سيدة القصر إليه ، ومحاولاتها الدائبة للتقرب منه ، وتلميحاتها المتكررة ، ونظراتها التى لم تعد تخفى عليه . ولكنه تغاضى عن كل ذلك ، وتجاهل ما ترمى إليه ، وحاول ألا يظهر أمامها أو تنفرد به بقدر الإمكان ..

إن له إيمانًا بالله يملأ قلبه ويفرض عليه النقاء والطهارة والابتعاد عن كل رذيلة ، لقد نشأ نشأة طاهرة ، وتربى أولاً فى بيت النبوة ، ورضع لبان الشرف والفضيلة والعفة ..

ثم كيف يخون سيده الذى أعزه وائتمنه على بيته وأسرته ؟

إن ذنبًا - إن صح - لا يصدر إلا من اللئام والخونة وضعاف النفوس .
ويوسف - عليه السلام - بعيد عن ذلك كل البعد ..

لا يمكن أن يقابل نعمة سيده بالجحود والنكران ، ويدنس عرضه وشرفه ، مهما كانت الإغراءات ، ومهما زادت الضغوط التى تمارسها تلك الزوجة عليه ..

حقًا إنه يعيش فى بيتها ، ويأتمر بأمرها ، لكن لا يمكن أن يصل إلى الحد الذى يطيعها فى معصية الله ، وكفران نعمة من أنعم الله ..

وقد كان - عليه السلام - قادرًا بذكائه على الإفلات من حصار سيدته له ، فكما كانت تختلق الأسباب لتقربه منها كان هو أيضًا يختلق الأسباب ليبتعد عن نظراتها وتطلعاتها ..

وفهمت المرأة بذكائها أن يوسف يحاول تجنبها والابتعاد عنها ما وسعه ذلك ، فزادها ذلك رغبة فيه وإقبالاً عليه .. حتى فاض بها الكيل ، واستولى الشيطان عليها ..

إلى أن جاء يوم .. وكان يومًا عصيبًا ..

إن التلميح لم يأت بنتيجة ، فليكن التصريح ..

واستدعته يومًا إلى مخدعها - وهى لم تعدم اختلاق السبب لذلك - ثم أغلقت الأبواب المفضية إليه ..

ولبست أجمل ما عندها ودعته إلى ما تريد ..

ولكنه استعصم بالعفة ، وأجابها بمنطق الإيمان والعقل : معاذ الله ، كيف أخون سيدى الذى أحسن مثواى ؟ كيف أعض اليد التى امتدت إلىَّ بالإحسان ؟

ولم تفقد الأمل بعد ، فأقبلت تغازله - لعله يلين - ..

قالت له : يا يوسف ، ما أحسن صورة وجهك . قال : فى الرحم صوَّرنى ربى .

قالت : يا يوسف ، ما أحسن شعرك ، قال : هو أول شيء يبلى منى فى قبرى .

قالت : يا يوسف ، ما أجمل عينيك . قال : بهما أنظر إلى ربى ..

قالت : يا يوسف ، ارفع بصرك فانظر فى وجهى . قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى .

قالت : يا يوسف ، أدنو منك فتتباعد عنى ؟ قال : أريد بذلك القرب من ربى[٥١].

وما زالت تسمعه من ذلك الكلام الذى كان فى إمكانه أن يذيب صلادة القلوب ، ويصرع أعتى الأقوياء ، ولكنه لم يزدد إلا استمساكًا بالعصمة والعفة .. كانت تدعوه إلى الشهوة واقتناص اللذة ، وهو يذكرها بالله ونعيم الآخرة .. ويحذرها عذاب الله ونقمته ..

ولكن أنى يقع منها هذا الكلام ولا دين لها يعصمها ولا إيمان بالله يردها ؟

قوة إرادة يوسف :

وعلينا أن نتأمل قوة الإرادة والعزيمة عند يوسف - عليه السلام - شاب فى ريعان الشباب ، وفى تمام الصحة والقوة ، تتهيأ له امرأة فاتنة ذات منصب وجمال وقوة نفوذ وسلطان ، وتهيىء له جميع الأسباب التى تؤمن خوفه ، وتيسر حاجته ، وتعده بكل ما يتمناه إن هو استجاب لرغبتها ، وهو يعلم أنها قادرة على تنفيذ وعدها ، وهى فى الوقت نفسه سيدته التى يأتمر بأمرها ، ويفترض عليه تلبية طلباتها ، ولها عليه السيطرة والهيمنة والسلطان ..

وعلى الرغم من كل ذلك يرفض كل ذلك .. ويأبى أن يقع فى تلك الخطيئة المنكرة .. إن هذا الإباء لا يقوى عليه إلا الأتقياء المخلصون ، هؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ..

---

(٥١) تفسير القرطبى .

الهم :

رفض يوسف الاستجابة للمرأة وقد تهيأت له بكامل فتنتها وأنوثتها تستصرخه أن يفعل بها ما تريد ، وأعرض عنها إعراضًا تامًا مستهينًا بها وبجمالها وبفتنتها ..

وهالها ذلك . بل غاظها أشد الغيظ ، أنه عبدها وقد عرضت عليه نفسها ، ولكنه أذل كبرياءها واحتقر أنوثتها .. فلم يبق أمامها بدٌّ من الانتقام منه واندفعت نحوه فى ثورة عنيفة وهمت به جذبًا إليها وهم بها همَّ دفاع عن نفسه وتخلص من شرها ..

ولنقرأ الآيات الكريمة الواردة فى ذلك ، لندرك من خلالها جمال البيان القرآنى ، وجلاله وروعته فى تصوير هذه العفة المتناهية التى منَّ الله بها على صفيه يوسف – عليه السلام – ..

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[٥٢]

تفسير الهم :

لقد أخطأ كثير من المفسرين فى تأويل همّ يوسف بامرأة العزيز ، حتى صوروه فى صورة الإنسان العادى الذى يمكن أن يقع فى براثن الشهوة ..

---

(٥٢) الآيات ٢١ : ٢٤ من سورة يوسف .

وإذا صح ذلك فأين عصمة الأنبياء التى يشير إليها قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده أتيناه حكمًا وعلمًا ﴾ ؟ فالحكم هو النبوة ، والعلم هو العلم بتكاليفها ..

وأين أيضًا تربية الله له واستخلاصه له الذى يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ؟

إن الهم ينبغى تفسيره على أنه من قبيل المشاكلة اللفظية لا المماثلة المعنوية كقوله - تعالى - : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ ﴾ وقوله - تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ وتعالى الله عن المكر المذموم والخداع المكروه[٥٣].

أو أنه جواب للشرط .. كأنه قيل : لولا أن رأى برهان ربه لهم بها .. فالصحيح أنه عليه السلام لم يقع منه هَمٌّ البتة بل هو منفى لوجود رؤية البرهان كما تقول : ارتكبت الذنب لولا أن عصمك الله تعالى . وقيل : جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والعرب تقول : أنت ظالم إن فعلت كذا فيقدرونه . إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قولهم : أنت ظالم على ثبوت الظلم بل مثبت على تقدير وجود الفعل .

وهكذا يكون التقدير هنا : لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، فكان يوجد الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم .

والمراد بالبرهان ما عنده عليه السلام من العلم الدال على تحريم ما همت به .

وقيل المعنى أنها همت به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه ، وهم هو بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته منه ، فالاشتراك فى طلب القهر منه ومنها والحكم مختلف ، ولهذا قالت : أنا راودته عن نفسه .

إنه من الواجب تعظيم مقام النبوة ومراعاة جانبها .. وهو الواقع ..

---

(٥٣) يوسف الصديق ص ٥٣ .

فتربية الله لأنبيائه واصطفائه لهم تحول دون ترديهم فيما يقع فيه عامة الناس من سوء ، وإلا فكيف يكون الفرق بين النبي وغيره ؟؟

أما البرهان الذى رآه يوسف فهو العصمة التى حالت بينه وبين الاستجابة لما طلبت زليخا . هو ذلك التأبى منه والإصرار عليه رغم دواقع الإغراء الشديدة التى يعجز عنها عامة البشر ..

هو أنه لم ير فى موقعه هذا إلا صولة الحق وهيبة المولى ، ولم يشهد إلا جمال ربه الذى غطى على كل جمال ، وحسن رضاه الذى يهون فى جانبه أى رضا لمخلوق مهما بلغ من قوة السلطان ..

إن البرهان الذى رآه هو قيمة الإيمان التى امتلأت بها نفسه واطمأن بها فؤاده ، وخالطت لحمه ودمه ، حتى عاين عرش ربه بارزًا ورأى نعيم أهل الجنة فى الجنة وعذاب أهل النار فى النار ..

وأى برهان أعظم من ذلك ؟

إنه برهان يرى بعين البصيرة لا البصر – كما يقول ابن الخطيب – ومتى رآه صاحبه ارتفع على مستوى بشريته حتى يصبح كأنه ملك كريم ، وبهذا وصفته النسوة اللاتى قطعن أيديهن – كما سيأتى بعد – .

ما أعظمك يا يوسف . حين احتقرت هذه الشهوة البهيمية التى يتصارع المفتونون فى اقتناصها ويتباهون باغتنامها ..

لقد ألقيت على هؤلاء المتهالكين على اللذات درسًا يتعلمون منه كيف تكون مقاومة الشهوة سبيلاً إلى العظمة الحقة ، والسمو الكامل ..

وقد وصفه الله بالإحسان حيث قال : ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .. والإحسان أعلى مراتب الدين .. وصفه النبى – ﷺ – بقوله : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..

وهذه هي المراقبة الحقيقية لجلال الحق .. وأى برهان أعظم من ذلك ؟ .

ذلك ؟ .

وشهد شاهد من أهلها :

لقد امتنع يوسف على الإغراء وانتصر عليه .. ولما همت بيدها تريد إجباره على ما تريد انفلت منها هاربًا نحو الباب ، فأسرعت خلفه فى محاولة أخيرة لإيقاعه .. ولكنه ما زال فى طريقه غير ملتفت إليها ..

فماذا تصنع غير التشبث بقميصه حتى لا يصل إلى الباب ويفتحه ؟

وتشبثت بكل قوتها بقميصه من الخلف ، ولكنه جاذبها القميص وجرى نحو الباب وفتحه .. وقد تمزق القيمص فى يدها .. ووجد الزوج واقفًا أمام الباب ..

وهنا كانت المفاجأة .. ولعل هذه المفاجأة قد ألجمت يوسف فلم يتكلم .. فكانت هى البادئة بالكلام ..

إنها فى موقف مريب بدون شك ..

فيوسف متجهم منفعل ، وقميصه منشق من الخلف . وهى فى حالة غير طبيعية أشبه بالجنون . ولكنها مع ذلك لم تخنها غريزة الأنثى أمام زوجها .. فأسرعت قائلة :

ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم .. ؟

لقد تحركت فى نفسها غريزة الانتقام من ذلك الرجل الذى أهانها وأذلها .. فصورته فى صورة الرجل الذى حاول الاعتداء عليها ..

ولكنها فى الوقت نفسه اقترحت العقاب الذى يعاقب به خوفًا من أن يكون هناك عقاب أشد وهو القتل يوقعه الزوج - المخدوع - بيوسف ..

إن المنطق يقضى بأن يسرع الوزير بإصدار أمره بقتل ذلك العبد الذى لم يحفظ النعمة التى يتقلب فيها ، وامتهن شرف السيد الذى أكرم مثواه . خشيت من ذلك المنطق . فاقترحت العقاب .. قائلة : يسجن أو يعذب .. وما ذلك إلا بدافع الحب ليوسف ذلك الحب الذى يسيطر عليها ..

فما زال هناك أمل يراودها فى أن يستجيب لها يومًا ما ..

ولئن أفلت منها هذه المرة فقد لا يفلت منها مرة أخرى ..

ولكن يوسف لم يسكت على هذا الاتهام الظالم .. دفع عن نفسه التهمة . وقال : هى التى راودتنى ، أنا ما حدثت نفسى بذلك فضلاً عن مراودتها ..

وأصبح الأمر قضية تحتاج إلى شاهد يرجح دعوى أحد الخصمين ..

وشهد الشاهد : إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت ، وإن كان قُدَّ من دُبر فهى كاذبة ..

وعاين الزوج القميص ، فرآه مقدودًا من الخلف ، فأدرك أنها كاذبة فى دعواها ، ومفترية على يوسف ..

فاتجه إلى زوجته قائلاً : إنه كيد منك ، وما أعظم كيد المرأة حين تكيد ..

ورجا يوسف أن يطوى كشحًا عن هذا الأمر ، وأن يعرض عن الخوض فيه ، وألا يقصه على أحد ، كما طلب منها أن تستغفر من هذا الذنب الذى تورطت فيه ..

ولو كانت لديه شهامة ونخوة لأدبها بما هى أهل له .. ولكنه اكتفى بتوجيه النصح لها بأن تستغفر من ذنبها .. وكأنه بذلك يعتبر نفسه مسئولاً عن ترديها فى ذلك بعجزه عن مباشرتها ..

من الشاهد ؟؟

وقد روى الرواة أقاويل متعددة حول الشاهد فى هذه القضية . فمنهم من يقول : إنه ابن عم لها فهو من أهلها .. ومن يقول : إنه رجل حكيم كان الزوج يستشيره وهو من أهل الزوجة أيضًا ، ومن يقول : إنه طفل فى المهد وهو ابن خالها ..

وذهب بعضهم إلى توهين القول الثالث ، ولكن ذلك قد ثبت بحديث صحيح . رواه أبو هريرة :

« لم يتكلم فى المهد إلا عيسى وشاهد يوسف وصاحب جُرَيج وابن ماشطة فرعون »(٥٤).

والمهم أن براءة يوسف ثبتت بالمنطق . فتمزيق القميص من الخلف دلالة تشير إلى أن المرأة جرت خلفه لتجذبه لا لتدفعه ..

فإذا اجتمع مع هذه الدلالة المنطقية من جانب طفل فى المهد ينطق كان ذلك أدل على براءته ، وإثباتًا لقوة خطر هذا الرجل الذى تؤيده السماء فلا ينبغى أن يستريب فى شأنه أحد ..

والمعجزات ليست غريبة على الأنبياء ، ويوسف نبى آتاه الله الحكم والعلم .. وحفظه فى الجب الذى تلقاه فيه جبريل وكساه قميصًا بدلاً من الذى انتزعه منه اخوته .. فهو محروس بالعناية ، مؤيد بالرعاية ..

ولنقرأ الآيات التى تصور ذلك :

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴾(٥٥)

---

(٥٤) الحديث فى الجامع الصغير برقم ٧٢٥٩ جـ ٥ ص ٢٩٤ ورمز له المصنف بالصحة ، وفى كنز العمال جـ ١١ ص ٥٠١ برقم ٣٢٣٤٤ ، وفى جمع الجوامع برقم ٥٥٦ / ١٧٤٥٨ ، وفى المستدرك . كتاب التاريخ جـ ٢ ص ٥٩٥ .

(٥٥) الآيات ٢٥ : ٢٩ من سورة يوسف .

ولئن كان الذى حكم فى هذه القضية ليس الطفل فى مهده بل القريب الذى شاهد الموقف فقد حكم بفراسة صادقة ودقة نظر وعقل راجح .. وبما شاهد من إمارات الصدق على وجه يوسف وإمارات الكذب على وجه امرأة العزيز .

وإلا فإن الدليل الذى ساقه لبيان الحقيقة فى هذه القضية ، وهو الجهة التى قُدَّ منها القميص – لا يقوم وحده دليلاً قاطعًا على إبانة الحق ، ولكنه إمارة فقط وتقوية لما استنبطه بفراسته من علامات الصدق فى وجه يوسف ، وعلامات الكذب والافتراء فى وجه امرأة العزيز وهيئتها ..

ذاك أنه من الجائز أن تجذبه وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر ، أو تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل ..

إن للحق علامات تظهر على وجه صاحبه ، وللكذب علامات كذلك ، والذى يدرك ذلك ذو الفطنة والفراسة ..

فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن :

شاع خبر يوسف وامرأة العزيز فى أوساط المدينة كلها ..

وكانت المدينة عاصمة مصر فى ذلك الوقت ، العاصمة التى اختارها الهكسوس مقرًا لحكمهم ، ولعلها مدينة « صان » ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة[٥٦].

وكثر الكلام فى هذا الأمر ، ولا شك أن الخبر تضاعف مرات ومرات ، شأن الشائعات فى كل زمان ومكان .. وانتقل من لسان إلى لسان ، وثرثرة النساء وجدت مادة سخية تدور حولها ، وتتفنن فى نسج أخبارها ..

وتحدثت صديقات امرأة العزيز لائمات أو شامتات أو متعجبات ..

---

(٥٦) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١٥٧ .

فلائماتها يرين أنه لا يليق منها هذا العمل الذى يهين كرامتها ، إذا كيف تُفتن بخادمها إلى هذا الحد تتنازل فيه عن كل كبريائها وعظمتها ، وهى امرأة مرموقة فى المجتمع ، يُنظر إليها على أنها من السيدات ذات الوضع الاجتماعى الممتاز ؟

كيف تعرض نفسها على مملوكها وتتدنى أمامه ، وتحطم بيدها عزتها وكبرياءها ، وتصل إلى درجة الخضوع والتذلل أمامه ؟

وبالرغم من ذلك فإن هذا الخادم يعزف عنها ، ويزهد فيها ويرفض النزول إلى رغبتها ، فخيب بذلك آمالها ، وطعنها طعنة نافذة هوت بكل ما لها من سلطان ، وحطمت كل ما تملكه من شموخ ..

والشامتات بها هن أولئك النسوة اللاتى يظهرن فى صورة الصديقات فى العلن ، المتلمسات العيوب فى الخفاء .. وما أكثر هذا الصنف فى أوساط النساء .. إنها صداقة على دخن ، ومودة ظاهرة تبطن عداوة ..

فما أن رأين امرأة العزيز سقطت هذه السقطة حتى شمتن بها وإن كن قد دارين الشماتة فى أسلوب النصح والرثاء ..

وأكثر ما يكون هذا النوع من الصداقة بين زوجات طلاب المنفعة والمتنافسين فى اقتناص المغانم والمناصب .. يفرحن بالكوارث التى تصيب الأخريات والفشل الذى يحدث لهن ، لعل ذلك يفتح أمام أزواجهن فرصة للتسلق والوصول إلى تحقيق الأغراض ..

أما المتعجبات فهن غالبًا من مستويات أدنى ، هن زوجات الصف الثانى اللاتى يسرهن صداقة من هن أرفع درجة وأعلى مستوى ..

ويعجبهن ظهور من يرينها قدوة على حقيقتها ، فقد زال التصنع للطهارة والتكلف للنقاء ..

لقد طالما رأين هذه المرأة على مثالية وترفع وإباء ، وإذا بها بين عشية وضحاها يزول هذا القناع وتظهر على حقيقتها امرأة كغيرها من النساء لا .. بل ربما أدنى من كثير من النساء ..

وربما كان من دونها فى المنصب والجاه لا يزل هذه الزلة ولا يسقط هذا السقوط ..

لقد أصبح هذا الحادث حديث المدينة ..

وعادة الناس فى كل عصر يتشوقون إلى سماع الأخبار المثيرة ، خصوصًا فيما يتعلق بكبار القوم .. ولم يكن فى ذلك الوقت صحافة أو وسائل إعلام .. إذن لأسرع محررو الصحف وهواة التصوير إلى مسرح الواقعة ، يحررون ويصورون ويغطون الحادث – كما يقول أهل الخبرة بذلك الفن – .

وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت القصة تشيع وتنتشر فى كل مكان ، لأن للشائعة سلطانًا نافذًا تتأبى عليه السدود والقيود وبعد المسافات .

وأخذ كل من يسمع بقصة امرأة العزيز وفتاها ينقلها بطريقة جديدة فيزيد فيها أو ينقص ، ويجدد ويبتكر ، ويجد الناس فى ذلك – خصوصًا النساء – متعة ومجالاً للتندر .

ولم يكن المجتمع دينيًا ينهى عن مثل ذلك ، ولكنه كان يشيع فيه الفساد السياسى والاجتماعى . لقد كانت الدولة تحت الاحتلال .. والناس فى ظل الاحتلال البغيض يحاولون التنفيس عن أنفسهم بأى طريق ، ويلتمسون فرصة سقوط تلك الطواغيت المستعمرة ومن يدور فى فلكهم فيسلقونهم بألسنة حداد ..

وكانت تلك الأخبار والأقاصيص تنتهى إلى امرأة العزيز أولاً بأول .. وفى ذلك دلالة على أنها لم تكن تقصر نشاطها على بيتها ، ولكنها كانت ذات نشاط اجتماعى واسع ، ولها من الأعوان من ينهى إليها الأخبار ..

وغاظها ما سمعت ، وبخاصة حين علمت أن هناك من النسوة من وصفنها بأنها ذات ضلال وسفه .. وظللن يسلقنها بألسنة حداد ..

وقد ذكر الرواة أن من بين هؤلاء النسوة من كانت تعتبرهن من الصديقات الحميمات ..

وقيد قيل : إن هؤلاء النسوة قد تعمدن أن يصل كلامهن إلى امرأة العزيز ، ليتوصلن بذلك إلى رؤية هذا الفتى الذى فتن هذه المرأة ..

ولا يستبعد ذلك ، وبخاصة حين ندرك أن النفس البشرية شغوف برؤية ما غاب عنها ، وما زال حب الاستطلاع غريزة كامنة فى النفوس ، وعن طريقه يمكن توجيه المربين لأبنائهم وتلاميذهم إلى خير ما يحبون ، ولو ترك بدون توجيه لقاد صاحبه إلى مراتع وخيمة ومزالق سيئة ..

لقد رغبت هؤلاء النسوة فى رؤية يوسف من غير شك ، ولكن كيف يحققن هذه الرغبة ؟ لعل اللوم الذى وجهنه إلى امرأة العزيز يحقق لهن الرغبة ..

وحقًا كان ذلك . فقد تحقق لهن ما أردنه ..

وفكرت امرأة العزيز فى الرد على هؤلاء النسوة ردًا عمليًا .

وقررت ألا تقف مكتوفة اليدين عاجزة الحيلة أمام مكرهن وكيدهن .. مكرهن بالقول وكيدهن باللسان .. لقد خُنَّها فى صداقتها ، وتحدثن عنها بما يسوء فى غيبتها . فكيف يكون المكر والكيد إن لم يكن كذلك ؟

وهداها تفكيرها أن ترد على هذا المكر والكيد بما يماثله ، وهى بلا شك بارعة فى ذلك .

فأرسلت إلى هؤلاء النسوة تدعوهن إلى مأدبة تقيمها لهن ..

وأعدت لهن مكانًا خاصًا يجلس فيه ، وهيأت لهن متكآت مريحة تساعد أجسادهن على الاسترخاء .

فحضرن ، واحتفلت بهن احتفالاً عظيمًا .. وقدمت لكل منهن سكينًا حادة تقطع بها الأترج – التفاح – والطعام الذى أمامهن .

وبينما أقبلت النسوة على ما أمامهن من طعام شهى وفاكهة لذيذة ، وهن فى مجالس مريحة ومناظر حسنة تحرك لواعج القلوب ، وتهيج الشوق للمحبوب .. إذا بيوسف يمثل أمامهن فى صورته الحسنة ومنظره الفاتن وطلعته البهية ..

لقد أمرته سيدته بالخروج عليهن فخرج .. فارتعن لمنظره ، وأعجبن بحسنه ، وذهلن عن أنفسهن ، وانشغلن به عما فى أيديهن ، وتعلقت أنظارهن به ، وتسمرت أعينهن عليه .. فلم يرين أمامهن إلا وجهًا مشرقًا وقمرًا مضيئًا وفتنة طاغية وسحرًا قائمًا .. وغبن عن وعيهن فى لحظة وَجْد بهذه الصورة الفريدة التى تستلب عقل الحكيم وتستهوى قلب الحليم .. وبلغ بهن الوجْد والذهول إلى درجة أن أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين . وهن يحسبن أنهن يقطعن ما فى أيديهن من طعام . ثم قلن جميعًا – فى شغف وإعجاب عظيم – : ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ..

لقد ربحت زليخا الجولة عليهن .. وأخرست ألسنتهن .. واستطاعت أن ترد على مكرهن بمكر أبلغ منه .. لقد نصبتهن جميعًا محاميات عنها فى قضيتها .. فبدلاً من أن يوجهن اللوم لها ويعذلنها عذرنها .. وأقبلن على الفتى يتوسلن إليه أن يرحم ضعف سيدته ، التى ما تزال مصرة على موقفها منه .. ولقد أقسمت على تأديبه بالسجن والتعذيب إن لم يفعل ما تأمره به .. فليجارها فيما تريد حتى لا يحق عليه الوعيد ..

بل وصل الحد إلى ما هو أكبر من ذلك .. لقد أوصلتهن جميعًا إلى الوقوع فى حبائل حبه .. وتمنت كل واحدة منها أن يَخْلُص لها ..

حتى صاح يوسف متضرعًا إلى ربه أن ينجيه من شرهن ويخلصه من كيدهن ، بل لقد فضل الحياة فى السجن على الحياة فى ظل هذه الحياة المبتذلة والفتنة الجارفة ..

إن قلبه متعلق بالله ، وحياته خالصة له .. فما له وهؤلاء النسوة اللاتى لا هم لهن إلا اقتناص اللذة واغتنام الشهوة ..

وحين رأى العزيز أن الأمر قد جاوز الحد ، وأن الحديث لن ينقطع ، فكر فى وسيلة يقضى بها على الشائعات ويخرس بها الألسن .. ووجد باستشارة مستشاريه أن أفضل وسيلة هى أن يزج بيوسف فى السجن ، فلا يراه أحد ، وينسى الناس ما حدث .

وهكذا وجد يوسف نفسه فى محنة أخرى لم تكن تخطر له على بال ..

ولكن قلبه كان مطمئنًا لأنه فضل السجن على الخطيئة ..

فما أعظم قلب هذا الإنسان وأنبل خلقه ، وما أجدره برسالة ربه واصطفاء الله إياه . والله أعلم حيث يجعل رسالته ..

وقد حكى القرآن الكريم لنا هذه الوقائع فى بيان رائع .. حيث يقول :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٥٧]

يا عجبًا لهؤلاء القوم ، لقد ظهر الدليل تلو الدليل على براءة يوسف عليه السلام وطهارته ..

فقد شهد ببراءته شاهد من أهلها حين رأى قميصه قد من دبر .

وشهد العزيز ببراءته حين طلب من زوجته أن تستغفر لذنبها .

---

(٥٧) الآيات ٣٠ : ٣٥ من سورة يوسف .

وشهدت امرأة العزيز ببراءته حين قالت للنسوة : لقد راودته عن نفسي فاستعصم .

وشهدت النساء بطهارته حين قلن جميعًا : ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم .

فأي أدلة أخرى بعد ذلك يطلبون ؟

وأي آيات يريدون لإثبات براءته أكثر مما رأوا ؟

وهل يحتاج أي قاض إلى أكثر من تلك الأدلة التي رأوها ليحكم بالبراءة ؟

وهل هناك أكبر من اعتراف الجاني نفسه بجنايته ؟

والاعتراف سيد الأدلة كما يقول رجال القانون في كل زمان ومكان .

ولكن القضاء الظالم لا يحتاج إلى أدلة ، بل يصدر حكمه دون تفكير .

ويبطش بالبريء ويكرم المذنب ..

ويعاقب المظلوم ويبرىء ساحة الظالم ..

إنه يقلب الباطل حقًا والحق باطلاً ..

وهكذا وجد يوسف نفسه بين عشية وضحاها ، يعيش بين جدران السجن .. بين اللصوص والقتلة وقطاع الطريق ..

وأصبح أمام ابتلاء آخر ومحنة جديدة يمحصه الله بها ، ويختبر بها قدرته على مقاومة الشدائد ، واجتياز المصاعب ..

وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ..

ودخل معه السجن فتيان :

دخل يوسف – عليه السلام – السجن دون جريرة أو ذنب ، فسلم أمره لله ، ورضي بقضاء الله – عز وجل – وفي يقينه أن الله – سبحانه وتعالى –

قد أراد له الخير بإبعاده عن قصر العزيز وزوجته التى توعدته ونفذت وعيدها ، لأنه لم ينفذ لها رغبتها ونزواتها غير عابئة بالقيم الخلقية ، والأنماط السلوكية الحسنة التى تربى عليها يوسف ..

إن إبعاده عن هذا القصر - ولو إلى السجن - خير له من الحياة فى ظله ، تحت وطأ ة هذه المرأة العابثة ، وقد رضى يوسف بذلك وصبر عليه ، فكان خيرًا له .

قال وهب بن منبه : حمل يوسف إلى السجن مقيدًا على حمار ، وطيف به ، وجعل مناد يقول : هذا جزاء من يعصى سيدته ..

وهو يقول : هذا أيسر من مقطعات النيران(٥٨) وسرابيل القطران وشرب الحميم ، وأكل الزقوم .

فلما انتهى إلى السجن وجد فيه قومًا قد انقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ، فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا .

فقالوا له : يا فتى ، ما أحسن حديثك ، لقد بورك لنا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟

قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن نبى الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم(٥٩).

مكان سجن يوسف :

حكى المقريزى عن القضاعى قال : سجن يوسف - عليه السلام - بوصير من أعمال الجيزة . أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين ، أحدهما يوسف ، سجن به المدة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين ، وكان الوحى ينزل عليه فيه .

---

(٥٨) يقصد بمقطعات النيران : الثياب التى ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ - الحج ١٩ - .

(٥٩) تفسير القرطبى .

وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء يذكر أن كافور الإخشيدى سأل أبا بكر الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن .

والنبى الآخر.. موسى - عليه السلام - وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى .

وأخبر أبو الحسن على بن إبراهيم الشرفى ، قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن الورد قال : حدثنى يحيى بن أيوب عن يحيى بن بكير عن زيد ابن أسلم بن يسار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن جبريل أتى إلى يوسف فى هذا السجن فى هذا البيت المظلم ، فقال له يوسف : من أنت ؟ مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجهًا منك ؟

فقال له : أنا جبريل .

فبكى يوسف فقال : ما يبكيك يا نبى الله ؟

فقال : ما يعمل جبريل فى مقام المذنبين ؟

فقال : أما علمت أن الله تعالى يطهر البقاع بالأنبياء ، والله لقد طهر الله بك السجن وما حوله .

فما أقام إلى آخر النهار حتى أخرج من السجن .

وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى - وذكر سجن يوسف - : لو سافر رجل من العراق ليصلى فيه وينظر إليه لما عنَّفته فى سفره(٦٠).

وكان الناس يذهبون إلى هذا المكان فرادى وجماعات لمشاهدته والدعاء حوله .. تبركًا بإقامة يوسف - عليه السلام - فيه ، وهبوط جبريل - عليه السلام - .

---

(٦٠) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٨٧ .

لقد كان دخول يوسف السجن خيرًا وبركة على من فيه ..

قال ابن عباس : كان يعزى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله ، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهله ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسف .

وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ، ثم قال له : يا يوسف لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئًا مثل حبك .

فقال له يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال له : ولم ذلك ؟

قال : لقد أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى[٦١].

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن هناك قصة يذكرها بعض الرواة حول سبب بلاء يوسف بفراق أبيه ..

قال الدميرى : جاء فى الشفا للقاضى عياض أن سبب ابتلاء يعقوب بيوسف – عليهما السلام – أنه اجتمع يومًا هو وابنه يوسف على أكل حمل مشوى وهما يضحكان ، وكان لهما جار يتيم فشم رائحته واشتهاه وبكى ، وبكت جدة عجوز لبكائه ، وبينهما جدار ، ولا علم عند يعقوب وابنه بذلك ، فعوقب يعقوب بالبكاء أسفًا على يوسف .. وعوقب يوسف بالمحنة التى صار إليها .

فلما علم بذلك كان بقية حياته يأمر مناديًا ينادى على سطحه : ألا من كان مضطرًا فليتغذ عند آل يعقوب .

وقد عقب الدميرى على هذه القصة بقوله : وهذا الكلام لا أعتقد صحته ، وقد عجبت من القاضى رحمه الله كيف ذكره فى كتابه ..

---

(٦١) تفسير القرطبي .. وقد روى الزمخشري فى الكشاف ان الذى قال ذلك هما الفتيان .

مع أن الطبراني ذكر ذلك في معجمه الأوسط والصغير[٦١].

والدميري - رحمه الله - مصيب في رد هذا الخبر ، لأن أقل ما فيه مجافاته للعدل الإلهي .. إذ كيف يعاقبهما الله على بكاء طفل لم يعلما بخبره ولم يسمعا بكاءه .. اللهم إلا إذا كان هذا من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين» والنبي مكلف برعاية جيرانه كرعاية بيته ، وفي الحديث المشهور : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فما بالك إذا كان الجار يتيمًا ؟

عجبًا ، لقد خرج يوسف من ضيق القصر إلى سعة السجن ..

ولكن ، ليس ذلك عجبًا ، فلك أن تتصور ذلك الضيق النفسي الذي كان يعيش فيه يوسف في ذلك القصر ، ومع الضيق النفسي يضيق الفضاء الرحب ، كما أنه مع الراحة النفسية يتحول الضيق إلى رحابة واتساع .. وقد قال الحكماء :

سمُّ الخياط مع الأحباب ميدان

وعلى ذلك فقد آثر يوسف - عليه السلام - السجن - على ضيقه - على القصر - على سعته - .

وفي داخل السجن خصص وقته كله لله ومن أجل الله ..

كان يدعو إلى ربه ، ويبلغ رسالته للناس ، ويبشر بدينه بين هؤلاء القوم الذين هم في حاجة ليبصرهم بطريق الخير والصلاح ..

وقد ورد في آثار الكتابيين أن اليهود لاموا عيسى على جلوسه مع العصاة والمذنبين . فقال لهم : ما حاجة الأصحاء إلى طبيب ؟ بل الزمنى والمرضى هم الذين في حاجة إلى طبيب ..

---

(٦٢) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٦١ باب الحمل .

وهذه حكمة الله العليا في ابتلاء يوسف بالسجن .. لقد أراد به أن ينقذ قومًا من الضلالة إلى الهدى ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

أخذ يوسف يعلم نزلاء السجن القيم الحسنة ، ويبث فيهم حب الخير ، ويحاول أن ينزع من نفوسهم الشر ، ويقلم أظفار البغى ، ويحبب إليهم الفضائل ويعرفهم بالله وأنه هو الواحد القهار الذى لا شريك له ..

كان يحاول التعرف على الأسباب التى دفعت بهؤلاء النزلاء إلى السجن ويعالجها ، ويعظهم وينصحهم بالحسنى ، ويهون عليهم ما يلاقونه من متاعب السجن .

وبذلك حول يوسف - عليه السلام - حياة السجن إلى مكان للدرس والتعليم ، فأثمر تعليمه في كثير من المسجونين ، وأحبوه واقتدوا به ، وأقبلوا عليه راغبين فى العلم ، وفرحوا بوجوده بينهم ، وعرفوا الفضيلة وأحبوا الخير ، والتفوا حوله مطمئنين إليه مقبلين عليه واثقين فيه .

لقد أكرم الله - تعالى - نبيه يوسف برسالته ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، ووهبه القدرة على تفسير الرؤى ..

وكان فى السجن فتيان من حاشية الملك ..

والملك في ذلك الوقت من العمالقة ذكر بعض الرواة أن اسمه الريان ابن الوليد[٦٣].

وكان أحد الفتيين رئيس الخبازين عند الملك .

وكان الثانى هو كبير سقاته ..

وحكوا أن سبب دخولهما السجن هو أنهما وقعا تحت تأثير متآمرين على الملك زينوا لهما وضع السم للملك لقتله .. وأغروهما بمكافأة ضخمة إذا تمكنا من قتل الملك بوضع السم له .. الخباز يضعه فى الطعام ، والساقى يضعه فى الخمر أو الماء .

---

(٦٣) الكشاف للزمخشرى والقرطبى وابن كثير ..

إلا أن الساقى تراجع فى اللحظة الأخيرة ، ولم يضع السم فى الشراب الذى سيسقيه للملك ، أما الخباز فقد وضعه .

وأخبر الساقى الملك بالمؤامرة ، وقال له : إن الطعام مسموم فلا تتناوله .

فلما عرف الخباز أن الأمر انكشف قال للملك : لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم .

فأمر الملك الساقى بأن يشرب مما قدمه ، فشرب فلم يضره .

وأمر الخباز بأن يأكل من الخبز الذى قدمه فأبى أن يأكل ، فألقى الطعام لحيوان فأكله فمات .

فأمر الملك بحبسهما حتى ينظر فى أمرهما ..

ولعل هذين الفتيين قد سيما العذاب الشديد فى السجن ، فهما متهمان فى جريمة كبرى تهدد حياة الملك ، وأخذا يقارنان بين حياتيهما قبل السجن وبعده ، وأدركا أنهما قد جنيا على نفسيهما جناية عظيمة حين استجابا لسلطان المال ووقعا تحت الإغراء ووافقا على أن يقوما بالاغتيال ، مما أسلمهما إلى هذا المصير السيىء والمكان الموحش ..

ولكن الساقى كان يشعر فى داخله بالاطمئنان ، فإن دوره لن يتعدى أن يكون شاهد إثبات فى هذه القضية .. إلا أن إجراءات المحكمة تحتاج إلى وقت ..

وفى السجن تقرب الفتيان إلى يوسف ،وأنسا به كما أنس جميع النزلاء إليه ..

ووجدا فى كلامه برد راحة تسرى إلى قلبيهما ، فلزماه ..

وفى يوم استيقظ كلاهما على رؤية رآها فى نومه .. ففزع كل منهما إلى يوسف – عليه السلام – يقص عليه رؤياه – طالبًا منه تأويلها ..

قال الساقى : لقد رأيت فى نومى أنى أعصر الخمر فى كأس الملك من ثلاثة عناقيد ، أتناول عنقود العنب من البستان ثم أقوم بعصره فى كأسه ..

وقال الخباز : وأنا رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير ، وجعلت الخبز فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى ، فجاء الطير فأكل منه ..

وقالا له : نبئنا عن تأويل ذلك إنا نراك من المحسنين ..

لقد وصفاه بالإحسان ، وهى صفة مثلى ، تدل على الكمال الخلقى ..

ووصفاه بذلك لأن الرجل من أهل السجن كان إذا مرض قام به ، وإذا ضاق وسع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له(٦٤).

ولم يسرع يوسف إلى تأوي ما رأيا ، ولكنه تأنى .. على الرغم من معرفته بالتأويل ..

لقد وجد فى لجوئهما إليه فرصة لكى يعلن أمامهما - وليسمع الجميع - أنه نبى ورسول من قِبَل الله - تعالى - .

إنه ليس مجرد مفسر للأحلام ، فتلك مهمة يمكن أن يقوم بها كاهن من الكهان أو عراف من العرافين .. وما أكثر هؤلاء فى ربوع المدينة ..

ولكنه ذو دين يؤمن به ، وهو دين آبائه وأجداده من قبله ، بل هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ..

وهذا الدين يقوم على عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ عبادة الأصنام التى تتناثر فى كل مكان .

ثم إنه مؤيد من الله - تعالى - بالمعجزات ، وما تأويل الرؤيا إلا جزء مما علمه الله ، ومن معجزاته أنه لا يأتيهما طعام يرزقانه إلا أخبرهما به قبل أن يأتيهما ..

---

(٦٤) تفسير القرطبى .

وقد أبلغ كل من معه فى السجن أنه برىء من دين هؤلاء القوم الذين يحيطون به ، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولكن دينه الذى هو دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو الدين الخالص الذى ينزه الله عن الشريك ، ويقدسه عن المثيل ،.ولا يصفه إلا بكل جميل .

ثم دعاهم جميعًا إلى دينه وإلى عبادة ذلك الإله العظيم ، وترك هذه المعبودات التى لا تستطيع ضرًا ولا نفعًا ، وإن عبادتها لتجافى المنطق ، وتتأبى على الفطرة السوية السليمة .. ولا يوجد برهان صحيح أو منطق سليم أو دليل واضح على صحة عبادتها ..

لقد أعلن يوسف دعوته ، وأبلغ رسالته ، وأصاخ إليها أهل السجن جميعًا .. ثم قدم تأويل الرؤيا ليقوم صدق تأويله شاهدًا على صدقه فيما أبلغهم به من دعوته .. فعسى أن يقلعوا عند ذلك عن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد العلام ..

لقد قال للساقى : إن رؤياك تدل على أنك سيفرج عنك ، وتخرج من السجن إلى عملك الذى كنت تقوم به ساقيًا للملك ..

وقال للخباز : أما أنت فإنك ستصلب وتأكل الطير من رأسك ..

والواقع أن يوسف عليه السلام ، لم يخاطبهما صراحة بالتأويل .. ولم يعين أيهما الناجى وأيهما المقتول .. بل قال : أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ..

وقد ترك التعيين فى الخطاب كراهة المجابهة للمصلوب بمصيره ..

لقد ترك إلى فطنتهما وفطنة السامعين معرفة من سينجو ومن سيصلب ..

وكانت هذه لباقة منه .. والأنبياء لا تفوتهم اللباقة والحكمة فى الخطاب .

وانتهز يوسف فرصة خلوه بالساقى وطلب منه أن يذكر أمره عند الملك ، ويعرفه بأنه وُضع فى السجن ظلمًا وعدوانًا .

ولكن الساقي الذي أفرج عنه بعد أيام معدودة من تأويل رؤياه أنسته الفرحة خبر يوسف ، فلم يخبر الملك بشأنه .

فمكث يوسف في السجن بضع سنين .

قيل إنه مكث بعدد حروف « اذكرني » أي ست سنوات . والبضع كما فسره اللغويون العدد الواقع بين الثلاثة والتسعة ..

ولنقرأ الآيات الكريمة التي دلت على هذه المعاني :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾(٦٥)

---

(٦٥) الآيات ٣٦ : ٤٢ من سورة يوسف .

قال بعض الرواة : إن الخباز حين سمع التأويل صاح قائلاً : أنا لم أر شيئًا . فقال يوسف : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ..

وقد استنبط العلماء من ذلك حكمًا شرعيًا فقالوا : من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها ؟ وأجابوا عن ذلك بأنه لا يلزمه .. وإنما لزمه في هذه القصة لأن يوسف كان نبيًا ، وتعبير النبى حكم .. فقد أخبره الله – تعالى – بما سيئول إليه أمر الرجلين ..

وعلى نمط النبىّ يكونُ المُحدَّث ، وعمر – رضى الله عنه – كان مُحَدَّثًا – مصداقًا لقول النبى – ﷺ – : إن فى أمتى محدثين منهم عمر ..

فقد جاء رجل إلى عمر – رضى الله عنه – فقال : إنى رأيت أنى أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت – فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ثم تؤمن ثم تكفر ثم تموت كافرًا . فقال الرجل : ما رأيت شيئًا . فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف[٦٦].

وقد أمرنا النبى – ﷺ – بخصوص ما يراه الرائى فى نومه ألا نخبر بها إلا عالمًا ناصحًا ، وقال فى ذلك : « إن الرؤيا تقع على ما تعبر ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها ، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحًا أو عالمًا » .

هل نسى يوسف ربه ؟

حاشا ليوسف أن ينسى ربه – كما زعم بعض المفسرين – حين قالوا : « إن الضمير فى قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه » يعود على يوسف ..

إن يوسف نبى ، وما كان له أن ينسى ذكر ربه وهو الذى ظل يبشر بعبادته طول أيامه فى سجنه .. وإنما الضمير يعود على الساق ..

---

(٦٦) رواه عبد الرازق عن معمر عن قتادة وذكره القرطبي في تفسيره .

(٦٧) أخرجه الحاكم عن طريق عبد الرزاق عن أنس (٤ / ٣٩١) وقال : صحيح الاسناد – تفسير الأحلام ص ٦ .

إن الساق هو الذى نسى أمر يوسف ، بفعل الشيطان الذى لا يريد الخير لأحد من الناس فضلاً عن الأنبياء والصديقين ..

إن يوسف لم ينس ربه فى أشد الأوقات دفعًا إلى الغفلة حين دعته زليخا إلى نفسها .. فكيف ينساه فى أشد الأوقات دفعًا إلى التذكير وهو فى السجن .. ؟؟

وقد ذكر بعض المفسرين أن نسيان الساق أمر يوسف ، لأن يوسف – عليه السلام – قال له : اذكرنى عند ربك .. فكأنه استعان بغير الله – سبحانه وتعالى – فكانت النتيجة أن بقى فى السجن بضع سنين .

وربما كانت هذه العبارة صدرت منه عفوًا ، كما تخرج الكلمات من فم الإنسان عند الضيق .. وقد يكون فى ذلك لفت للتمسك بالأسباب التى قد أمرنا بالتمسك بها ..

وقد أثر عن ابن عباس قوله . النبى – ﷺ –: لو لم يقل يوسف الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث ابتغى الفرج من غير الله ..

إن يوسف ليس كجده إبراهيم – عليه السلام – الذى جاء إليه جبريل وهو ملقى فى النار ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ..

قال : أبلغها ربى . قال : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .

فقال الله للنار : كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ..

وعلى كل فهو إن لم يكن كإبراهيم – عليه السلام – فهو على دينه ويسير على هديه .. ويكفى أن يكون الله قد جعله من المخلَصين ..

روى عن أنس – رضى الله عنه – قال : أوحى الله إلى يوسف : من أنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب .

قال : فمن أنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يارب .

قال : فمن أنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يارب .

قال : فما لك تستغنى عنى وتذكر آدميا ؟

قال : جزعا وكلمة تكلم بها لسانى . قال : فوعزتى وجلالى لتبقين فى السجن بضع سنين .

يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى :

وقد آن أن يأتى الفرج ليوسف – ويخرج من ضيق السجن إلى فضاء الحرية وسعة الحياة . وقد اقتضت حكمة الله أن يجعل لذلك سببا .. وسبحان مهيىء الأسباب ..

لقد رأى الملك « الريان بن الوليد » رؤيا هالته واهتم بها .

رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن فى روضة هناك ، فخرجت سبع بقرات هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ، ثم ملن عليهن فأكلنهن . فاستيقظ مذعورا .

ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات أقبلن إليهن فأكلنهن . فاستيقظ مذعورا[٦٨].

استدعى الملك حاشيته ، وفيهم الكهنة والسحرة ومن يدعون العلم والمعرفة .. وأخبرهم بما رأى ثم قال : يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ..

لقد كانت رؤيا غريبة يستعصى تأويلها على ذوى الألباب .. وتأويل الرؤيا ليس فى إمكان كل إنسان ، ولكنه هبة من الله يمنحها من يشاء . إنها لون من الفراسة الصادقة والإلهام النورى يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ..

---

(٦٨) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٤٧ .

والفراسة الصادقة والإلهام النورى من صفات المؤمن المخلص الذى يجتهد فى عبادة ربه فتصفو لذلك مرآة قلبه ، فيطبع الله فيها من العلوم ما شاء . مصداقًا لقول الحق - تعالى - : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾[٦٩] ولقول النبى - ﷺ - : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ولقول الحكماء : إذا اعتادت النفوس ترك المعاصى جالت فى ملكوت الله فحصلت العلوم من غير أن يؤدى لها عالم علمًا ..

ولقد قال النبى - ﷺ - عن فراسة المؤمن : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله ..

وأين ذلك المؤمن الذى يرى بنور الله فى بلاط ذلك الملك الوثنى الكافر ؟؟

إن محصلات هؤلاء الكهنة المحيطين بالملك من العلم لا تعدو أن تكون مجموعة طلاسم وتمتمات واستعانة بالسحر والتنجيم .. وكل ذلك لا يغنى ولا يفيد فى تأويل هذه الرؤيا الغريبة التى رآها الملك ..

لقد نظر الكهنة والسحرة ومن فى البلاط جميعهم بعضهم إلى بعض ، وقلبوا الأكف ظهرًا البطن .. ثم قالوا : أيها الملك . إن ما رأيت أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ..

هنا تنبه الساقى ، وتذكر ما كان قد نسيه من أمر يوسف فأسرع إلى الملك متهللاً .. أيها الملك إن لدى من يستطيع تفسيرها .. إنى أعرف فتى حكيمًا فى السجن صدق فى تأويل رؤيا كنت قد رأيتها .. وهو على علم وبصيرة من أمره ..

وقص الساقى على الملك قصته وقصة زميله فى السجن حين عبر لهما يوسف ما رأياه ..

---

(٦٩) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

وأرسل الملك ساقيه إلى يوسف يستفتيه فى هذه الرؤيا التى رآها .. عله يجد عنده تفسيرًا لما رآه وينقذه مما هو فيه من حيرة وقلق ..

وما أسرع أن انطلق الساق إلى السجن .. وأفضى إلى يوسف برؤيا الملك طالبًا منه تعبيرها ..

وأحس يوسف – عليه السلام – أن الله – سبحانه وتعالى – قد آذن بالإفراج عنه .. وقد أصبح خروجه من السجن وشيكًا .. وأن هذه الرؤيا سبب هيأه الله لذلك ..

وأخبر يوسف الساق بتأويل رؤيا الملك العجيبة ، لم يبذل فى التأويل جهدًا ، ولم يستشر فى ذلك نجمًا ، ولم يبهمهم بعبارات غامضة يستدعى بها جنًا كما يفعل كثير من الأفاكين والمنجمين ..

لقد فسر الرؤيا من بحر العلم الذى وهبه الله إياه ، ومن فيض النبوة والحكمة الذى أفاضه الله عليه ..

وقال للساق : ارجع إلى الملك ومن حوله بهذا التأويل لعلهم يهتدون إلى الله ، ويتبصرون أمرهم ، ويدركون مدى الظلم الذى أذاقونى إياه ، ووضعونى به فى هذا السجن المظلم طوال هذه السنين الماضية ..

أما التأويل الذى أوله يوسف لرؤيا الملك فهو :

سيأتى على مصر سبع سنين خصبة ، يكثر فيها الخير ، تجود فيها الأرض بالغلات ، وتكثر الثمرات ، وتزدهر الحياة الاقتصادية ، ويسعد الناس ..

ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين شداد مجدبة ، ليس فيها نبت ولا حصاد ، تستنفد كل ما كان من نتاج فى السنوات السابقة ، ويصيب الناس جهدٌ شديد وعناء كبير ..

ثم يأتى بعد ذلك عام خصيب يغيث الله فيه العباد والبلاد ..

لقد جمع يوسف - عليه السلام - بين تأويله للرؤيا ووضع خطة عمل للملك ينقذ بها البلاد مما سيواجهها من قحط وجدب ..

بل وأضاف إلى ذلك بشرى لم تكن قد تضمنتها الرؤيا ، وهى أنه بعد سنوات الجدب سيأتى عام يغاث فيه الناس وفيه يعصرون ..

أما الخطة التى اقترحها على الملك ، فهى أنهم حين يحصدون القمح يتركونه فى سنبله - حتى لا يتعرض للسوس - ويخزنونه فى مخازن حصينة ، ولا يأخذون منه إلا مقدار ما يأكلون .. مع مراعاة الاقتصاد التام فى سنوات الخصب ليستطيعوا بعد ذلك مواجهة سنوات الجدب .. ويبقى لهم من البذر ما يمكنهم من الزراعة فى العام الثامن الذى يأتى بالخير .. عقب السنوات السبع المجدبة ..

إن ذلك علم ربانى ألهمه الله يوسف - عليه السلام - .

فقد قال الرواة : إنه لما دنا فرج الله ليوسف - عليه السلام - نزل جبريل - عليه السلام - فسلم على يوسف وبشره بالفرج ، وقال له : إن الله مخرجك من سجنك ومُمَكِّن لك فى الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويطيعك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك وهى كيت وكيت .. وتأويلها كذا وكذا ، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج . فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة وجعلها آخرا بشرى ورحمة [٧٠] .

وعاد الساقى مسرعًا متهللاً إلى الملك يخبره بذلك التأويل .. الذى كشف الغمة عن صدر الملك ، وأزال ما كان يعتمل فى صدره من ضيق وحيرة ، وزاد من سرور الملك ما صحب التأويل من خطة فيها نجاة وأمن وسلام . وقد حكى القرآن الكريم لنا ذلك بقوله :

---

(٧٠) تفسير القرطبى .

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(٧١)

ولنا أن نعجب من كرم يوسف – عليه السلام – وقوة صبره حيث أخبر الساقى بتأويل الرؤيا دون أن يشترط عليه الخروج من السجن أولاً .. وهو كرم أخلاق ومثالية نادرة تأبى المساومة ، وترفض الانتهازية ..

ولكن لا عجب فى ذلك حين ندرك أن هذه تربية الأنبياء ، الذين أدبهم الله . ولم يعلق همتهم إلا به ، وكلهم إليه ولم يكلهم إلى نفوسهم .. إنهم بالله يحيون وإليه يسعون .. بجلاله يسبحون وعليه يتوكلون ..

وقال الملك ائتونى به :

سر الملك من إخبار الساق له بتأويل يوسف لرؤياه ..

وكان من الطبيعى أن تهفو نفسه لرؤية هذا الحبر الجليل الذى فاق فى علمه كل من يحيطون به من كهان وأحبار ..

---

(٧١) الآيات ٤٣ : ٤٩ من سورة يوسف .

وأمر باحضاره إليه ، وتطلع إلى أن يكون من أصفيائه لأنه أدرك أن وراءه عقلاً نافذًا ورأيًا حصيفًا ومعرفة واسعة ، وبمثله تزدان دواوين الملوك وأبهاء السلاطين .

ولقد استنبط الملك بعقله صدق هذا التأويل لأنه رآه يتفق مع مجريات الرؤى ودلالاتها التى تشير إليها ..

وعاد الساقى بأمر الملك يطلب يوسف للمثول فى الحضرة الملكية ..

وربما ظن الساقى أن يوسف سوف يطير فرحًا بهذا الخبر ، وأنه سوف يلبى الدعوة فورًا .. لأنه سيفرج عنه أولاً ، وسيشرف بمقابلة الملك ثانيًا ..

ووجد الساقى فى سفارته ليوسف فرصة لرد جميله إليه ، فقد سبق وبشره بالنجاة من التهمة الموجهة إليه وعودته إلى عمله فى معية الملك ..

ولإعتذاره إليه عن تأخره فى ذكره عند الملك حينما قال له : اذكرنى عند ربك ..

كانت هذه الأفكار تجول فى خاطر الساقى حين طرق باب السجن ، ودخله ليقابل يوسف ، ويبلغه رسالة الملك بدعوته إليه ..

ولكن يوسف كان يشغله أمر آخر ..

لم يلتفت لكلام الساقى له : إن الملك اقتنع بتأويلك وأعجب بحصافة رأيك ورجاحة عقلك وحسن تدبيرك ..

كان يشغله حديث الناس عن سجنه . وأنه وضع فيه نتيجة لمؤامرة دبرت ضده ، وأنه متهم فى نظر الناس ، وأن هذه المرأة العابثة الماجنة جعلت الألسن تلوك سيرته .. فإنه لا يصدق أحد أن يوسف وضع فى السجن وهو برىء مما حيك له ..

وإذن فلابد من أن تطهر ساحته أولاً ، وأن يُبَرَّأ من تلك التهمة التى وضع من أجلها فى السجن ..

إنه زج به في السجن بدون محاكمة فلماذا ؟

وألقى به دون أن تحدد مدة لعقوبته فكيف ؟

إنه إن كان قد دخل السجن بدون تحقيق فلن يخرج منه إلا بتحقيق ..

ومن يملك ذلك ؟ إن الذى يملكه هو الملك ، الحاكم الأعلى للدولة ..

ومن يدرى ؟ فربما هناك كثير غير يوسف قد وضعوا فى السجن بدون تهم كيوسف .. ومتى غفل الحاكم الأعلى عن أمور رعيته .. تصرفت حاشيته كما يحلو لها باسم الملك ..

لقد أراد يوسف أن يصحح كثيرًا من الأوضاع التى رآها ..

أراد أن يكشف الزيف أمام الملك ، ويرفع الغشاوة عن عينه ، فيبصر كيف تحكم دولته باسمه دون أن يدرى عن ذلك شيئًا ..

أراد أن يلقنه درسًا فى أن يتابع معتقلاته بنفسه لعله يرى فيها مظلومًا رُكِّبت له تهمة ، وصيغت للتهمة قرائن ودلائل ، وزيِّف لها شهود ..

ألا ما أصدق نبينا الكريم فى حديثه المشهور : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالحاكم راع ومسئول عن رعيته »..

وما معنى الرعاية ؟ إنها تعنى اليقظة الكاملة لكل ما يحدث فى المملكة ، لا يكفى أن يكل الملك أمر الحكم إلى وزير مسئول ثم ينصرف بعد ذلك إلى شئونه الخاصة وملذاته وأهوائه ..

كلا ، بل هو المسئول الأول فعليه أن يتابع من ولاَّه ويراقبه فى أحكامه بعين فاحصة وعقل مفكر ورأى ثاقب ..

انظروا إلى أحد المثل العليا فى تاريخ الإسلام وهو يقرر نظام الحكم المثالى .. هذا هو عمر بن الخطاب يقول يومًا لمن حوله : « أرأيتم إذا

استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما علىّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟[٧٢].

إنه لم يُنه مسئوليته بحسن اختيار واليه أو وزيره أو رئيس وزرائه .. ولكنه اعتبر أنه مسئول عن حسن رعايته لما تولاه ، وحسن تنفيذه لما سمع من أحكام وعرف من دساتير ..

هكذا أراد يوسف أن ينبه الملك إلى واجبه ومسئوليته عن طريق هذه الفرصة الذهبية التى لاحت له ..

ولذلك لم يستخفه الفرح حين طلب إليه الساق مصاحبته إلى الملك .. ولم يسرع إلى تلبية الأمر . شاكرًا للساق حسن سعيه وللملك حسن تقديره .. ولكنه قال للساق :

أنا لن أبرح مكانى فى السجن قبل أن يُسأل من سجننى لماذا سجننى ؟

ارجع أيها الرسول مشكورًا إلى مليكك واطلب إليه أن يسأل هؤلاء النسوة اللاتى قطعن أيديهن : لماذا قطعن أيديهن ؟ ويسأل امرأة العزيز عن القصة الكاملة التى جرت وانتهت بما انتهت إليه من إدخالى السجن وإلقائى فى غياهبه .

لقد كان يوسف حصيفًا فى ذلك ، فلو خرج فور صدور الأمر إليه ، لاعتبر أنه سجين صدر الأمر بالعفو عنه .. وبقيت التهمة التى حيكت له لاصقة به إلى ما لا نهاية ، تلاحقه النظرات حيثما كان : هذا هو الذى عوقب بالسجن جزاء ما اقترفت يداه من كذا وكذا .. ثم تلطف به الملك فعفا عنه .

لقد كان تصرف يوسف عزيمة من غير شك ، تنبىء عن شخصية قوية وحسن إدراك للأمور .. إنه التوفيق من الله الذى قاده إلى هذا التصرف الحسن .

ولقد حمد النبى – ﷺ – موقفه هذا حتى قال عنه : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » ..

يعنى لأسرعت إلى الخروج من السجن فور دعوة الداعى لى ..

ولقد قال النبى - ﷺ - هذا على سبيل التواضع والهضم من النفس .. وإلا فهو - ﷺ - قدوة فى كل خُلق حسن وتصرف سليم ..

إنه يريد أن يكرم إخوانه من الأنبياء والرسل ، ويرفع من أقدارهم ويبرز جوانب عظمتهم وقدرتهم على تحمل الشدائد .

وعاد الرسول إلى الملك يخبره بما طلبه يوسف ..

وكأن الرسول قد نبه من الملك غافلاً .. فسرعان ما استدعى امرأة العزيز والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ..

وسألهن الملك عن القصة فأقررن بالحقيقة كاملة .. وأثبتن براءة يوسف مما نسب إليه ، ونزاهته وعفته ..

فقد قلن جميعًا : حاشا لله ما علمنا عليه من سوء ..

وكانت إجابتهن هذه - وهن شهود الواقعة ، وهن قد قطعن أيديهن حين رأينه - دافعًا لامرأة العزيز بالاعتراف الكامل أمام الملك ، فقد رأت أن الحقيقة قد أصبحت واضحة ، وأنه لا مجال للشك فى يوسف ، فقالت : أنا راودته عن نفسه فلم يستجب ، وأنا التى دبرت أمر دخوله السجن . وإن يوسف برىء من كل ما نسب إليه ..

قالت ذلك صراحة فالآن قد حصحص الحق .. أى ظهر واضحًا ..

ولقد أقرت بذلك أمام الجميع ، وكان يوسف ما زال فى السجن لم يخرج بعد .. ولذلك قالت : ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى لم أنتهز فرصة غيابه وأتهمه كذبًا وظلمًا ، فالله لا يهدى الخائن ولا يوفقه . ثم اعترفت بأن ذلك كان منها زلة نفس ، والنفس أمارة بالسوء ، ولا ينجو من وسوستها إلا من رحمه الله ، ووفقه للتنبه لها والتغلب عليها .

والأنسب أن يكون هذا القول الذى حكاه القرآن من كلام امرأة العزيز ، فهى التى اعترفت بالحقيقة فى غيبة يوسف فى السجن .. وكان فى إمكانها أن تدفع عن نفسها وتلقى الشبهة على غيرها .

لقد رأت أن فى الاعتراف راحة لضميرها ، وتبرئة لساحة من تحبه . وهذه هى التضحية التى يفرضها الإخلاص فى الحب والتفانى فى المحبوب .

ثم إنها لم تجد مفرًا من الاعتراف بعد أن رأت النسوة قررن طهارة يوسف . فإذا كان من لم يحببنه حبها شهدن فى صالحه فهى من باب أولى تسرع إلى الاعتراف بأنها هى التى حاولت إيقاعه وإغراءه مهما كلفها ذلك الاعتراف من تبعات .. مبررة ذلك بأن النفس الإنسانية معرضة للشهوات مستعدة للنزوات إلا من عصم الله ..

وهذا هو ما يتمشى مع سياق الآيات ومفهوم القصة ..

أما أن يكون هذا القول واردًا على لسان يوسف ففيه قطع للسياق ، وفيه وهم بأن يوسف – عليه السلام – وهو – النبى المعصوم – قد خطر بقلبه ميل إلى الهوى . وهذا ما يجل عنه قدر الأنبياء عليهم السلام ..

أما نسبة هذا القول إلى العزيز على اعتبار أنه لم يخن يوسف بالغيب لأنه توسم فيه الخير وائتمنه على بيته . وإن كان لا يبرىء نفسه من سوء الظن به لحظة وقوع الحادث لشدة مفاجأته ووقعه على نفسه فهو بعيد أيضًا .

وأما كون النفس أمارة بالسوء فتلك حقيقة واقعة لا يكاد ينجو منها أحد .. والنفس الأمارة أولى مراتب النفس عند أهل الذوق والمعرفة الذين يقولون : إن مراتب النفس سبعٌ ، تبدأ بالأمارة ، فالنفس اللوامة ، فالنفس الملهمة فالنفس المطمئنة فالنفس الراضية ، فالنفس المرضية ، فالنفس الكاملة ..

وإذا لم تكن نفوس الأنبياء فى المرتبة العليا من الكمال فأى نفوس تكون فيها ؟

وفى التحذير من النفس الأمارة يقول النبى – ﷺ – : ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ؟ قالوا :

يا رسول الله هذا شر صاحب فى الأرض . قال : فو الذى نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم[73]. وهذا يعنى وجوب جهادها .

ولقد حكى القرآن بأسلوبه المعجز هذا الحوار فى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[74]

قال اجعلنى على خزائن الأرض :

خرج يوسف من السجن مرفوع الرأس ، وضاح الجبين ، طاهر الذيل ، برىء الساحة ..

لقد ظهرت براءته ظهور الشمس فى رابعة النهار ، واتضح أنه كان ضحية كيد دبرته امرأة العزيز ، وما أعظم كيد النساء .. قيل إن الله خلق الشيطان واستضعف كيده فقال فى حقه : ﴿ إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفًا ﴾[75]. وخلق المرأة واستعظم كيدها فقال : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾[76]..

ووصل يوسف إلى بلاط الملك ..

---

(٧٣) تفسير القرطبى .

(٧٤) الآيات ٥٠ : ٥٣ من سورة يوسف .

(٧٥) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٧٦) الآية ٢٨ من سورة يوسف .

ورآه الملك فأعجب بمرآه ، وأدرك أن ما وصل إليه من أخبار كانت دون ما رآه ..

لقد رأى وضاءة ظاهرة ، وصورة باهرة ، ورجلا تملأ هيبته أقطار النفس ، وتهز بهجته أوتار القلب ، ويأخذ حسنه بمجامع العقول .. فلما تحدث معه وجد عقلاً راجحًا ، وبيانًا شافيًا ، وحكمة بالغة ، وحجة قاطعة .

قيل : إن يوسف حين دخل على الملك . دعا قائلاً : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره ..

ثم سلم على الملك بالعربية .. فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟

قال : لسان عمي إسماعيل ..

ثم دعا بالعبرانية فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟

قال : لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وقالوا : إن الملك كان على علم بلغات عدة .. فكان كلما كلم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ..

فأعجب به الملك أيما إعجاب(٧٧).

ولما كان المظهر ينبيء عن المخبر في كثير من الأحوال فقد كان وراء ذلك كله خلق رفيع ، وأدب جم ، ووفاء كريم ، ومروءة منقطعة النظير .. وكيف لا يكون كذلك وقد اختُبر فظهر معدنه الشريف وبان فضله العظيم ؟ .. ألم يعف عن أجمل نساء عصرها وقد عرضت نفسها عليه ؟ ألم يعرض عنها وقد خرت راكعة بين يديه ؟ ألم يعزف عنها في إباء وترفع وهي متهالكة في أبهى زينتها تحت قدميه ؟

---

(٧٧) تفسير القرطبي .

إن التفريط في استعمال هذا الرجل في شئون الدولة حمق .. هكذا قال الملك في نفسه .. ثم أتبع هذا الحديث النفسي بالفعل ..

أقبل يا يوسف فإن مثلك لا يظل واقفًا بعيدًا .. واجلس إلى جانبي ، فإن من حقك أن تشاركني هذا المنصب الذي أنا فيه ..

وأجلسه معه على سريره .. وأحب أن يشنّف آذانه بحديثه فقال له : أحب أن أسمع منك تأويل رؤياي ..

فعبرها يوسف له بأكمل بيان وأتم عبارة .

فلما سمع الملك منه ذلك قال له : إنك اليوم لدينا مكين أمين .

يا يوسف ، اختر العمل الذي يناسبك أُولك إياه .. أنا لا أريد أن أفرض عليك أمرًا قد لا تقبله نفسك أو لا يرتاح إليه قلبك .. فاختر ما تشاء ..

فقال يوسف : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ..

لقد اختار يوسف أشق عمل في الدولة وبخاصة في أيام الحرج المقبلة والتي كشفت عنها رؤيا الملك ..

هذا العمل هو الإشراف على خزائن الأرض وما تحتوى عليه من غلات صادرة وواردة ، وعلى توزيعها على الناس بميزان العدل الحكيم ، حتى لا تتعرض البلاد لمجاعة جائحة تهلك الحرث والنسل .. إنه عمل تقوم به وزارتان – بلغة العصر الحاضر – وهما وزارتا التموين والاقتصاد ..

لقد اختار عملاً شاقًا في ظروف حرجة .. ولكنه واثق من إعانة الله له عليه .. فهو يعلم أن الله أرسله في هذا البلد الطيب ليؤدى فيها رسالة دينية وإصلاحية في الوقت نفسه ..

والعلماء يقولون في ذلك : «إنه لا حرج إطلاقًا أن يذكر إنسان نفسه بما هو عليه من صدق وعلم ، بشرط أن يكون على تمام الوثوق من صدقه وعلمه ، وألا يكون قد ذكر ذلك استكبارًا وعلوًا ورياء »[٧٨].

---

(٧٨) يوسف الصديق ص ٧٩ .

لقد قال يوسف ما قال وطلب ما طلب « ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله – تعالى – وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا »[٧٩].

وكان قطفير زوج زليخا هو الذى يتولى أمر الوزارتين .. فعزل ، وتولى يوسف مكانه ..

وقيل : إنه لم يعزل ولكنه كان قد مات ، فخلا المنصب فتولاه يوسف ..

وقالوا : إن الملك لم يول يوسف العمل فورًا ، ولكن كان ذلك بعد عام من لقائه معه .. وأوردوا فى ذلك حديثًا رووه عن ابن عباس – رضى الله عنه – : « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكن أخر ذلك عنه سنة » .

وقد تكلم النقاد فى هذا الحديث[٨٠] بما يوهنه ..

فإن يوسف لم يقل قولته تلك تهافتًا على المنصب أو رغبة فيه ، بل استجابة للدواعى والظروف التى ستمر بها البلاد ، والتى تتطلب سرعة التدبير لمواجهة ما سوف يجىء من محن .

ولذلك لا يستبعد أن يكون الملك قد ولَّى يوسف منصبه فورًا ، خصوصًا وأن الآيات الكريمة لم تشر إلى تأخر تسلم منصبه ، بل جاء عقب طلب يوسف ما يدل على أن الله مكنه فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ..

وكان يوسف – عليه السلام – عند حسن ظن الملك ، واستطاع أن يدبر أمر الأمة خير تدبير ، وأن يحافظ على أقواتها ، وأن يعبر بها الأزمة

---

(٧٩) تفسير الكشاف للزمخشرى .
(٨٠) راجع تعليق محقق الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٢ .

التى كانت تنتظرها ، واستطاع إلى جانب ذلك أن ينشر العدل فى ربوع البلاد وأن يرفع الظلم عن كاهل العباد ، وأن يعيد إلى الناس أمنهم واطمئنانهم الذى كانوا فقدوه فترة طويلة من الزمان .

ولم ينس يوسف – عليه السلام – فى خلال ذلك أمر الرسالة التى كلف بها من ربه ، فقد تمكن من موقعه أن يدعو إلى الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ..

وهكذا أصبح يوسف بين عشية وضحاها صاحب الكلمة النافذة فى مصر ، والوزير المطلق اليد ، يطيعه الجميع ويأتمرون بأمره ..

لقد كان إيوانه الذى يحكم منه قريبًا من إيوان الملك ..

قالوا إن الملك قلده سيفه ووضع له سريرًا مُذَهَّبًا ، مُحَلًّى بأنواع الزينة ، وتُوِّجه بتاج ثمين ، وأطلق يده فى عسكره ، فدان له الجميع بالطاعة والولاء .. لم يكن هناك فرق بين الملك ويوسف إلا الكرسى ..

وشمر يوسف عن ساعد الجد فى الاستعداد للمرحلة القادمة . فأخذ يتفقد أحوال الأرض ، وأمر المحاصيل الزراعية ويعمل على المحافظة عليها .

وأخذ فى بناء المخازن والصوامع التى تحفظ فيها الغلال من التلف والسوس ، استعدادًا لسنوات القحط القادمة ، فنعمت البلاد بالخير فى عهده ، وعم الرخاء جميع الناس ، وشهد بكفاءته الكبير والصغير ، وأصبح محط أنظار جميع الناس ، يتحدثون عنه بكل جميل ، ويشيدون بحكمته ، ويثنون على حسن تصرفه .

هل تزوج يوسف زليخا؟؟

يحكى الرواة أن الملك زوَّج يوسف . وكانت سنه إذ ذاك ثلاثين عامًا .

قالوا : زوَّجه ابنة أحد الكهان واسمها« أسنات بنت فوطى »[81]..

---

(٨١) قصص الأنبياء للنجار ص ١٦٧ .

وقال بعضهم : إنه تزوج من زليخا نفسها .. ولهم في ذلك أقاصيص .. منها أن « قطفير » زوجها قد هلك ، فتزوجها ، فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خير مما كنت تريدين ؟

فقالت : أيها الصديق لا تلمني ، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن ، فغلبتني نفسي . فوجدها يوسف عذراء ، فولدت له ابنين هما : إفرائيم ومنشا[82].

وقالوا : إن زوجها كان قد مات ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف ، وكان يوسف يركب كل أسبوع مرة في موكب منيف ، فتعرضت له يومًا ، حتى إذا أقبل في موكبه نادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم .

فاستدعاها وقال لها : من أنت ؟

فقالت : أنا التي كنت أرجّل جُمّتك بيدى ، وتربيت في بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوى ، فذقت وبال أمري ، فذهب مالي ، وتضعضع ركني ، وطال ذلي ، وعمي بصرى ، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس ، فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ..

فبكى يوسف بكاءً شديدًا ..

ثم قال لها : هل تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئًا ؟

فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها ..

---

(٨٢) القرطبي ، والكشاف .

ولما مضى إلى منزله أرسل إليها من يقول : إن كنت أيّمًا تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ..

فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزىء بي الملك ، لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي ، أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟

فأعلمه الرسول بمقالتها ..

فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زفت إليه .

فقام يوسف يصلي ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها . فرد الله عليها ذلك إكرامًا ليوسف – عليه السلام – ..

فعاشا في خفض عيش ، كل يوم يجدد الله لهما فيه خيرًا .. وولدت له ولدين[٨٣] ..

ولكن هذه القصة تتعارض مع قوله – تعالى – : ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ﴾ وذلك في مجلس التحقيق الذى انعقد لإثبات براءة يوسف .. فلو أنها كانت عمياء فقيرة تتكفف الناس كما تذكر هذه القصة لما جاءت إلى المجلس واعترفت ..

وأغلب الظن أنها قصة موضوعة للعظة والاعتبار ، وبيان أن الأيام دول ، وأن الحياة لا تدوم على حالة واحدة ..

وما أشبه هذه القصة بقصة « خرقاء بنت النعمان بن المنذر » قيل : كانت أحسن نساء زمانها جمالاً وأفصحهن مقالاً ، وأكملهن عقلاً وأدبًا .. جاءت إلى سعد بن أبى وقاص بعد فتح الحيرة وقد تبدلت حالها ، وأصبحت في حالة يرثى لها ، وهى تطلب صلته .. ثم أنشدته بين يديه :

---

(٨٣) تفسير القرطبى..

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا		إذا نحن فيهم سوقة نتكفف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها		تقلبُ تارات بنا وتصرف

فأكرمها سعد وأحسن صلتها . فدعت له قائلة : لا نزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك الله سببًا لردها عليه[٨٤].

وعلى كل فزواج يوسف من زليخا ليس أمرًا عجيبًا ، وبخاصة أنها لم تسقط ، وأن ما حدث منها كان بسبب شدة حبها ليوسف ، وأن ذلك العرض منها لم يكن لغيره ، بدليل أنه وجدها عذراء ..

وقد تابت وحسنت توبتها . فما المانع الذى يمنع زواج يوسف منها ؟ وإن كان العلاَّمة ابن الخطيب ينفى ذلك الزواج نفيًا تامًا ويقول فى ذلك : « أما ما قيل من أن يوسف قد تزوج بعد ذلك امرأة العزيز وأنجب منها فهو من أقاصيص القصاص وأباطيلهم ، فما كان ليوسف أن يتزوج بغيًا ، أرادت إكراهه على الإثم والفسوق ، وشاع فى الأمة إثمها وفجورها »[٨٥]..

وربما دفع ابن الخطيب - رحمه الله - إلى هذا القول رغبتُه فى رفع مقام الأنبياء عن مكان الاتهام ، وتجنيبهم سوء الظن بهم .. وهى رغبة إيمانية محمودة .. ولكن زليخا - لم تكن بغيًا - فالبغى الزانية التى تتاجر بعرضها .. وهى ليست كذلك .. إن حسن يوسف فتنها وغلبها على عقلها وهى وإن دعته إلى نفسها بدافع العشق والوله إلا أنه لم يفعل .. فما زالت حرة على الرغم مما حدث .. وما ذنبها أن عشقت أجمل خلق الله يومئذ ؟ والهوى قدر لا يملك المرء له دفعًا .. والشاعر العربى يقول :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر		لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

---

(٨٤) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب بنت على بن حسين ص ١٨٣ .
(٨٥) يوسف الصديق ص ١٠٦ .

وعلى الرغم من كل ذلك فنحن نقف مع الرأى القائل بأن يوسف عليه السلام لم يتزوج امرأة العزيز لأن هذا الرأى هو الأليق بمكانة يوسف عليه السلام وفيه درء للشبهات .

ثم لنقرأ الآيات الكريمة التى تحدثت عن تمكن يوسف فى الأرض ، وخضوع الرقاب له :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[٨٦]

لقد مكن الله ليوسف فى الأرض ، وكان تمكينه وسيلة لإعلان الدعوة إلى الله .. وهـ ، مسئولية كل من خوله الله سلطة فى الدنيا مصداقًا لقوله – تعالى – : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٨٧].

قال العلماء : هو شرط شرطه الله – عز وجل – على من آتاه الملك ، ومن وهبه السلطة والقيادة والإمارة[٨٨]، ومن جعله رئيسًا فى موقع من المواقع . والأنبياء هم القدوة العليا فى ذلك . فحين تمكن يوسف فى الأرض قام بما يجب عليه نحو الله . حتى أسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وكان يزداد تأثيره فى قلوبهم بما يقوم به من إصلاح وحسن تدبير . فقد أقام العدل حتى أحبه الرجال والنساء جميعًا .

---

(٨٦) الآيات ٥٤ : ٥٧ من سورة يوسف .

(٨٧) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٨٨) القرطبي – تفسير سورة الحج جـ ١٦ ص ٤٤٦٥ ط دار الشعب .

وكان فى سنى القحط يجيع نفسه ولا يشبعها ، فسئل عن ذلك فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع .

وأمر طباخ الملك أن يضع له طعامه نصف النهار ، حتى يذيقه لذع الجوع ، فلا ينسى الجائعين(٨٩).

وهذه هى السياسة القويمة التى يجب أن يضعها الحكام أمام أعينهم . أن يتذكروا ضعاف الناس فى رعيتهم ، وأن يتفقدوا أحوالهم ، وأن يسدوا جوعة الجائع وخلة المحتاج ولوعة المظلوم وحيرة المهضوم .

وجاء إخوة يوسف :

ومرت السنوات السبع الأولى التى كانت مليئة بالخير ، حافلة بالدَّر ، مباركة الثمر ، وافرة المحصول ..

وكان قد ادخر فى خلالها ما زاد عن حاجة الناس فى خزائن حصينة ، وكان يوزع الطعام بالقسطاس ، حتى لا يأخذ أحد أكثر من حاجته ، أو يحتكر من طعام الناس ما هم فى حاجة إليه ..

ثم أقبلت سنوات القحط بوجهها الكالح وحرها اللافح ..

أمسك النيل عن الفيضان ، وبخلت السماء بالأمطار ، وأجدبت الأرض ، وهلك الحرث والنسل ..

وهرع الناس إلى يوسف يطلبون الغوث فكان عند حسن ظنهم ..

كان قد أعد عدته لتلك الأيامَ العصيبة .. فكان يعطيهم بقدر حاجتهم ، ويعلمهم كيف يقتصدون ويواسون . فإن الاقتصاد نصف المعيشة . وفى المواساة رحمة وبركة ، ومع القناعة يصبح القليل كثيرًا ..

---

(٨٩) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٣٤٨ .

كان يعطى ، ويعظ ، ويرشد .. واكتسب الناس منه أنماطًا من السلوك الحميد كانوا فى غفلة عنها .. وتعودوا أن يحمدوا الله فى الضراء كما حمدوه فى السراء ..

ولذلك مرت سنوات القحط ولم يشعر المصريون بمذاقها ، بل ربما نعموا فى خلالها بنفحات روحية بدلت الشقاء نعمة وجعلت البؤس رحمة ..

وكان لا يعطيهم بدون ثمن ، حتى لا يعودهم الدعة ، ولا يشعرهم بالتواكل ، فما زال يأخذ منهم أثمان ما يقدم لهم حتى بذلوا فى ذلك الكثير من الأموال . وعندما انتهت السنوات العجاف بسلام أعاد إليهم كل ما أخذ منهم .. فما أعظم هذه السياسة وما أقوم ذلك التدبير ..

وحين جاء القحط كان عامًا ، تعدَّى مصر إلى ما جاورها من البلاد فشمل فلسطين التى كان يقيم بها أبوه وإخوته ، وجاع أهلها كما جاع غيرهم ..

وتسامع الناس هناك بأن فى مصر وزيرًا عادلاً حكيمًا ، أعد لهذا الأمر عدته ، واحتاط لهذه السنين العجاف ، وعرفوا أن الناس فى مصر فى مأمن من العالة والجوع ، لا يعانون مما يعانى منه غيرهم فى البلاد الأخرى ، ووصلهم من الأخبار أن الطعام فى مصر موفور يزيد على حاجة المصريين . وأن القوافل تقصدها من مختلف البلاد يمتارون ويبيعون ويشترون ..

وقد أصاب يعقوب – عليه السلام – وأولاده ما أصاب الناس ، فطلب إليهم أبوهم أن يرحلوا إلى مصر كما رحل غيرهم لشراء ما يلزمهم ويفى بحاجتهم من الطعام ..

وساروا – وهم عشرة إخوة – فى قافلة من الخيل والجمال ، يحملون معهم من البضائع ما يستبدلون به الطعام . كانت هذه البضائع النعال والأدم ، وهو ما يتجر فيه أهل تلك البلاد ..

ووصلوا إلى مصر ، وسألوا عن وزيرها الذى يبيع للقادمين الأقوات . فدلهم الناس عليه ..

وحين نظر إليهم عرفهم ، ولكنهم لم يعرفوه ..

لقد مرت سنون طويلة حين ألقوه فى غيابة الجب وانصرفوا عنه بعد أن باعوه بدراهم معدودة ..

ولم يصيخوا يومئذ لتوسلاته الباكية ، ولا لوداعه الحار لهم ..

وها هو ذا الآن فى أبهة الملك وجلال السلطان ..

كبرت سنه ، وتغيرت ملامحه ، كان طفلاً وأصبح رجلاً ، وكان بدويًا فأصبح حضريًا ، وللمصريين زى خاص أصبح يرتديه ، وهو مخالف لزيهم .. واللغة مختلفة ، فلسانهم عبرانى ، ولسانه الآن قبطى .. حقًا إنه يعرف لغتهم ، ولكنه الآن يتحدث بلغة مصر ، وهى اللغة القبطية القديمة ..

هم لم يعرفوه يقينًا – ولا داعى لقول من يقول : إنه حين رآهم وضع فوق وجهه قناعًا حتى لا يعرفوه – .

ولكنه بنور الله عرفهم ، وهم كما هم تقريبًا لم يتغيروا كما تغير هو ، فقد كانوا رجالاً ، وملامح الرجال لا تتغير كما تتغير ملامح الصغار حين يكبرون ..

ودار حوار بينه وبينهم كما يدور فى مثل هذه الحالة ..

فقد وجدهم عشرة رجال غرباء ، ليسوا من أهل تلك البلاد ، فلابد أن يكون السؤال حول ذلك .. قال لهم :

من أنتم ؟ وما شأنكم ؟ فإنى أنكركم ..

قالوا : نحن قوم من أهل الشام ، رعاة ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

قال : لعلكم جئتم عيونًا تنظرون عورة بلادى ؟

قالوا : معاذ الله نحن إخوة ، بنو أب واحد ، وهو شيخ صِدِّيق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم أنتم ؟

قالوا : كنا اثنى عشر ، فهلك منا واحد .

قال : فكم أنتم ها هنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟

قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون ، وأن الذى تقولونه حق ؟

قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم رهينة عندى ، وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ..

فاقترعوا فأصابت القرعة « شمعون » وكان أحسنهم رأيًا فى يوسف ، فخلفوه عنده[٩٠].

لقد تظاهر يوسف بعدم معرفتهم لحاجة فى نفسه ، وهى أن يستقدم أخاه إليه فى مقدمة لإحضار أبيه بعد ذلك ..

فكان أن دار ذلك الحوار الذى دار ..

ويقول بعض الرواة : إن يوسف جاء بصواع الملك الذى يشرب فيه ، فوضعه على يده ونقره فطنَّ الصواع . فقال يوسف : إن هذا الصواع يخبرنى عنكم خبرًا .. وأخبرهم بما تحدث منهم ليوسف .

---

(٩٠) تفسير الكشاف .

فقام أحدهم إليه وقال : أناشدك بالله ألا تكشف لنا عورة .. ثم قالوا : نحن قد جئنا لشراء القمح والقوت من عندكم لما سمعناه عن كرمكم وفضلكم ، ونحن مسالمون لم نحضر لأذى ولا لأى شيء آخر سوى حمل الطعام لأهلنا ، وإنقاذهم من الجوع والقحط الذى حل بأرضنا ..

فقال لهم يوسف – عليه السلام –: هل يوجد من يشهد لكم بصحة ما تقولون ؟

قالوا : نحن لا نعرف أحداً فى تلك البلاد لأننا غرباء عنها .

فقال لهم يوسف : سأعطيكم ما تريدون من القوت والقمح هذه المرة . ولكن إذا حضرتم مرة أخرى بدون أخيكم الذى خلفتموه وراءكم فلا كيل لكم عندى .. فليكن هو الشاهد الذى يشهد بصحة ما ذكرتموه ..

لقد كان الأخ الذى تركوه مع أبيهم هو «بنيامين» وهو شقيقه ، فأمهما هى «راحيل» وقد أراد يوسف أن يطمئن عليه ويراه . وربما كان يخشى أن يتكرر معه ما حدث له ..

وحين طلب منهم إحضار أخيه قالوا له : إن أباه يخاف عليه ، وقد لا يوافق على إرساله معهم ، ولكنهم وعدوه أنهم سيبذلون معه جهدهم ، لعله يوافق على ذلك ..

وأنهى يوسف مقابلته معهم ..

وأمر القائمين على شأن الحبوب أن يوفوا لهم الكيل ، وأن يجعلوا بضاعتهم التى حملوها معهم ثمنًا للطعام فى رحالهم – دون أن يشعروا – وكانت الأثمان قديمًا معارضة فى أغلب الأحيان ..

وقد روى بعض رواة الأخبار أن يوسف حين وصل إخوته وعرفهم أمر بإنزالهم دار الضيافة ، فمكثوا بها ثلاثة أيام دون أن يقابلهم ، أو يأذن فى قضاء حاجتهم حتى ضجوا من ذلك . وشكوا إلى الحاجب الذى حمل

شكواهم إلى الملك ، فقال له : قل لهم يأتونى بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم[٩١].

وهذه الرواية تناقض ما جاء فى النص القرآنى وما فيه من حوار دار بينه وبينهم ..

وهذا هو النص القرآني الذى يصور هذه الأحداث :

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٩٢]

وإنا لنرى يوسف – عليه السلام – قد تألفهم وتوعدهم فى الوقت نفسه ..

أما تألفه لهم فهو تذكيرهم بأنه خير من يوفى الكيل ، وخير من يكرم الضيوف ، وهو بذلك لا خوف على أخيهم حين يأتون به ..

أما توعدهم فقد لوح لهم بعدم إعطائهم حبوبًا بعد ذلك ما لم يأتوه بأخيهم ..

وهو يعلم تمامًا أن ذلك التهديد سوف يحزن أباه .. فلماذا ارتضى ذلك ؟

لعله ارتضى ذلك ليعظم فرحة أبيه بلقاء ابنيه معًا بعد أن كان قد حرم من رؤيته فترة طويلة من الزمن .. أو ليكثر من مضاعفة الثواب لوالده بصبره على مضاعفة الابتلاء ، أو لعل ذلك كان بوحى من الله سبحانه وتعالى ..

---

(٩١) بدائع الزهور ص ١٠٢ .

(٩٢) الآيات ٥٨ : ٦٢ من سورة يوسف .

يا بني لا تدخلوا من باب واحد :

وربما تعجب القائمون على أمر الطعام من يوسف حين أمرهم بوضع بضاعة الإخوة فى رحالهم .. وقد يكون بعضهم قد راجعه فى ذلك . وربما كانت هيبته تحول دون المراجعة ، فقد أذل الله له الرقاب ومكن له فى نفوس الجميع ، وأصبحت كلمته نافذة وإشارته أمرًا وأمره مطاعًا ..

وقد يكون أزال الشك من نفوس مَنْ تَعَجَّبَ – إن كان هناك من تعجب – فقال له : إنه فعل ذلك لأنه واثق من عودتهم إليه ، فيتقاضى منه المقدم والمؤخر ، أو أنه فعل ذلك إغراء لهم بالعودة لأنه يعرف عنهم أنهم لن يقبلوا الطعام إلا بثمنه ..

وعلى أى فقد رحل الإخوة دون أن يعرفوا أن بضاعتهم ردت إليهم مع ما اشتروه .

وعادوا إلى بلادهم وهم محملون بالميرة التى تعينهم على مواجهة الجدب ومقاومة الجائحة .

وفرح أبوهم بمقدمهم وبعودتهم سالمين ..

وأخبروه برحلتهم وقصوا عليه أمرهم .. وأسهبوا فى الحديث عن ذلك الوزير الذى أكرمهم وأعطاهم كل ما يريدون ، وأنزلهم فى بيت ضيافته . وأحسن إليهم إحسانًا كبيرًا ..

كما حدثوه عن حب المصريين له وتفانيهم فى خدمته ، وعن منزلته السامية بينهم ، وعن حسن تقديره للأمور ، ودقة ضبطه لها ، وحكمته الفائقة وذكائه وحسن فراسته ..

لقد شوقوا أباهم إلى ذلك الوزير – ولعل ذلك الحديث – أثار شجونه ، وحرك كوامن الشوق عنده لولده ، التى كانت مخايله المبكرة توحى بأنه لو قدر له البقاء أن يكون فى مثل ذلك الذى يصفونه له .. ولعله جعل

يستزيدهم من الحديث عنه ، ولعلهم كانوا يلبون دعوته فى ذلك .. حتى تطرقوا من وراء ذلك إلى ما طلبه الوزير منهم ..

وأخبروه بالعهد الذى أخذه عليهم ، وهو أن يحضروا أخاهم معهم فى المرة القادمة ، وإلا فلا كيل لهم عنده ذهبوا بدونه ..

وفوجىء الأب بهذا الخبر ..

لقد ضيعوا بذلك الخبر فرحته بلقائهم وعودتهم وسماعه خبر ذلك الوزير الناجح ..

واضطرب قلب يعقوب ، وأحس بشىء من الوجل ، وتواردت على خاطره الذكريات القديمة . وتذكر يوسف الحبيب الغائب ..

واستحضر فى مخيلته يوم أن ذهبوا إليه يطلبون يوسف ليشاركهم فى لعبهم ومرحهم ، ثم عادوا إليه فى آخر النهار يبكون وينتحبون ويقولون : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ..

ويحك يا يعقوب .. هل التاريخ يعيد نفسه ؟

وهل وراء إخبار الأب بقصة الوزير وطلبه مؤامرة أخرى للتخلص من بنيامين كما تخلصوا من يوسف ؟

ولم يستطع الأب أن يكتم ما يعتمل فى نفسه وما يجول فى خاطره ، وصارحهم به قائلاً : لقد أمنتكم على أخيه من قبل فكان ما كان . فهل تنتظرون منى أن آمنكم على بنيامين الآن ؟

كلا ، إن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .. فما بالك إذا كان هذا المؤمن نبيًا ؟

وأقبل على ابنه الذى يحبه يعوّذه من الشر ، ويدعو الله أن يحفظه وينجيه من السوء ، قائلاً بلسان الصدق واليقين : فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ..

وسكت الإخوة مؤقتًا ، وانصرفوا إلى رحالهم يستخرجون منها الطعام ، وكانت المفاجأة المذهلة ..

لقد وجدوا بضاعتهم التى اصطحبوها ثمنًا للطعام الذى جلبوه مع الطعام فى الرحال .. فماذا يعنى ذلك ؟

وهتفوا بأبيهم قائلين : أى شىء نطلب وراء ذلك ؟ لقد وفى لنا ذلك الوزير الصالح الكيل ، وأحسن ضيافتنا ، ثم رد علينا مع ذلك الثمن ؟

فهل هناك ريبة وراء ذلك ؟

وهل يستحق من أحسن إلينا هذا الإحسان أن نخونه فى عهده وننكث فى وعده ؟

إننا لو اصطحبنا أخانا معنا فى المرة القادمة فسوف نعود وقد ازددنا كيل بعير ، فقد عدنا هذه المرة بعشرة أحمال ستكون فى المرة القادمة أحد عشر حملاً ..

وما زالوا به يقسمون على المحافظة على أخيهم ، ويبثون الاطمئنان فى قلب أبيهم ، قائلين له : لن يحدث مطلقًا ما تفكر فيه ، وإننا نبذل أرواحنا فى المحافظة عليه ، ولن يتكرر ما حدث لأخيه ..

ولان قلب الشيخ تحت استعطاف أبنائه له ، والأب أب على أى حال .. إن قلبه نسَّاء للأحقاد ، غفار للهفوات ، صفوح عن الزلات ، حتى قال الحكماء : يكاد الأب يغفر هفوة الابن قبل أن يرتكبها بل ويعتذر له عنها ..

وقال الأب لأبنائه : أعطونى عهد الله وميثاقه أن تحافظوا عليه . وألا تسلموه إلى خطر كما أسلمتم أخاه من قبل ، وأن تعودوا به إلىَّ سالمًا إلا أن يحاط بكم فتهلكوا أو تموتوا دونه أو تغلبوا عليه ..

فأعطوه الميثاق .. وألزموا أنفسهم به ..

لقد رأى الأب حاجة أولاده إلى الطعام ، وأن الجوع سوف يهلكهم إن لم يعودوا للامتيار وطلب الطعام . إن وطأة القحط شديدة ، وها هى ذى

أخبار المجاعة التى تفنى الناس تتوارد مع حركة القوافل الذاهبة والآتية . فما للشيخ لا يفزع منها ويحتاط لها ؟

لقد أحس أن رحلة أبنائه إلى مصر لابد أن تتكرر حتى تزول الحاجة الدافعة إلى ذلك . ولا معنى لذهابهم دون حصولهم على القوت ، وقد اشترط الوزير لإعطائهم القوت أن يعودوا ومعهم أخوهم .. فليجربهم أيضًا هذه المرة ، ولعلهم إن كذبوا بالأمس أن يصدقوا غدًا ..

وسلم الشيخ أمره لله .. وأخذ على أبنائه العهد ، وسمح لهم باصطحاب أخيهم معهم .

وكان إخوة يوسف صادقين هذه المرة فى عهدهم ، فقد تقدمت بهم السن ، وفارقهم طيش الشباب ، وليس هناك من شك فى أنهم ندموا على ما فعلوه بيوسف ، ورجعوا على أنفسهم باللائمة ، ولكن بعد فوات الأوان ..

فهم فى هذه المرة كانوا صادقين ..

وللصدق دلائل تظهر فى أسارير الوجه ولمحات العيون ..

ومن الضرورى أن الأب قد لمح الصدق فى نبرات أصواتهم وقسمات وجوههم ولمحات عيونهم ..

وتجهز الإخوة للسفر ، ومعهم « بنيامين » وقبل أن يخرجوا تقدموا لوداع أبيهم وتحيته ، فزودهم بنصائحه ودعواته ..

أما النصائح ، فقد أوصاهم بأخيهم خيرًا ، وأنهم إذا جاءوا إلى حدود مصر لا يدخلوا من باب واحد .. بل يدخلون من أبواب متفرقة .. ولذلك أسباب ..

قد تكون هذه الأسباب دفع الشك عنهم ، فهم إخوة أبناء رجل واحد يلفتون بمنظرهم الناس ، فربما ظنهم البعض أعداء وقد يكون الحسد ، والحسد داء وبيل يدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وقد أمرنا الله بالاستعاذة منه ..

وربما أنكر بعض الناس تأثير الحسد ، ولكن الشواهد تؤيده .

وهذا هو القرآن الكريم يقول فى حق النبى - ﷺ - : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾[93] .

فقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن المشركين قصدوا أن يصيبوا النبى - ﷺ - بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حججه ..

وقيل : كانت العين فى بنى أسد حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم ، فيعاينها ، ثم يقول : يا جارية خذى المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة ، فما يبرح حتى تقع للموت فتنحر .

وكان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئًا يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه . فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب النبى - ﷺ - بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى - ﷺ - أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيدًا وإخال أنك سيد معيون

فعصم الله نبيه - ﷺ -[94].

والحسد هو تمني الحاسد زوال النعمة عن المحسود . وهو من قبيل التأثيرات النفسية - كما يقول العلامة ابن خلدون :

« وقد أنكر الماديون الحسد وقالوا بعدم وجوده ، على الرغم من قيام الدليل الملموس على وجوده ، ولو أنصفوا لما رأوا لهم حجة فى دحضه ، كيف وقد قال القرآن الكريم : ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ » .

---

(٩٣) الآية ٥١ من سورة القلم.

(٩٤) تفسير القرطبي جـ ٢٩ ص ٦٧٣٤ . ط دار الشعب.

وعلى كل فقد أوصى يعقوب أولاده .. عملاً باتخاذ الأسباب ، وهو يعلم أن الحذر لا يغني ولا يفيد عند وقوع القدر ..

وقد اعترف يعقوب – عليه السلام – بذلك حين قال : وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله ..

ورد الحكم إلى الله تأدبًا معه ، وتفويضًا إليه ، وتوكلاً عليه .

ولذلك قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب فالله خير حافظًا . قال الله – تعالى – : وعزتي وجلالي لأردن عليك ابنيك كليهما بعد أن توكلت عليَّ [(٩٥)].

وقد قص القرآن الكريم هذه الأحداث بقوله – تعالى – :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٩٦)]

---

(٩٥) تفسير القرطبي .

(٩٦) الآيات ٦٣ : ٦٨ من سورة يوسف .

وكان للمدينة التي يقيم بها الملك والوزير أبواب عدة ، وذلك على عادة بناء المدن قديمًا .. تحاط بأسوار وقلاع ، ولا ينفذ إلى داخل المدينة إلا بواسطة أبواب تحيط بها الحراس ..

ونفذ الإخوة وصاة والدهم ، فتفرقوا عند الدخول إلى المدينة ، ولم يدخلوا من باب واحد .. وبذلك حققوا الحاجة التي قصدها والدهم ..

ولكن ما هذه الحاجة التي قضاها من تفرقهم في الدخول إلى المدينة ؟

لعل هذه الحاجة خاطر خطر بقلبه وهو وصيته التي أوصاهم بها .

ولعلها : ألا يراهم الملك وهم مجتمعون فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا .. وقد كان منظرهم حسنًا وعددهم كثيرًا ..

وقد يكون الحسد الذى حذرهم منه ..

أنا أخوك فلا تبتئس :

ووصل إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » شقيق يوسف ..

ودخلوا على يوسف – عليه السلام – .

وأغلب الظن أنه لم يحجبهم كما حجبهم في المرة السابقة ، فقد كان على شوق شديد لرؤية أخيه .

وحين رأى يوسف أخاه فرح به فرحًا شديدًا ، ولكنه غالب عواطفه وكتم أحاسيسه ، فلم يظهر عليه أثر من ذلك ..

وأقبل على إخوته قائلاً لهم : إنكم في ضيافتي مدة وجودكم في مصر . وأمر الخدم أن ينزلوهم في دار ضيافته ، وأن يعدوا لهم الطعام ، ويهيئوا لهم المكان .

وتذكر بعض الروايات أن يعقوب – عليه السلام – حمَّل أولاده رسالة إلى يوسف – رسالة شفوية – فقد قال لهم : بلغوا ملك مصر سلامى ،

وقولوا له : إن أبانا يصلى ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا .

فلما سمع يوسف – عليه السلام – منهم ذلك غلبه البكاء ثم أكرمهم ، وأحسن نزلهم ، ثم أضافهم[٩٧].

وقال بعض الرواة : إن يوسف حضر لإخوته وقت الغداء ، فلما رأوه قدموا له هدايا كانوا أحضروها له معهم . فنظر يوسف إلى بنيامين وقال لهم : أهذا أخوكم الصغير الذى أخبرتمونى عنه ؟ قالوا : نعم .

ثم سألهم عن أبيهم ، وأخبروه أنه بخير ..

ولا يبعد أن يكونوا أبلغوه الرسالة الشفوية التى حمَّلها لهم أبوهم فى ذلك الوقت .. فإن ذلك مما تستدعيه المناسبة .

ثم أجلسهم إلى مائدة الطعام بحسب ترتيبهم فى السن ، وقد تعجبوا لذلك ، لأن عمله وافق الواقع .

وكان يربت على كتف بنيامين ، ويغدق عليه الكثير من الإقبال والعطف ، ويخصه ببعض ألوان الطعام ..

وقيل : إن يوسف – عليه السلام – لم يجلس معهم على الطعام -حتى لا يلفت إليه أنظار العاملين من الفتيان والخدم .

وقد ذكر بعض الرواة أن يوسف أجلسهم اثنين اثنين ، وبقى بنيامين وحده ، فبكى ، وقال فى نفسه : لو أن أخى يوسف كان حيًا لجلس معى ..

فأحس يوسف بما يجول فى نفسه ، فقال لهم : بقى أخوكم وحده ، فقالوا : كان له أخ فهلك .

فقال يوسف – عليه السلام – : فأنا أجلسه معى .

فأخذه وأجلسه إلى مائدته ، وجعل يؤاكله .

---

٩٧) يوسف الصديق ص ٨٨ .

وحين أقبل الليل أمر بأن ينزل كل اثنين منهم فى حجرة ، فبقى بنيامين أيضًا وحده ، فأنزله معه فى حجرته ..

وهكذا خلا لهما الجو .. وأصبح بمقدور يوسف أن يحدث أخاه على انفراد دون أن يسمع إخوته ما يدور بينهما من حديث ..

وبدأ حديثهما بأن أخذ يوسف يسأل بنيامين عن أحواله وأحوال أبيه .. وتطرق الحديث عن الإخوة ثم إلى الأخ الغائب الذى فقده أبوه صغيرًا ..

وثارت شجون بنيامين عند ذلك ، وأحس بلوعة الأسى لغياب ذلك الأخ الذى كان يحبه .

فأقبل عليه يوسف مواسيًا ، يخفف عنه أحزانه ثم قال له : ألا تحب أن أكون أخًا لك بدلا من ذلك الأخ الذى فقدته ؟

قال بنيامين : بلى ، إنك بعطفك وكرمك وحسن خلقك تشبه أخى الذى فقدناه تمامًا ..

فتأثر يوسف أشد التأثر ، وغلبه البكاء والوجد ، ثم ضم أخاه بنيامين إلى صدره قائلاً : أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ..

وكانت مفاجأة سارة لبنيامين ..

ثم سأل يوسف بنيامين : هل تزوج ؟ وهل له من ولد ؟ فقال : نعم ، ولى عشرة بنين اشتققت أسمائهم جميعًا من اسم أخ لى قد هلك . فقال له يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : ومن يجد أخًا مثلك أيها الملك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ، ولا حملتك راحيل - يعنى أمه - .

فبكى يوسف ، وقام إلى أخيه فعانقه ، وأفضى إليه بالحقيقة[٩٨].

---

(٩٨) يوسف الصديق ص ٨٨ . وقد أشار الثعلبى إلى أسماء أولاد بنيامين العشرة وهم : بالعا ، وأخير ، واشكل ، وأحيا ، وخير ، ونعمان ، وورد ، ورأس ، وحثيم ، وعتيم . - الثعلبى ص ١٣٢ - .

وهذا كله مما يشير إليه النص القرآنى الكريم الذى عرض هذه الأحداث .

وأوصى يوسف أخاه أن يكتم عن إخوتِهِ خبرَه ، وأعلمه أنه سيحتال لإبقائه معه .

وفرح بنيامين بلقاء يوسف فرحًا شديدًا ، وتمنى أن لو بقى معه لينعم بصحبته التى حرم منها فترة طويلة من الزمن ..

وزاد من سروره أن وجد أخاه فى هذه النعمة السابغة ، وذلك المنصب الرفيع الذى تتطامن له الجباه وتخضع له الوجوه ..

إن يوسف الذى حسده إخوته وكادوا له وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ها هو ذا قد أصبح عزيز مصر ، يقصده الناس من كل حدب وصوب يطلبون الميرة متوسلين إليه ألا يردهم خائبين ..

لقد حمد بنيامين ربه وسجد له شكرًا أن مَنَّ عليه بلقاء أخيه بعد طول غياب ، وبعد أن كان يظنه فى عداد الأموات ..

ولذلك ابتهج ابتهاجًا شديدًا حين قال له أخوه : إنه سيحتال لإبقائه معه .

وربما أخبره بالخطة التى وضعها لذلك .

فقد حكى الثعلبى قائلاً :

قال يوسف لأخيه : إنى قد علمت باغتمام الوالد لسفرك ، فإن حبستك زاد غمه ، ولا يمكننى حبسك إلا بعد إتهامك بأمر فظيع .

فقال بنيامين : لا أبالى افعل ما تريد[99].

وأزفت عودة الإخوة إلى أرض فلسطين ، فأمر يوسف فتيانه أن يجهزوا لهم ما يريدون من القوت ، وأن تملأ رحالهم من الحنطة ، وأخفى صاعه الذهبية فى رحل بنيامين دون أن يرى ذلك أحد ..

---

(٩٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٣٢ .

واستأذنوا يوسف فى الرحيل فأذن لهم .

وما أن أوشكت قافلتهم أن تغادر المدينة ، حتى سمعوا صوت مناد ينادى بأعلى صوته : قفوا أيها المسافرون .. إن هناك شيئًا ثمينًا فقده الملك ويظن أنكم أخذتموه ..

فعاد الإخوة يسألون : أى شيء فقدتموه ؟

فقال المنادى : لقد فُقد صواع الملك الثمين .

فقال الإخوة : وما شأننا نحن به ؟

فقال المنادى : إن إصبع الاتهام تشير إليكم .. وهل هناك أحد غيركم كان موجودًا أثناء فقده ؟

فقال الإخوة : تا لله ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ..

فقال المنادى : دعكم من كل ذلك . أخرجوه بالحسنى ، ولكم عندنا مكافأة سخية .. إن أتيتم به .. هذه المكافأة هى حمل بعير من الحبوب .. وأنا كفيل بذلك ..

عند ذلك قال الإخوة ثائرين : دعك من ذلك كله فلسنا لصوصًا ، وما كان لنا أن نتدنى إلى هذا الأسلوب المهين .. نحن من سلالة أنبياء فكيف نتهم بالسرقة ؟

إن مفهوم الآيات الواردة يؤيد فعلاً أن هذه الأحاسيس دارت فى نفوسهم ..

وربما أدرك يوسف أيضًا ما يعتمل فى نفوسهم . ولكنه التدبير الذى دبره ، ولابد أن يصل إلى نهايته ..

عند ذلك قال المنادى :

لابد من تفتيش أمتعتكم . ولكن قبل أن نفتشها نريد أن تحكموا بأنفسكم على من يوجد الصواع فى رحله إن وجد .

انطقوا أنتم بألسنتكم وقولوا : ما جزاء من يوجد الصواع في رحله ؟

فقال الإخوة : جزاؤه أن يُسْتَرَقَّ ، أن يأخذه العزيز عبدًا مملوكًا له ..

إن هذا الحكم هو ما تقضى به شريعتنا ..

وارتضى المنادى ذلك .. وكان هذا ما يريده يوسف ..

وأمر حرسه بتفتيش أمتعتهم ، بادئًا بمتاع الأكبر فالذى يليه ..

وكلما بحث فى متاع ولا يجد شيئًا كانت أسارير صاحبه تتهلل وأسارير إخوته أيضًا .. فهم واثقون بأنهم براء من هذه التهمة ..

ثم جاء الدور على رحل بنيامين .. ودس الباحثون أيديهم فى داخله فإذا بهم يستخرجون الصواع ..

وبهت الإخوة .. ووقفوا مشدوهين ..

ها هى ذى التهمة قد ثبتت ضدهم ، وها هم أصبحوا سارقين فى نظر المصريين ..

إنها لفضيحة كبرى حاقت بهم فكيف يتخلصون منها ..

ونظروا إلى أخيهم فى غضب ، فقد كان سببًا فى هذا الموقف الشائن ..

وأخذوا يوبخونه قائلين : ويلك يا بنيامين ، لماذا فعلت هذه الفعلة الشائنة ؟ كيف تخون الأمانة ؟ كيف تقدم على عمل كهذا وتسىء إلينا بهذه الصورة ؟

وظلوا يوجهون إليه قارص الكلم ، وهو يحاول أن ينفى عن نفسه التهمة بكل وسيلة ..

وقد أقسم بالله أنه ما سرق ، ولكن الدليل قائم ضده .. وما يجدى ألف يمين ، وهذا هو الصواع قد استخرج من رحله أمامهم ..

إنها ليست تهمة ملفقة ، ولكنها جريمة ثابتة وفضيحة دامغة ..

وحين شعر الإخوة بحرج الموقف ، ألقوا بالاتهام كله ضد أخيهم الصغير .. قائلين :

ويلك يا بنيامين ، ما رأينا كاليوم قط ، لقد ولدت أمك راحيل لصين . أما أحدهما فيوسف ، وأما الآخر فهو أنت ..

ولقد ارتاع يوسف لهذه الكلمة .. ولكنه كتم فى نفسه ، وقال : أنتم شر مكانًا ..

إن الله يعلم أن راحيل لم تلد لصوصًا .. ولكنها ولدت أطهارًا ..

وإن الله يعلم أن ولدى راحيل مجنى عليهما .. من هؤلاء الإخوة الذين كالوا لهما التهم ..

لقد وصفوا الأخوين بالسرقة .. وهل السرقة أشد جرمًا من ذلك الكيد الذى كادوه ليوسف ، حين احتالوا على أبيه وأخذوه من بين يديه ، ثم عادوا إليه عشاء يبكون زاعمين أن الذئب أكله ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ؟

وهل السرقة أفحش من أن يلقوا أخاهم فى غيابة الجب ليكون عرضة لهوام الأرض وسباعها .

إنهم شر مكانًا حقًا .. لقد رمتنى بدائها وانسلت كما يقول المثل العربى القديم ..

ولكن ، إذا وصفوا بنيامين بالسرقة فقد حق لهم ذلك بناء على الظاهر .. أما وصفهم يوسف بالسرقة فما مستنده ؟

قال العلماء : إن عمة يوسف ، كانت أكبر من أبيه يعقوب ، وقد صارت إليها منطقة إسحاق التى ورثها من إبراهيم لكبر سنها ، فقد كانوا يتوارثون بالسن ، وهو شرع قد نُسخ .

وحين ماتت راحيل حضنت هذه العمة يوسف ، وأحبته وتعلقت به ، فلما ترعرع وشب أراد يعقوب أن يستعيده منها ، ولكنها أشفقت من فراقه وارتاعت له ، فأرادت أن تحتال لاستبقائه عندها ..

فماذا صنعت ؟ عمدت إلى المنطقة التى ورثتها من أبيها ، وأخفتها بين ثياب يوسف .

وأذاعت أنها فقدت منطقتها ، ودعت إلى البحث عنها ، ففتشوا عن المنطقة فوجدوها بين ثياب يوسف .

وكانت شريعتهم تقضى باسترقاق السارق ..

وبذلك أصبح يوسف ملكًا لها ، وظل عندها حتى ماتت فأعاده أبوه إليه ..

فأشار إخوته إلى هذه القصة ..

وعلى أية حال فقد احتال يوسف حيلته تلك ليستبقى أخاه عنده .. فبشريعة آل يعقوب وحدها هى التى تمكنه من استرقاق أخيه ..

أما شريعة المصريين فلا تعطيه هذا الحق .. ولذلك اشترط عليهم قبل التفتيش ، وانتزع منهم الإقرار بقبول الحكم المترتب على التهمة إذا ثبتت .

ولقد كان ذلك التدبير بإلهام الله له وتمكينه إياه ..

ولنقرأ الآيات التى دارت حولها هذه الأحداث ، لنرى أى بلاغة وبيان وإعجاز يحتوى عليه كلام الله الحكيم ..

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)
قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ
ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[100]

ولابد أن يوسف – عليه السلام – قد ضايقه اتهام إخوته إياه بالسرقة بعد طول هذه السنين الماضية ، مع أنه فى نظرهم فى ذمة الله .. وكأنهم لم يكتفوا بظلمه حيًا بل أصروا على ظلمه ميتًا كذلك ..

وإذا لم يكونوا قد راعوا حرمة الأحياء فما بالهم لا يراعون حرمة الأموات ؟

ثم ما ذنب راحيل فى كل ذلك ؟

ولماذا يظلمونها هذا الظلم البين فينسبون إليها بأنها تخصصت فى ولادة اللصوص ؟

ألم يقولوا : إن راحيل ولدت لصين ؟

وهب أنه سرق ، فقد سرق صغيرًا دون سن التمييز .. وهى حادثة ينبغى للأيام أن تقضى عليها تمامًا ، فأى عقل يقضى بأن يُعَيَّر الرجل بشىء أخذه فى طفولته ؟

وهل يفرق الطفل بين ما يملكه ، وما لا يملكه ، حتى إذا أخذ شيئًا لا يملكه عد سارقًا ؟

وما بالك – إذن – إذا كان كل ذلك لم يفعله ، بل هو ضحية فيه ؟
ومع ذلك فقد طوى يوسف كشحًا عن مقالتهم تلك ، وغض الأذن عنها ، ولم يتذكرها بعد ذلك ..

وهكذا تكون أخلاق الصديقين والأنبياء ..

---

(١٠٠) الآيات ٦٩ : ٧٧ من سورة يوسف .

قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا :

وأصبح بنيامين بحكم قانون الإخوة وشريعتهم ملكًا ليوسف ..

فأمر يوسف بالتحفظ عليه ..

ونظر الإخوة إلى أنفسهم فإذا بهم يشعرون بأنهم قد فرطوا فى العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع أبيهم ، أن يعودوا إليه ببنيامين وأن يحافظوا عليه محافظتهم على أنفسهم أو أكثر ..

وها هم أدلاء سوف يعودون وهو ليس معهم فماذا يقولون لأبيهم ؟

فأقبلوا على يوسف يستعطفونه أن يستبدل ببنيامين واحدًا منهم ..

قائلين له : أيها العزيز خذ واحدًا منا مكانه . فإن له أبًا شيخًا كبيرًا يجد فى هذا الأخ سلوة عن أخيه الذى فقده قبل ذلك ..

ولكن يوسف – عليه السلام – استنكر ذلك منهم . وقال : كيف تقولون ذلك ؟ معاذ الله أن أكون ظالمًا ، فأسترق البرىء وأترك المذنب .

« معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون »..

ولم يقل يوسف – عليه السلام – : أن نأخذ إلا من وجدناه سارقًا .. تعففًا عن هذه اللفظة ، وتنزيهًا لقدر أخيه عن هذه التهمة .. وهنا يظهر الفرق الكبير بين يوسف وإخوته ..

ولقد حاول الإخوة أن يتألفوا يوسف بقولهم : إنا نراك من المحسنين ..

ولكن تألفهم هذا لم يجد إلا آذانًا صماء ..

إنه يريد – بما صنع من حيلة – أن يصل إلى غاية رسمها ، فكيف يصيخ لتوسلاتهم ؟

« إن الله قد أمره وأوحى إليه بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها فى ذلك ، فلو أخذ غير من أمر بأخذه كان ظالمًا وعاملاً بغير الوحى »(١٠١) ولذلك استعاذ الله من الظلم ..

ويئس الإخوة من إقناع يوسف – عليه السلام – باستبدال واحد منهم به ، واضطربوا فى أمرهم وتحيروا ماذا يفعلون ؟ ..

فاختلوا فيما بينهم يتشاورون فى الأمر ..

قال كبيرهم – ولعله « روبين » فى رأى ، أو « شمعون » فى رأى آخر أو « يهوذا » فى رأى ثالث – :

تذكروا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدًا وميثاقًا من الله أن تعودوا بأخيكم سالمًا . ولا يغيب عن أذهانكم أنكم قد فرطتم من قبل فى أخيه يوسف ، وما زال أبوكم يُعانى ويتألم بسبب فقده ، فما الذى سيحدث له إذا ذهبنا الآن وأخبرناه أن ابنه الثانى الذى كان سلوته عن يوسف قد فُقِد أيضًا ؟

ثم قال : أما أنا فقد عزمت علي ألا أبرح مصر إطلاقًا حتى يأذن لى أبى فى الرجوع ، أو يحكم الله لى وآخذ أخى بالقوة أو بالحيلة(١٠٢).

وقد بنى قوله هذا على قول أبيه لهم : « لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » ..

قال العلماء عن ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه الجم الغفير من الناس . وكان شعره يقوم فى صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه ..

---

(١٠١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٤٩٣ .

(١٠٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٧١ .

وجاء في الأخبار : أن يهوذا قال أيضًا لإخوته : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر ، وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه ..

قالوا : بل اكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر . فبعث واحدًا من إخوته ، فعد أسواق مصر ، فوجدها تسعة أسواق ، فأخذ كل واحد منهم سوقًا ..

ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ، لئن لم تخل معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقى في مدينتك حاملاً إلا أسقطت ما في بطنها .

فلم يعجب يوسف كلامه ، وأسمعه كلمة أغضبته ، فغضب يهوذا واشتد غضبه ، وانتفجت شعراته .. وكان إذا حدث ذلك لا يسكن غضبه إلا إذا مسته يد من نسل يعقوب ..

فلما علم يوسف أن غضب يهوذا قد اشتد وكمل ، أمر ولدًا صغيرًا له بالقبطية أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه .

ففعل فسكن غضبه ، وألقى السيف ، والتفت يمينًا وشمالاً لعله يرى أحدًا من إخوته ، فلم ير أحدًا .

فخرج مسرعًا إلى إخوته وقال : هل حضرني أحد منكم ؟

قالوا : لا ..

قال : فأين ذهب شمعون ؟

قالوا : ذهب إلى الجبل ..

فخرج فلقيه ، فإذا به يحتمل صخرة عظيمة . فقال له : ما تصنع بهذه ؟

قال : أذهب بها إلى السوق فألقيها على من فيه ..

فقال له : ارجع فردها أو ألقها في البحر ، ولا تحدثن حدثًا ، فو الذى اتخذ إبراهيم خليلاً ، لقد مسني كف من نسل يعقوب .

ثم أقبل الإخوة فدخلوا على يوسف ، فتلقاهم بما هو أشد غضبًا وبطشًا ..

وقال لهم : يا معشر العبرانيين ، أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة .. ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركله برجله ، فدحا به من خلف الجدار ، ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه ، ونادى يطلب الحدادين أن يقطعوا أيديهم وأرجلهم وأعناقهم ..

وجلس فوق سرير حكمه ، وأمر بالصواع فوضع بين يديه ، ثم نقره نقرة فطنّ . فالتفت إليهم قائلاً : أتدرون ماذا يقول ؟

قالوا : لا ..

قال : إنه يقول : إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم .. ثم نقر نقرة أخرى وقال : أتدرون ما يقول .

قالوا : لا .

قال : إنه يقول : إن هؤلاء كان لهم أخ صغير فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه .

فاستكانوا عندئذ وقالوا : يأيها العزيز استر علينا ستر الله عليك ، امنن علينا منّ الله عليك ..

فنقره نقرة ثالثة . وقال : إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجب ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس ، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله .

ونقره نقرة رابعة وقال : إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبًا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ولم تتوبوا إليه .

ثم نقره نقرة خامسة ، وقال : إنه يقول : إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا .

ثم نقر نقرة سادسة ، وقال : إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم ولا عققتم أباكم ، ولأجعلنكم نكالاً للعالمين ..

فتضرعوا وبكوا ، وأظهروا التوبة وقالوا : لو أصبنا أخانا يوسف لنكونن طوع يده ، وترابًا يطأ عليه برجله ..

فرحمهم يوسف ، وقال : اذهبوا فقد تركتكم إكرامًا لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالاً(١٠٣).

وواضح أن هذا الحوار كله مصدره أهل الكتاب ، إذ لم يرد فى القرآن الكريم شىء منه .. وفيه ما فيه مما يستبعده العقل .

وعلى كل لا يبعد حدوثه .. فالإخوة قد غلبهم الضيق أن يرجعوا إلى أبيهم بدون أخيهم .. وربما فكروا فعلاً أن يحدثوا حدثًا فى مصر يضطرون به يوسف أن يسلمهم أخاهم . ولكن يوسف بما أتاه الله من حكمة ومعجزة قد أفسد تدبيرهم وأبطل كيدهم ..

وقال كبيرهم : عودوا أنتم إلى أبيكم فأخبروه بما حدث ، وقولوا له : إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا نعلم الغيب ، حتى نعرف أن ذلك سوف يحدث ..

وسوف يكذّب الأب ما سوف تقولون ، فقولوا له : هذه العير التى أقبلنا فيها تشهد بصدق ما نقول ، وهذه القرية التى كنا فيها أهلها جميعًا يعرفون ما حدث .

لقد توقع الابن أن الأب لن يصدق الإخوة فيما يخبرونه عن أخيهم .. لأن هناك سوابق تُجوِّز له الشك فى أخبارهم .. إنهم عند أبيهم ليسوا فوق مستوى الشبهات .. ولذلك رسم لهم الأخ طريق الخلاص من الارتياب فى أقوالهم ..

وعاد الإخوة إلى أبيهم تسعة بعد أن كانوا أحد عشر رجلاً ..

---

(١٠٣) تفسير القرطبى ..

وقصوا على أبيهم الخبر ..

وصح ما توقعه الأخ الباق فى مصر .. بأن يعقوب – عليه السلام – لم يصدقهم ..

وقال فى حزن وأسى : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ..

لقد أردتم التخلص منه كما تخلصتم من أخيه من قبل ..

كانت مؤامرتكم الأولى على يوسف ، وزعمتم أن الذئب أكله .. والذئب من ذلك برىء ..

وهذه مؤامرتكم الثانية على بنيامين ، تزعمون أنه سرق ..

وما أكل الذئب يوسف ، وما سرق بنيامين .. كلاهما ضحية بريئة ..

وأعرض يعقوب عن أبنائه ، ورجعت إليه أحزانه .. ولكنه لم ينس أن يعتصم مع ذلك بالصبر والأمل معًا ..

فهتف قائلاً : « فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا » ..

من أفهام أهل الذوق :

وانظر إلى الأسلوب القرآنى الجميل .. الذى جعل الضمير « بهم » يعود على جمع ، مع أن الذى يرد فى الخاطر اثنان وهما يوسف وبنيامين ..

وقد قال أهل الذوق فى ذلك : إن يعقوب لم ينس وهو فى غمرة حزنه على هذين الولدين العزيزين أن لهما أخًا ثالثًا هو الذى رفض مغادرة مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له ..

إن هذه لفتة دقيقة من اللفتات التى تشهد بدقة البيان القرآنى وروعته ..

لقد حاول يعقوب – عليه السلام – أن يتذرع بالصبر ..

وقد وصف صبره بأنه جميل قال « فصبر جميل » ..

والصبر الجميل كما فسره أهل العلم هو : أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يُدْرَى من هو[١٠٤].. فهو حزين فى داخله دون أن يظهر أثر ذلك على وجهه ..

ولجوء يعقوب إلى الصبر لجوء إلى ركن شديد وهو الإيمان ، لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وقد سئل النبى – ﷺ – عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة[١٠٥].

ولكن يعقوب – عليه السلام – غلبه وَجْدُه على ولديه ، وبخاصة يوسف ، فكان شأنه شأن الشاعر الذى يقول :

الصبر يجمل فى المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

ولذلك قال بعض العارفين : أصبح يعقوب – عليه السلام – وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : فصبر جميل ، أى فشأنى صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : يا أسفا على يوسف ..

أما لماذا خص يوسف بالأسف عليه .. فإن الرزء الجديد ذكره بالرزء القديم ..

ولم يكن فقد بنيامين إلا حلقة فى سلسلة من المآسى بدأت بفقد يوسف .. فما كانت آخر الحلقات لتنسى أولى الحلقات ..

وفَقْد يوسف ما زال حيًّا غضًا فى نفس يعقوب وإن تطاول عليه الزمن ، فهو قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده[١٠٦]، هو كما قال الشاعر :

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعده   ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

---

(١٠٤) الرسالة القشيرية ص ٩٤ .

(١٠٥) أخرجه البخارى عن طريق عمير عن ابيه عن جده ..

(١٠٦) الزمخشرى فى الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٧ .

لقد كان حزن يعقوب على يوسف آية فى الحزن ، وصفها الحق بقوله - تعالى - ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ، أذهب البكاء سواد عينيه ، فقد قيل : إن عينيه لم تجفا من الدمع منذ فراقه حتى لقائه ..

وقد أخبر الرواة أن رسول الله - ﷺ - سأل جبريل - عليه السلام - : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟

قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط .

ولكن كيف يبلغ الجزع بنبى هذا الجزع ، وهو القدوة فى الصبر ، والأسوة فى التحمل ؟

وللإجابة عن ذلك قال العلماء : إن الإنسان بطبيعته البشرية مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن . والحزن - على أى حال - محله القلب . والذى ينافى مقام النبوة هو الخروج بالحزن إلى ما لا يجمل من تصرفات ، ككثرة الشكوى والصراخ والعويل وإظهار الجزع وغير ذلك مما نهى عنه النبى - ﷺ - ..

ولقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم ، وقال : إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ..

لقد كان حزن يعقوب فى قلبه ، يكظمه فى داخله ، وبكاؤه فى عينيه بدون صوت أو ولولة ..

وهذه صفات أولى الرحمة من الناس ..

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من أولاده من يلومه ..

فقالوا له : إنك ما تزال تذكر يوسف حتى توشك على الهلاك أو تهلك بالفعل ..

يقال : إنه دخل عليه جار له ، فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك .

فقال : هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف ..

فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟

فقال : يارب خطيئة أخطأتها فاغفر لي . فغفر له ..

فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ..

وهذه هي الآيات الكريمة التي صورت هذه الأحداث :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١٠٧)

لقد حاول الإخوة أن يستثيروا عاطفة الرحمة في يوسف ، فقالوا له : إن له أبًا شيخًا كبيرًا ..

(١٠٧) الآيات ٧٩ : ٨٦ من سورة يوسف .

وعاطفة الإيثار فقالوا له : فخذ أحدنا مكانه ..

وعاطفة الإحسان فقالوا له : إنا نراك من المحسنين ..

ولو كان الأمر خاليًا من التدبير لا يبعد أن يكون يوسف – عليه السلام – قد استجاب لهم .. بل إنه كان لا يلجئهم إلى هذا الاستعطاف الذى بلغ مداه ..

فقد جبل الأنبياء على الرحمة والإيثار والمواساة ..

ولكنه كيد كاده الله له ليستبقى به أخاه ثم ليجلب به أباه ..

ولأهل الذوق فى نسق هذه الآيات الكريمة أقوال واستنباطات .. منها على سبيل المثال ..

أن قوله – تعالى – : ﴿ فلما استيأسوا منها خلصوا نجيًا ﴾ غاية فى الإيجاز البلاغى الجميل ..

فقد أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ، وأخذهم فى التفكير فيما يلقون به أباهم عند عودتهم ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، أما قوله « استيأسوا » فإن السين والتاء للمبالغة ، يعنى كأن اليأس قد بلغ منتهاه منهم ، و « خلصوا نجيًا » يفيد أنهم انفردوا بأنفسهم وابتعدوا عن المخالطين لهم حتى يقبلوا وجوه الرأى فى عزلة ، والتناجى لا يكون إلا فى منجاة من المستمع والرقيب ..

أما قوله « سولت لكم أنفسكم أمرًا » فيفيد بأن أولاده وإن كان ليس لهم يد فى استبقاء بنيامين فى مصر إلا أنهم ما زالوا متهمين فى نظره بالنسبة لسابقتهم الأولى مع يوسف .. وكأن شأنهم شأن الكاذب الذى تلصق به كذبات غيره .. مصداقًا لقول الشاعر :

فإذا سمعت بكذبة   من غيره نسبت إليه

وربما وجد يعقوب قرينة تدينهم فى هذا الأمر حين أفتوا يوسف بأنه من حقه أن يسترق من يجد الصواع فى رحله ، فهم بذلك أعطوه السلاح

بيدهم الذى به يسترق أخاهم .. وقد كان فى إمكانهم أن يطلبوا التحرى عمن وضع الصواع بدلاً من الاستسلام لمن وجه الاتهام دون مطالبة بالتحقيق فى هذا الأمر ..

سر العداء بين الإخوة :

ولقد أرجع بعض الباحثين عداء إخوة يوسف له ولأخيه إلى تعدد الزوجات .. وأن الأولاد ليسوا أشقاء ..

ولكن هذا السبب ليس من الوجاهة بمكان ، وهناك ما ينقضه .

فإن بنيامين ويوسف ابنا راحيل ، أما بقية الإخوة فأمهاتهم ليًّا ، وبلها ، وزلفى ..

فهم ليسوا من أم واحدة حتى يمكن التسليم برأى من يقول إن التعدد سبب الخلاف ..

فها نحن نرى أن أمهاتهم متعددة .. ومع ذلك لا خلاف بينهم ..

إن الخلاف كان بين أبناء الأمهات الثلاثة العشرة والاثنين ابنى راحيل ..

فالتعدد ليس سببًا للخلاف والشقاق بين الأبناء ..

إن الخلاف له سبب آخر بعيد كل البعد عن التعدد ، والدليل على ذلك أننا كثيرًا ما نرى أخوين غير شقيقين أو إخوة غير أشقاء وبينهم من الوفاق ما يتحدث عنه الرفاق ، وما يكون له ذكر فى الآفاق ..

وكثيرًا ما نرى أخوين شقيقين أو إخوة أشقاء وبينهم من الخلاف ما يقطع حبال الائتلاف ويبتعد بصاحبه عن طريق الإنصاف ..

إن مرد التوافق بين الأبناء إلى التقوى والتمسك بآداب الدين والخوف من الله والمحافظة على صلة الرحم ..

ومرد الاختلاف إلى البعد عن روح الدين وتنكب منهجه وعدم الخوف من الله ..

وفى حياة يعقوب – عليه السلام – وأخيه عيصو مثل لذلك ، فقد كانا توأمين ، ومع ذلك حدث بينهما خلاف شديد أدى إلى قطع المودة ، وهروب يعقوب إلى حران فارًا بنفسه من بطش أخيه ..

وهذا قابيل قتل أخاه هابيل وهما شقيقان من أب واحد وأم واحدة ..

إن تعدد الزوجات وإن كان الدين قد قيده بقيود ثقيلة تكاد تجعله ممنوعًا لا ينبغى أن نجعله سببًا فيما حدث بين أبناء يعقوب .. وإلا لماذا كان هناك وفاق بين بقية الإخوة مع أنهم غير أشقاء جميعًا ؟؟

اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى :

واستمر الأب الحزين فى حزنه ، ولم تنسه الأيام فقد أولاده ، بل زادته جوًى وحسرة .. وربما كان يجدد الحزن إحساسه بوجود يوسف على قيد الحياة دون أن يعرف له مكانًا يؤويه .. فلو كان متيقنًا من هلاكه لتأسى كما يتأسى الناس على موتاهم .. وتلك سنة الحياة ..

والحكماء يقولون : كل شىء يولد صغيرًا ثم يكبر إلا المصائب فإنها تولد كبيرة ثم تصغر .. ولكن مصيبة يعقوب فى أولاده ما صغرت قط ، بل ضاعفتها الأيام حدة وزادتها شدة ..

ولعل السبب فى ذلك أن صانعى المصيبة أولاده ، وهم أمامه ، فهو يتذكر ما صنعوه صباح مساء .. وكأنه كان يقول كما قال غيره : لو غير يدى رمت ؟

وكأن الشاعر العربى كان يعنيه حين قال :

قومى همو قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمى

منهج الاسلام فى التعزية :

وقد جاء الإسلام فيما بعد يعلم الناس الصبر على المصائب ، ويضع لهم المنهج السليم فى ذلك فقال :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[١٠٨]

وقد ورد عن النبى - ﷺ - أنه قال : لم تعط أمة من الأمم « إنا لله وإنا إليه راجعون » عند المصيبة إلا أمة محمد - ﷺ - ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع ، وإنما قال : يا أسفا على يوسف[١٠٩].

إنه من المفروض على الإنسان الاستسلام لقضاء الله ، وتلقى ما يجريه الله عليه بالصبر والرضا ، فإن فى ذلك تسكينًا للنفس مما تشعر به من مرارة الهم ولوعة الحزن .

لقد كان يعقوب - يحس فى داخله بوجود يوسف على قيد الحياة .. وهذا ما يعنيه قوله « واعلم من الله ما لا تعلمون » ..

قالوا : إنه كان قد سأل ملك الموت : هل قبضت روح ابنى يوسف ؟

قال : لا .. فأكد هذا رجاءه .

وربما استشف يعقوب من حديث أولاده عن وزير مصر العادل أنه ولده .. إن الحاسة السادسة التى يتحدث عنها العلماء لا تكذب ، ولا سيما مع الأنبياء ، الذين ميزهم الله بالوحى والإلهام الصادق والفراسة الصائبة ..

---

(١٠٨) الآيات ١٥٥ : ١٥٧ من سورة البقرة .

(١٠٩) أخرجه الثعلبى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا ، وأخرجه الطبرانى فى الصغير ، وأورده الزمخشرى فى الكشاف .

ومن أجل ذلك قال يعقوب لأولاده : يا بنى إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه وهو لم يتحدث عن الأخ الثالث .. لأنه يعلم يقينًا أنه فى عافية ، وأنه بقى فى مصر باختياره ، ولم يحبس عن العودة كما حبس بنيامين .. وليس فى حكم المفقودين كيوسف ..

طلب إليهم أن يستعملوا حواسهم فى معرفة أخبار إخوتهم .. والتحسس طلب الشيء بالحواس ، وهذا يتطلب أن تكون الحواس يقظة ، تعمل فى خفة وهدوء .. لتصل إلى نتيجة مرضية ..

وهو بخلاف التجسس الذى قد يصحبه العنف ، وهو مشتق من الجس ..

وألقى عليهم بنصيحة بالغة ، فقال لهم : لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ..

لقد أحيا فى نفوسهم الأمل ، والأمل من جنود الله القوية ..

وحذرهم من القنوط الذى هو من أسلحة الشيطان الفتاكة ..

وقد نهانا الله – سبحانه وتعالى عن القنوط فقال : ﴿ لا تَقْنَطُوا من رحمةِ الله ﴾ (١١٠) . وقال : ﴿ ومَنْ يَقْنَطُ من رحمة رَبِّه إلا الضَّالون ﴾ (١١١) .

وأذكى يعقوب فى نفوس أولاده روح الأمل ، ولعلهم استشعروا فى أنفسهم مدى الجناية التى ارتكبوها فى حق هذا الشيخ فأرادوا أن يكفروا عن سيئاتهم معه .. وخفوا سراعًا لإجابة مطلبه ، وتهيئوا للسفر نحو مصر ، فهى الجهة التى أحس يعقوب أن فيها الفرج ، وفيها اثنان من أولاده على وجه اليقين ..

---

(١١٠) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

(١١١) الآية ٥٧ من سورة الحجر .

وإن أكثر الناس يقينًا بوجود يوسف على قيد الحياة هم هؤلاء الإخوة ، لأنهم يعرفون أنهم لم يقتلوه ، وأنهم اختلقوا قصة الذئب اختلاقًا ، ولكن الذى لا يعرفونه هو مكانه ، ومصيره ..

ويقال : إن يعقوب حمَّل أولاده رسالة إلى عزيز مصر .. هى :

من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله ..

أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ..

أما جدى فقد شدت يداه ورجلاه وألقى فى النار ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا .

وأما عمى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله .

وأما أنا فكان لى ابن ، وكان أحب أولادى إلَىَّ ، فذهب به إخوته إلى البرية ، ثم أتونى بقميصه ملطخًا بالدم ، فقالوا : أكله الذئب ، فذهبت عيناى من بكائى عليه . ثم كان لى ابن وكان أخًا شقيقًا له ، وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ، ثم رجعوا ، وقالوا : إنه سرق ، وإنك حبسته لذلك .

وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا ، فإن رددته إلَىَّ ، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك[١١٢] ..

ووصل الإخوة إلى مصر ، وطرقوا باب العزيز ، وأوصلوه رسالة والدهم فقرأها . فلم يتمالك البكاء ، وعيل صبره ..

وقد تكون هذه الرسالة من أخبار الكتابيين ..

ولم يرد بشأنها شىء فى القرآن الكريم ..

---

(١١٢) تفسير الوسيط جـ ٢ ص ١٦٤ ، والكشاف جـ ٢ ص ٥٧ .

وفي أسلوبها دليل على وضعها ، حيث قال : وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا ..

فبماذا يفسر فعل أولاده مع أخيهم يوسف ؟ هل هو دون السرقة أو فوق السرقة ؟

ثم إن التهديد الذى ورد فى آخر الرسالة لا يناسب أسلوب الاستعطاف الذى يحقق الحاجة وقد يؤدى إلى الهدف ..

ولكن ما أجمل حوار القرآن بين الإخوة ويوسف ، وفيه بلاغة ألف رسالة ورسالة ..

قالوا له : يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ..

فهل هناك شكاة أبلغ من هذه ؟

إنها تتضمن كل ما هم فيه من آلام حسية ومعنوية ..

أما الآلام الحسية فهى الهزال والجوع ، وذلك القحط الذى أهلك الحرث والنسل وقضى على الزرع والضرع وأكل الأخضر واليابس ..

ومع الجدب والجوع يأتى المرض والخراب ..

وأما الآلام المعنوية ، فتلك الأمراض النفسية المترتبة على الفقر والجوع والقحط ، وذلك الحزن الشديد الذى ترتب على فقدان الأب ابنه الثانى بعد فقدان ابنه الأول ، وما هم فيه من معاناة قاسية بسبب ذلك ..

وكأنهم قالوا له : يأيها العزيز لقد أتعبتنا شدائد الزمن ، وحاقت بنا ضوائق الأيام ونكبات الحياة ، ونحن من أسرة كريمة ، وسلالة آباء أعزاء ، وفى حاجة إلى أن تنظر إلينا نظرة خاصة فيها مزيد من العطف والرحمة ..

وقد مهدوا بكل ذلك ليقدموا ما معهم من بضاعة زهيدة ثمنًا لما هم فى حاجة إليه من طعام فقالوا :

وجئنا ببضاعة مزجاة، والبضاعة المزجاة هى القليلة التى لا يقبلها كل أحد.

لقد كانت هذه البضاعة من متاع الأعراب صوفًا وسمنًا ، وقيل : هي من السويق والأقط ، وقيل : كانت قديدًا ، وقيل : هي من الصنوبر والحبة الخضراء التي تعصر زيتًا فيعمل منه الصابون ، وقيل : كانت نعالاً وأدمًا ..

ورجا الإخوة العزيز أن يقبل هذه البضاعة ثمنًا لما يقدمه لهم من طعام ، وأن يتصدق عليهم نظرًا لحالتهم التي وصفوها ..

لقد أظهروا من حالهم وشكواهم ما يعطف عليهم النفوس ويرقق عليهم القلوب ..

وليس في ذلك من بأس عند الضرورة ..

إن الإنسان يخاف فيفزع إلى من يؤمنه ، ويمرض فيلجأ إلى الطبيب ليعالجه ، وليس في ذلك قدح في التوكل ..

إن الشكوى عند الضرورة جائزة - بل واجبة عند الفقهاء - ما لم يكن مبعثها التسخط لقضاء الله ..

ولكن الصبر والتجلد وبخاصة في النوائب أفضل ، والتعفف عن المسألة أجمل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى - عز وجل - كما جاء على لسان يعقوب - عليه السلام - وحكاه الله - تعالى - « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله »[١١٣].

وتلطف الإخوة في طلبهم ، وقدموا وصف حالتهم بين يدي مسألتهم ..

ثم طلبوا من العزيز شيئين في نظير البضاعة المزجاة التي جاءوا بها ..

طلبوا كيلاً وافيًا ، وصدقة ..

لقد طلبوا من يوسف ضمنًا أن يغض النظر تمامًا عن رداءة البضاعة التي قدموا بها .. وأن يكيل لهم كيلاً وافيًا بها ، وفي ذلك صدقة مخفية .. والصدقة المخفية هي التي تكون في البيع والشراء ..

---

(١١٣) تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ٣٤٨٢ .

ليس المقصود بقولهم « تصدق علينا » مفهوم الصدقة العادية ، لأن هذه الصدقة تحرم على الأنبياء ، وقد ورد فى أوصاف النبى - ﷺ - أنه يقبل الهدية لا الصدقة ، وكانت الصدقة محرمة على أهل بيته ..

وإذن فمقصود الصدقة فى قولهم هى أن يزيد لهم فى العطاء وأن يتفضل عليهم بما هو أكثر من حقهم ..

ولبعض العلماء فهم دقيق في قولهم : تصدق علينا .. هو أن يتصدق عليهم برد أخيهم إليهم وهذا أقرب إلى القبول .

ولو أن هناك قلبًا مقدودًا من صخر استمع إلى كلام هؤلاء الإخوة بين يدى العزيز وهم يصفون حالهم ويعرضون مسألتهم ويستعطفون قلبه لتقطر رحمة بهم وشفقة عليهم ..

فما بالك بقلب نبى ابن نبى ، وهو منهم وهم منه ؟ إنه أخوهم ..

إن قلبه قد لان قبل أن يعرضوا مسألتهم ، وهو بعد أن عرضوها أصبح أشد لينًا ، لقد نسى ما حدث منهم تمامًا ، وكأنه لم يكن لقد آن الأوان أن يكشف لهم عن نفسه ، وأن يضع حدًا لهذا الأمر وأن ينهى هذه المأساة ويجعل لها خاتمة سعيدة ..

ولقد نظر إلى والده الشيخ الذى عذبته الأحداث ، وصهرته المحن ، وأرهقته الآلام فلم يشأ أن يعذبه أكثر من ذلك ..

فقال لهم فى أسلوب استفهامى لين ، يثير به أذهانهم ويستلفت به عقولهم ، ويستثير به ضمائرهم : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟

ومع ذلك فما أحلمه فى مخاطبتهم وما أرقه فى الاعتذار عنهم ..

ذكرهم بفعلهم واعتذر عنهم بجهلهم لمغبة ما فعلوا .. لأن الذى يصنع القبيح على جهل بمقدار قبحه خير من الذى يصنعه وهو عالم بقبحه .. وقد اعتذر موسى - عليه السلام - عن فعلته التى فعلها بقتله الغلام

المصرى قائلاً : « فعلتها إذًا وأنا من الضالين »(١١٤). وكأنه قال لهم : لقد زين لكم الشيطان وأنتم فى حداثة الشباب أن تكيدوا ليوسف وأخيه ، ودبرتم مؤامرة شيطانية استللتم بها يوسف من بين يدى والده ، وجردتموه فى غلظة من ثيابه ، وألقيتم به فى قعر جب مظلم موحش ، وفرقتم بينه وبين والده ..

فهل تذكرون ذلك ؟

ووقع هذا الكلام على إخوته وقوع الصاعقة.. وانتابتهم حالة من الذهول والحيرة..

إنه يذكر الأحداث كما وقعت تمامًا .. ويعرف من الأسرار ما لا يعرفه أحد سواهم .. فمن أعلمه بذلك ؟

لقد أخذ يوسف يقص عليهم تفاصيل ما حدث منهم فى ذلك اليوم ، ويذكرهم به ..

إن أحدًا لا يعرف هذه التفاصيل إطلاقًا إلا هو وهم ..

فمن يا ترى ذلك الذى يحادثهم بهذه التفاصيل الدقيقة ، ويعيدها أمامهم كأنها قد حدثت اليوم ؟

لقد أخذوا يعودون بذاكرتهم إلى الوراء ، وحاولوا أن يتذكروا ملامح يوسف الصبى باكيًا متضرعًا مودعًا ، ويقارنون بين هذه الملامح وملامح ذلك الرجل الذى يخاطبهم الآن ..

كما أخذوا يفكرون فى قول أبيهم الذى طلب منهم أن يتحسسوا عن يوسف وأخيه ، فإذا بهم يخلصون من كل ذلك بنتيجة لا ريب فيها ، هى أن ذلك الذى يخاطبهم هو يوسف نفسه ..

ولكنهم لم يريدوا أن يلقوا بهذه النتيجة فى أسلوب تقريرى مؤكد ..

بل ساقوها فى أسلوب استفهامى يحفظون به خط الرجعة إن كانوا قد أخطأوا فى الحسبان ..

قالوا له : أئنك لأنت يوسف ؟ ..

أخيرًا أدركوا ..

أبعد هذه الرحلات المتكررة ، واللقاءات المتعددة أحسستم ؟

أين الفطنة التى ما ينبغى أن تغيب عن أولاد الأنبياء ؟

---

(١١٤) تعليق على تفسير الزمخشرى فى الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٠ .

أين الذكاء الذى يدل صاحبه على حقائق تفوت على غيره من الناس ..

هل فكروا فى رحلاتهم السابقة فى الحفاوة الزائدة التى كان يستقبلهم بها يوسف ؟

هل استعملوا عقولهم فى الإلحاح منه على معرفة أحوالهم وأحوال أبيهم ؟

هل نظروا لماذا أصر على أن يحملوا معهم فى المرة الثانية أخاهم ؟

وحين حملوه معهم لماذا فاتهم أن يتدبروا اختصاص يوسف بهذا الأخ وإنزاله معه فى خاصة بيته دونهم ؟

أكل هذه التصرفات تمر دون أن تسترعى انتباههم ؟

فعلى أى شىء يدل ذلك ؟ إنه يدل - إن لم نسىء الظن بفطنتهم - على أن الله أراد أن يضع حجابًا من الغفلة بينهم حتى يحين الوقت المعلوم لانكشاف السر ومعرفة الأمر ..

وإلا فقد كان هناك من الدلائل فى هذه اللقاءات المتعددة ما عسى أن يكشف لهم المستور ، ويظهر لهم المخبوء ..

لقد فاتتهم الألمعية .. والألمعية هى سرعة اللمح والإدراك بالظن مصداقًا لقول الشاعر :

الألمعى الذى يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

وأخيرًا قال لهم يوسف : بلغتهم ليتأكدوا ..

أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا ..

انظروا يا إخوتى .. إلى عاقبة التقوى والصبر ..

وقارنوا بين من يكيد ويبغى وبين من يتقى ويصبر ..

ماذا فعلتم بتدبيركم السيىء ؟ وماذا صنعتم بكيدكم الشيطانى ؟ ها أنتم أولاء فى حالة بائسة .. وها نحن الآن فى هذه الحالة التى تروننا عليها من الملك والسلطان ..

هذه عاقبة التقوى والصبر والإحسان يا من له عينان تبصران وأذنان تسمعان ..

نعم ، أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا .. إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .. .

لقد أصبح المشهد غريبًا .. تغيرت فيه الأشكال والألوان ، واختلطت فيه الانفعالات ، ما بين فرح وخجل ، وخوف واطمئنان ، وصمت وكلام ..

ولم يكن أحد ليستطيع أن يعيد تلك النفوس إلى وضعها الطبيعى ، وأن يهدىء من تلك المشاعر والانفعالات المضطربة المتناقضة إلا يوسف عليه السلام - بحكمته وذكائه وفطنته - ..

فلم يعد فى مقدور إخوته ولا فى استطاعتهم أن يقولوا شيئًا سوى الاعتراف بخطئهم الجسيم ، وطلب العفو والصفح ، واستعطافه حتى يطلب العفو لهم من الله ..

لقد اعترفوا فى قرارة نفوسهم ببغيهم ، وعاقبة البغى وخيمة ..

وليست نتيجة الباغى إلا الخسران ، ونتيجة المبغى عليه إلا النجاح والفوز ..

وها هو أمامهم يرونه وقد فضله الله عليهم ، وبوأه من المنزلة العليا والسلطة ما جعل الجباه تخضع له والوجوه تخشع بين يديه .. وما عند الله خير وأبقى ..

لقد أعطاه الله الملك والنبوة .. فأى إيثار أعظم من ذلك ؟ وأى فوز أكبر من ذلك الفوز ؟

أى شمس حاولوا أن يطمسوها ؟ وأى نور أرادوا أن يطفئوه ؟

قالوا له : بلسان الاعتراف والاستعطاف :

تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ..

وكان يوسف - عليه السلام - كريمًا كعادته ، رحيمًا كالعهد به ، فعفا عنهم ، ولم يوجه إليهم حتى مجرد اللوم ، ورَجا لهم المغفرة من الله فهو أرحم الراحمين ..

وأتبع ذلك بطلبه منهم أن يعودوا إلى كنعان ويأتوا بأهلهم أجمعين ليقيموا معه فى مصر ، وينعموا فى ظله بالرخاء والأمن ، بعيدًا عن الجدب والقحط .

وأعطاهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم ، فإن ريحه سوف تعيد إلى عينيه الإبصار وإلى جسده القوة وإلى روحه الانتعاش وإلى قلبه السرور والفرح ..

وهذه هى الآيات الكريمة التى تصور هذه الأحداث أصدق تصوير وأبلغه :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١١٥]

لقد تضمنت الآيات من روائع الحكمة والمثل ما يفوق الحصر ..

ويكفى من ذلك ما تشير إليه من وجوب تسلح المؤمن بالرجاء والأمل ، وللعارفين فى تفسير الرجاء أقوال جليلة ..

فمن ذلك : الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود ..

---

(١١٥) الآيات ٨٧ : ٩٣ من سورة يوسف .

ومن ذلك : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ..

ومن ذلك : الرجاء قرب القلب من ملاطفة الرب ..

ومن ذلك : الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى[116]..

إلا أنهم اشترطوا ألا يركن المؤمن إلى الرجاء وحده فيسلمه هذا إلى التقصير فى حق الله تعالى . كما اشترطوا ألا يركن إلى الخوف وحده فيسلمه هذا إلى القنوط واليأس وهذا يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله ..

والعاقل هو الذى يراوح بين الرجاء والخوف مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وادعُوه خوفاً وَطَمعاً إن رحْمةَ الله قريبٌ من المحْسِنين ﴾[117]

ويرى بعض المفسرين أن إخوة يوسف عرفوه حين تبسم ..

وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، وقالوا : إنهم عرفوه حين وضع التاج على رأسه ، فقد كان فى قرنه علامة تشبه علامة فى قرن يعقوب . وهو دليل من دلائل الحسن فى يوسف الذى استوفى المحاسن واستجمع من ألوان الجمال أقصاها ..

وقد استشهد النبى – ﷺ – عام الفتح بكلام يوسف لإخوته .. وقصة ذلك أنه بعد أن دخل مكة فاتحًا سنة ثمان من الهجرة . أقبل حتى أخذ بعضادتى الباب ، والناس قد لاذوا جميعًا بالبيت ، لأن مناديه قد نادى قائلاً : من دخل البيت الحرم فهو آمن ..

ثم قال : الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ..

وأقبل على قريش – وقد آذته وحاربته وطردته – قائلاً : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

---

(١١٦) الرسالة القشيرية ص ٦٧ .

(١١٧) الأعراف .

قالوا : خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ..

قال - ﷺ - : وأنا أقول كما قال أخى يوسف « لا تثريب عليكم اليوم » يغفر الله لكم .. اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

ما أعظم هذا الحلم ، وما أروع هذا الكرم ، وما أجمل هذا العفو ..

ولكن لا عجب فهذه هى أخلاق الأنبياء - عليهم السلام - .

القميص :

لقد شفى الله يعقوب بقميص يوسف .. فما قصة هذا القميص ؟

قال الرواة : إنه القميص الذى أتى به جبريل - عليه السلام - لإبراهيم وهو ملقى فى النار فألبسه إياه ، وهو قميص من حرير الجنة ..

وكسا إبراهيم إسحاق هذا القميص .. وكساه إسحاق يعقوب ، وأدرج يعقوب هذا القميص فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين .. وظل هذا القميص مع يوسف يحتفظ به ..

وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على سليم ولا مبتلى إلا عوفى .

وكان الذى حمل هذا القميص يهوذا . قال : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته وأنا الذى أحمله الآن لأسره ، وليعود إليه بصره .

ولا عجب أن يعود ليعقوب بصره بعد أن فقده ، فتلك معجزة من الله ، وقد ذكر بعض أطباء العيون وأساتذتهم أنه إذا كان العمى سببه الحزن الطويل والبكاء لا تستبعد عودة البصر لصاحبه(١١٨)..

---

(١١٨) يوسف الصديق ص ٩٧ . المنتخب من التفسير . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

دعاء علمه عزرائيل ليعقوب :

قال بعض الرواة : إن يعقوب طلب من عزرائيل ملك الموت أن يخبره إن كان قد قبض روح يوسف . فعدل عزرائيل عن الإجابة على هذا السؤال وقال له : ألا أعلمك كلمات ؟

قال يعقوب : بلى ..

فقال له : قل يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه غيرك ..

فقالها يعقوب فى ليلته ، فما أصبح الصباح إلا وقميص يوسف على وجهه فارتد بصيرًا ..

ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين :

وكان يعقوب – عليه السلام – ينتظر عودة أبنائه بقلب الأب ، وأحاسيس النبوة والرسالة ..

لقد كان يتنسم أخبارهم ، ويولى وجهه شطر الغرب لعله يستقبل ريحًا منهم ..

وبمجرد أن خرجت عيرهم من أرض مصر متجهة إلى الشرق ، شعر بسعادة غامرة ، وأشرقت نفسه بنور من عند الله ، وأحس بانشراح عظيم فى صدره .. وأدرك أن الحزن الذى كان جاثمًا على قلبه قد بدأ ينزاح شيئًا فشيئًا ..

لقد ظهرت نضارة البشر على وجهه بعد أن كانت الجهامة تغطيه سنين طويلة ..

وغزا الأمل قلبه فلم يعد لليأس مكان فيه ..

إنها الحاسة التى لا تكذب ، بل هو اليقين الإيمانى ، وهو إلهام النبوة الصادق ، وفراسة المؤمن التى لا تخون ..

هى إمكانية النظر على البعد التى يمنحها الله لمن يشاء من عباده ..

ثم لماذا هذا كله ؟ أليس هو نبيًا من الأنبياء ؟

والأنبياء يرون ما لا يراه غيرهم ، ويسخر لهم ما لا يسخر لغيرهم .

قالوا : إن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف ، قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأتته بها ..

وقالوا : إن يعقوب وجد ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ..

وقالوا : هبت ريح فلابست القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : « إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » فقال أحفاده : « تالله إنك لفى ضلالك القديم »[119]..

لقد خطَّأ هؤلاء قوله ، وسفَّهوا رأيه .. واتهموه بأنه يعيش فى وهم خاطىء ، وأمل كاذب ، وخيال لا ظل له من الحقيقة .

ولم يطل بهم الانتظار ، حتى تأكدت لهم رؤية يعقوب الصادقة وإحساسه الصائب ..

لقد جاء يهوذا يزف البشرى بلقاء يوسف ، ويخبر بصدق يعقوب – عليه السلام – وينادى بأن يوسف حى يرزق ، وهذا قميصه ..

وألقى القميص على وجه يعقوب فارتد بصيرًا ..

فحمد الله وشكره على هذه النعمة الغامرة والمنة الوافرة ..

ونظر إلى أولاده نظرة فيها عتاب صامت . ثم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ..

فأسرع الأولاد إلى أبيهم – وقد شعروا بخطئهم – يستعطفونه ، ويطلبون منه أن يستغفر لهم ربه ..

---

(١١٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٣٩ .

فوعدهم بذلك قائلاً : سأستغفر لكم ربى ..

لم يستغفر لهم فور طلبهم . كما فعل يوسف حين قال لهم لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ..

ولكنه وعدهم بالاستغفار ..

وما ذلك لهوانهم عليه .. ولكنه أراد أن يتحرى وقت إجابة الدعاء ..

لقد أراد أن يعلمهم أن للدعاء أوقاتا معلومة يستجاب فيها ..

ومن تلك الأوقات .. وقت السحر . لقوله تعالى : وبالأسحار هم يستغفرون ..

وفجر يوم الجمعة ، وبعد صلاة العصر ..

واستغفر يعقوب لأولاده .. قام إلى الصلاة وقت السحر ، وبعد أن أتم صلاته رفع يديه قائلاً : اللهم اغفر لي جزعى على يوسف ، وقلة صبرى عليه ، واغفر لولدى ما فعلوا بأخيهم ..

فأوحى الله إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين ..

لقد أدرك الأولاد أن تسامح الوالد معهم وعفوه عنهم لا يجديان ما لم يغفر الله لهم ، ولذلك أصروا على أن يستغفر أبوهم لهم ربهم .. قائلين :

ما يفيدنا عفوك وعفو يوسف ما لم يعف عنا ربنا ، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبدًا ..

عند ذلك قام يستغفر لهم ويؤمن يوسف على دعائه[١٢٠]..

وهذا الخبر إن صح فإنما يدل على أن الاستغفار تم عقب مجيء الشيخ إلى مصر ..

---

(١٢٠) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٠٤

ولكن طلب الإخوة استغفار أبيهم لهم كان قبل ذلك . كان عقب عودتهم إلى كنعان وتبشيره بحياة يوسف ، وإلقاء القميص على وجهه فارتد بصيرًا .. ولذلك فإن هذا الخبر يحتاج إلى تمحيص ..

أو أن طلب طلب الاستغفار منهم كان مكررًا ، مرة قبل لقاء يوسف بأبيه ، ومرة بعد لقائه به .. ومن آداب الاستغفار أنه لا يقتصر على مرة واحدة ..

وحين جاء البشير ليعقوب لم يجد يعقوب شيئًا يثيبه به .. فدعا له دعوة صالحة ، قال له : هون الله عليك سكرات الموت ..

ولم يقبل البشارة منه إلا بعد أن سأله : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على دين الإسلام ..

فقال يعقوب : الآن تمت النعمة[١٢١]..

دعاء السحر :

إن أفضل الأوقات فى الدعاء هو وقت السحر . وقد وردت فى ذلك أثار مشهورة : منها ما ذكره الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال : بأبى أنت وأمى ، تفلت القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه . فقال رسول الله - ﷺ - : أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟

قال : أجل يا رسول الله . علمنى ..

قال : إذا كان ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الأخير ، فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخى يعقوب لبنيه : « سوف أستغفر لكم ربى » يقول حتى تأتى ليلة الجمعة[١٢٢]..

---

(١٢١) تفسير القرطبى.

(١٢٢) المرجع السابق.

ومما يرويه ابن جرير الطبرى قال :

« كان عمر يأتى المسجد فسمع إنسانًا يقول : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحَرَ فاغفر لى .

قال : فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » وقد قال - تعالى - : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾[١٢٣].

والحديث الذى رواه الشيخان واضح الدلالة على أن لوقت السحر خصوصية فى استجابة الدعاء ، وهو : « يتنزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ »[١٢٤].

دخول مصر :

وشد الجميع رحالهم إلى مصر وسط مشاعر الفرحة والابتهاج .

وكأن الساعات كانت تمضى وئيدة بطيئة يستحثها الشيخ على الإسراع لينعم برؤية ولده الذى طال شوقه إليه .. وحالت الأيام بينه وبينه سنين طويلة ، اختلف الرواة فى تقديرها ..

ولكنه يمكن بقياس التفكر بيانها ..

فقد ألقى فى الجب صغيرًا دون البلوغ ، وبلغ أشده فى بيت العزيز ، ويمكن أن تكون سنه فى بيت العزيز حين المراودة سبع عشرة سنة ، ألقى

---

(١٢٣) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٢٥٢ . وتفسير الطبرى جـ ١٣ ص ٤١ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٦١ .

(١٢٤) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، وأخرجه مسلم كذلك - راجع الأحاديث القدسية حديث رقم ٦٢ جـ ١ ص ٧٢ .

ألقى بعدها فى السجن سبع سنين ، ثم خرج فجاءت السنون الخصبة وعددها سبع وبعدها السنون الشداد وعددها سبع كذلك ورحل إخوته إليه ثلاث رحلات فى ثلاث سنوات فتكون المدة تقريبًا فى حدود الأربعين أو فوقها أو دونها بقليل ..

وهذا ما يتفق مع المنطق والسياق ..

أما تقدير هذه المدة بثمانين سنة كما زعم البعض أو ثمانى عشرة سنة كما زعم البعض الآخر ففيه تجاوز ، ومجافاة للحقيقة ..

ووصل الركب إلى حدود مصر حيث كان يوسف في استقبالهم عند « بلبيس » بالشرقية حاليًا ، وكان يطلق عليها أرض جاشر ..

ولا يبعد أن يكون ملك مصر قد خرج مع يوسف لتلقى هذا الموكب القادم الذى سبقه يهوذا مبشرًا بقدومه ..

فقد كان ليوسف منزلة سامية أطلقت يده فى البلاد ، وأخضعت الملك نفسه له ، وقد تبوأ هذه المنزلة باستحقاق ، لما قام به من تدبير حسن أنقذ به البلاد من الخراب والهلاك ، وأنقذ به العباد من الجوع والعناء .. وبما أعطاه الله من هبة النبوة وسناء الحكمة وجمال المنظر الذى يأسر وحده القلوب ..

ولقى الموكب كل الترحيب من المستقبلين ..

ولا تسل كيف كان لقاء الأب بابنه ولقاء الابن بأبيه .. فإن ذلك أمر يعز على الوصف ويجل عن البيان ..

وما بالك بلقاء أب لابنه وقد ظل يبكى على فراقه طوال أربعين عامًا أو تزيد حتى ابيضت عيناه من الحزن ؟

إنها الفرحة الطاغية والسرور البالغ والبهجة التى لا تدانيها بهجة أو تعادلها فرحة ..

وأوى يوسف إليه أبويه ، وضمهما شوقًا وحبًا ..

وقال لهما ولإخوته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ..

وحين وصلوا إلى مقر الحكم .. أجلس يوسف أبويه على العرش ولم يملك الجمع حين رأوا هذا الجلال ليوسف .. إلا أن يخروا بين يديه ساجدين وكانت هذه هي التحية التى يُحَيًّا بها الملوك فى تلك الآونة .. لقد سجد الأبوان والإخوة الأحد عشر .. وتحققت الرؤيا التى سبق أن رآها يوسف ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ ..

وحين رأى يوسف سجود أبويه وإخوته .. قال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًا ..

وأخذ يقص عليهم ما لقيه بعد فراقهم تذكيرًا بحق النعمة التى أنعم الله بها عليه وعليهم حتى يشكروا الله حق شكره ..

لقد لقى من المصاعب ما يعجز كثير عن احتماله .. فقد دخل السجن وخرج منه معززًا مكرمًا مرتفعًا فوق عرش مصر .. مذكورًا على كل لسان مشارًا إليه بكل بنان مطوى حبه فى كل جنان ..

واجتمع شمله بمن يحب ، فقد جاء أبوه وإخوته من البدو وعاد الوئام بعد تلك الجفوة التى كان الشيطان سببًا فيها ..

والآن ها هو يوسف عزيز مصر ، وها هو يعقوب يجلس على عرش ابنه وسرير حكمه .. وهى نعمة جديدة بأن تقابل بالعرفان ، ويظل أصحابها أبد الدهر مدينين لها بالشكران ..

ولنقرأ الآيات التى أشارت إلى هذه الأحداث :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا

كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[١٢٥]

ولعلنا نتذكر أن إخوة يوسف وصفوا أباهم فى أول القصة بالضلال حيث قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا إن أبانا لفي ضلال مبين ..

وهاهم أولاده فى آخر القصة يقولون له : تا الله إنك لفى ضلالك القديم ..

ولم يقصد الإخوة ولا أبناؤهم بالضلال هنا ضلال الدين ، وإلا لخرجوا عن ربقة الإسلام إلى ربقة الكفر والطغيان ..

وإنما قصدوا بالضلال عدم تبين وجه الصواب والرشاد ، بغلبة حبه لولديه على الباقين ، وإيثار يوسف وبنيامين بالتفضيل دونهم ، وهذان اثنان وهم عشرة ..

لقد رأوا أن أباهم لم يتحر وجه العدل فى المعاملة بينهم .. وذلك أمر يقتضى الالتفات إليه والتنبه له حتى لا يترتب على ذلك شقاق بين الأبناء .

وإذا كان بيت النبوة قد تعرض لهذه الهزة العنيفة من جراء عدم العدل فى المعاملة والتسوية بين الأبناء فى الحب والإقبال ، فصنع إخوة يوسف ما صنعوا معه .. فمن باب أولى يمكن أن تتعرض بقية البيوت لما هو أكثر من ذلك ..

---

(١٢٥) الآيات ٩٥ : ١٠٠ من سورة يوسف .

ودارت الأيام بعد ذلك ، وحملت ريح الصبا إلى يعقوب ريح يوسف فقال في محضر أحفاده إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون .. فقال له هؤلاء الأحفاد - فقد كان أباؤهم غائبين في مصر - : تا لله إنك لفي ضلالك القديم .. إنك لفي خطئك الماضي من غلبة حب يوسف على قلبك حتى أنساك بقية إخوته ..

وعلى هذا ينبغي أن يفهم معنى الضلال في الموضعين ..

أما قوله - تعالى - ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ ..

فالأبوان هما يعقوب وليًا ..

وليًا هي خالة يوسف - عليه السلام - التي حضنته بعد وفاة أمه « راحيل » ، وكان يعقوب قد تزوج من ليًا وراحيل وهما أختان تزوج ليًا أولاً ، ثم راحيل بعدها ..

وقامت ليًا مقام أمه .. بحقين ، حق أنها زوجة أبيه فهي كأمه .. وحق أنها خالته والخالة بمنزلة الأم ..

وهذا هو التأويل المنطقي الذي يتمشى مع أحداث القصة ..

أما قول من يقول : إن الله أحيا راحيل له حتى سجدت له مع الساجدين تحقيقًا للرؤيا ففيه تجوز كبير ..

حقًا إن الله لا يعجز عن إحياء الميت ، ومن معجزات الأنبياء ذلك ، ولكن أي ضرورة لذلك والعرف السائد في الشعوب جميعها قديمها وحديثها يقضي بأن زوجة الأب تقوم مقام الأم ولا سيما إذا كانت ذات رحم قوية من الأم المتوفاة ؟

وأخيرًا صدقت رؤيا يوسف ، وتحققت بعد مضي سنين طويلة ، تقدر بالمدة التي سبق أن بيناها وهي في حدود أربعين سنة ..

قال العلماء : إن أخر ما تبطىء به الرؤيا أربعون سنة(١٢٦) .

دعاء يوسف :

لم ينس يوسف – عليه السلام – نعمة ربه ..

وظل يذكرها مفصلة قائلاً :

رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث .

وهاتان نعمتان جليلتان ، ما اجتمعا لعبد إلا تم له الكمال ..

ولا سيما إذا كان الملك ملك مصر ، وقد قال الإخباريون : إن ملك مصر أعرق ملك وأعظمه .. ولم لا يكون كذلك وقد افتخر به فرعون بعد ذلك فى قوله : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ ..

ولم يكن ملك فى تلك السنين الغابرة إلا فى مصر .. يدل على ذلك حضارتها الزاهية الضاربة فى أعماق التاريخ ..

وتأويل الأحاديث منحة إلهية لا تعطى لكل إنسان ..

تذكر يوسف أن الله أتم عليه نعمته ..

وأدرك يوسف أن النعمة – ربما تغيره وتفتنه – فطلب من الله العصمة من الغرور حتى يوافيه أجله المحتوم وهو على بينة من أمره ومكنة من دينه ، فإذا توفاه الله توفاه على الإسلام ..

وهى أعظم منة يمن الله بها على عباده ..

ولذلك قال يوسف مناجيًا ربه .. وما أعظمها مناجاة .. ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(١٢٧) ..

---

(١٢٦) تفسير القرطبى .

(١٢٧) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

لم يكن ذلك تمنيًا للموت كما يقول بعض المفسرين ..

وإنما هو التجاء إلى الله أن يعصمه فى دينه ، وأن يسدده فى شكر نعمته حتى تكون وفاته على دين الله الذى شرعه للبشر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾[١٢٨] .. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[١٢٩] ..

لقد كان يوسف – عليه السلام – متأدبًا بآداب ربه ، فلم يطلب الموت ولم يتمنه . والدين ينهى عن ذلك إلا فى الفتن والخوف من عاقبتها . وقد روى أنس – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : لا يتمنين أحدكم الموت لاضر نزل به ، إما محسنًا فلعله يزداد ، وإما مسيئًا فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى ﴾[١٣٠] ..

تعليقات وتعقيبات على القصة :

١ – وقعت أحداث هذه القصة كما رأينا بين كنعان ومصر ..

فقد وُلد يوسف فى فدان آرام بالعراق ، وكانت نشأته الأولى فى كنعان بالشام ، ثم انتقل إلى مصر حيث بيع بها ، وكانت فيها نشأته الثانية ، وظل بها حتى وفاته ..

وكان بيعه بمصر فى عهد الغزاة الأجانب الذين يسمون بالهكسوس .. وهم ساميون قدموا إلى مصر من بلاد الشام ، واحتلوا دلتا النيل حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد ، قبل نهاية الأسرة الثالثة عشرة ، وحكموا مصر حوالى قرن ونصف من الزمان ، حيث طردوا – حوالى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ،

---

(١٢٨) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (١٢٩) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(١٣٠) أخرجه البخارى ومسلم .. ذكره النووى فى رياض الصالحين حديث رقم ٥٨٣ ص ٢٠٣ .

على يد أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة - إلى ما وراء الحدود المصرية[١٣١].

٢ - وصف القرآن الكريم هذه القصة بأنها من أحسن القصص ..

وقد وصفت بهذا الوصف لتناولها أحداثًا كثيرة متنوعة ، وجاءت كاملة في سورة واحدة ، ولم تتوزع هذه الأحداث في سور متعددة كما توزع غيرها من القصص .. ولأن هذه الأحداث حافلة بالمفاجآت التى تنتهى بعواقب حميدة على الرغم من عنفها . فالإلقاء فى الجب مثلاً كان يتوقع من ورائه التلف وإذا به يفضى إلى أن يصبح يوسف فى قصر عزيز مصر ..

وبيع يوسف كان يتوقع من ورائه الإذلال فإذا به يفضى إلى السيادة .

والمراودة كان يتوقع من ورائها السقوط فى الفتنة فإذا بها تؤدى إلى العصمة ..

والسجن كان يتوقع من ورائه الذل وإذا به يفضى إلى التربع فوق عرش الوزارة ..

ولقاء الإخوة كان يتوقع من ورائه الانتقام منهم جزاء ما فعلوا معه فإذا به يفضى إلى التجاوز والصفح والإحسان ..

وكل المضايقات التى حاقت بيوسف آل أمرها إلى خير ، يحقق مضمون الأثر الكريم :

« لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع »..

قال ابن الخطيب :

« إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقى فى الجب ..

« ولو لم يلقوه فى الجب لما وصل إلى عزيز مصر ..

---

(١٣١) المنتخب من التفسير - سورة يوسف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

« ولو لم يتفرس فيه عزيز مصر الأمانة والصدق لما أمنه على بيته وأهله ..

« ولو لم تراوده امرأة العزيز لما ظهرت عفته ونزاهته ..

« ولو لم تفشل فى إغرائه لما ألقى فى السجن ..

« ولو لم يسجن لما التقى به صاحباه فى السجن .. ولما كان ذلك سبيلاً إلى تأويل رؤيا الملك ، ولما وصل إلى خزائن مصر أمينًا عليها ..

« فالقصة من أحسن القصص إذ أن ظاهرها محرق وباطنها مشرق وبدايتها مؤلمة ونهايته مفرحة »[١٣٢] ..

٣ – وفى القصة عظات وعبر تستخلص من أحداثها ..

فهى تدلنا على وجوب العدل فى المعاملة بين الأولاد ، وعدم التفرقة بينهم ، فلا ينبغى أن يخص بعض الأولاد بمزيد من الحب والعطف والعطاء دون الآخرين ، فإنّ ذلك يؤدى إلى التنافر بينهم ، وقد يؤدى إلى القطيعة ، فالعداء ، فالانتقام كما حدث من إخوة يوسف ..

وقد أورد ابن الأثير فى ترجمة النعمان بن بشير أنه أتى النبى – ﷺ – فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلامًا ، فقال رسول الله – ﷺ – : « أكلّ ولدك نحلت مثل هذا ؟ فقال : لا .. فقال رسول الله – ﷺ – : فارجعه »[١٣٣] ..

وفى رواية قال رسول الله – ﷺ – : لا أشهد على جور ..

وفى القصة نهى عن الحسد الذى يؤدى إلى البغى ، والبغى مرتعه وخيم ..

وقد أدى حسد الإخوة أخاهم إلى ما رأينا من خداع للأب حتى أسلمهم يوسف ، ثم بطشوا به وبغوا عليه ، وألقوه فى غيابة الجب حتى مرت به السيارة الذين اشتروه وباعوه . وهو طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه ..

---

(١٣٢) يوسف الصديق – بتصرف – ص ٣٧ .

(١٣٣) اسد الغابة جـ ٥ ص ٣٢٧ ط دار الشعب ..

وقد اضطرهم تصرفهم إلى الكذب والافتراء ..

كذبوا على أبيهم أولاً وآخرًا .. فقد ادعوا أولاً أنهم يريدون يوسف للترويح عنه ، ومشاركته إياهم فى مرحهم .. ثم ادعوا آخرًا أن الذئب أكله وهم فى غفلة عنه ..

وافتروا على الذئب زورًا ، والذئب منه براء ..

وحكى بعض الرواة أنهم اصطادوا ذئبًا وادعوا أنه هو الذى أكله ..

فأنطقه الله ليعقوب – عليه السلام – وأنكر ما نسب إليه ..

وإن صح هذا الخبر فهو من طريق المعجزة لنبى الله يعقوب – عليه السلام – وقد ذكر الرواة أن الذئب تكلم فى عهد النبى – ﷺ – .

ذكر الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان » :

قال : عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : بينما راع يرعى بالحرة ، إذ عدا الذئبُ على شاة فحال الراعى بينه وبينها ، فأقعى الذئب على ذنبه ، وقال : يا عبد الله ، تحول بينى وبين رزق ساقه الله إلَىَّ ؟

فقال الرجل : واعجبا ذئب يكلمنى ؟

فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب منى ؟ هذا رسول الله – ﷺ – بين الحرتين يخبر الناس بأنباء ما قد سبق .

فزوى الراعى شياهه إلى زاوية من زوايا المدينة ، ثم أتى النبى – ﷺ – فأخبره ، فخرج رسول الله – ﷺ – فقال : صدق والذى نفسى بيده[134].

---

(١٣٤) حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص ٦٣٧ . قال : ورواه الحاكم فى المستدرك بإسناد على شروط مسلم .

وقال : كلم الذئب من الصحابة ثلاثة : رافع بن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، وأهيان بن أوس الأسلمي - رضى الله عنهم - .

وقصة أهيان هى المتقدمة .. وبه يضرب المثل فيقال : هو كذئب أهيان .. ويقولون : أهيان مكلم الذئب ..

وروى البخارى : قال : أنبأنا شعيب عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : بينما راع فى غنمه إذ عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعى فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السبع يوم لا راعى لها غيرى ؟[١٣٥].

والمقصود بيوم السبع يوم الفتن حين يترك الناس أغنامهم هملاً لا راعى لها فينفرد بها الذئب ، وهذه الأخبار وإن كانت العقول تتوقف فى مدى صحتها لكننا نقول : إذا تعلق الأمر بمعجزة إلهية فلا مجال لأحكام العقول وتصوراتها .

وفى القصة امتداح للعفة وبيان لفضل أثرها ..

وقد عصم الله يوسف - عليه السلام - من شر الإغواء ، ونجاه من فتنة المرأة ..

ويضرب بيوسف - عليه السلام - المثل فى ذلك .. بل المثل فى أكثر من ذلك ..

فقد عف عن المرأة وهى متهيئة له فى أبهى زينتها وكامل أنوثتها ورقة استعطافها وشدة تهالكها عليه .. وهو فى كامل شبابه وقوة رجولته ، وكان فى إمكانه أن يفعل بها ما تريد ، ولكنه عزف عنها ابتغاء رضوان الله ..

---

(١٣٥) المرجع السابق .

وأتاه الله المال وأصبح أمينًا على خزائن مصر ، ومصر إذ ذاك أغنى دول العالم وإليها يقصد الناس من كل مكان طلبًا للرفد والقوت والمعونة ، ومع ذلك كان أزهد الناس في ذلك المال ، ولم يتمتع بطيباته ، بل أثر عنه أنه كان يطوى بطنه جوعًا فى أغلب أحواله ، ولما سئل فى ذلك قال : أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقير ..

وأتاه الله الملك وأبهة السلطان فبلغ قمة التواضع والزهد ، وكان بين الشعب كفرد منهم ، إلا أنهم كانوا أهيب له من الملك نفسه ، لأن التواضع في ذاته رفعة ، والنبى - ﷺ - يقول : من تواضع لله رفعه ..

وهذه الفتن الثلاث : المرأة والمال والحكم .. هى التى تضل الناس وتشعل الصراع بينهم وتغرى بالعداوة والأحقاد ، ومع ذلك فقد ترفع عن كل ذلك ونأى بجانبه عنها حتى أصبح مثلاً أعلى في ذلك ..

وبحسبنا أن نتأمل سلوكه الطيب فنقتدى به فننجو من كثير من الشرور والآثام والمتاعب ..

ولقد بلغ يوسف - عليه السلام - القمة في الحسن ، حتى افتتنت بحسنه النساء ، وحتى ذهلن عن أنفسهن فقطعن أيديهن .. ولكن أجمل من حسنه الحسى ، ترفعه ، وصيانته هذا الحسن بالعفة والمروءة .

فإن الجمال الحقيقى هو جمال النفس لا جمال الحس ، هو جمال المخبر لا جمال المظهر ، وقد تنبه لذلك الحكماء جميعًا ، وهذا هو الشاعر العربى يقول :

ليس الجمال بمئزر ۞ فاعلم وإن رُدِّيتَ بُرْدا
إن الجمال معادن ۞ ومناقب أورثن حمدا

فإذا اجتمع الجمال الحسى والجمال المعنوى فقد جمع صاحبه الكمال من أغصانه ، وحاز الجلال فى أردانه ..

وفى القصة بيان لفضيلة التقوى ..

والتقوى هى التى جعلت يوسف يقول : معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى ..

فقد استعاذ بالله ليقيه شر خيانة من ائتمنه ..

وما أفظع الخيانة وما أقبح مرتكبها .. والشريف لا يخون اليد التى امتدت له بالإحسان ، والتقى لا ينظر بعين الغدر إلى من أعطاه الأمان ..

ولابد من أن يمد الله رعايته على المتقى فينقذه من مأزقه ، مصداقًا لقوله - تعالى - : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴾[١٣٦] ..

وعلى سنن يوسف سار الأتقياء الذين يخافون سوء الحساب .. وقد حدثوا أن رجلاً صالحًا وقع فى شراك امرأة راودته عن نفسه وغلقت دونه الأبواب ، فانزوى فى ركن من البيت وقال : لقد قلت يارب وقولك الحق ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴾ وهأنذا قد اتقيتك فأين المخرج ؟

قالوا : ففتحت له طاقة إلى الخارج انسل منها دون أن يراه أحد .. ونجا .. ومثل هذا لا يجافى الواقع أو تكذبه الوقائع .. فما من لاجىء إلى الله بصدق النية وقوة اليقين إلا كان الله معه ونجاه من كيد الكائدين ..

وفى القصة من حسن العواقب للصابرين ما يعلِّم الناس التخلق بخلق الصبر والحرص عليه ..

ولقد صبر يوسف على ما أصابه فنال جزيل الثواب وظفر بأحسن العواقب ..

ولئن كان الصبر مر المذاق فى أوله إلا أنه جميل الطعم فى آخره ..

من الآية ٢ من سورة الطلاق.

وما صبر إنسان على ابتلاء الله إلا نجاه الله وأجزل مكافأته .. وفى قصة يوسف شواهد متعددة لذلك ..

فقد صبر على كيد إخوته ، وصبر على البقاء فى قاع البئر ، وصبر على كيد المرأة وصبر على مرارة السجن ، وصبر على ألسنة السوء ، وصبر على البعد عن أبيه ووطنه ..

كما صبر على مكابدة الطاعة والمثابرة عليها ، وعلى مشاق الدعوة إلى الله وعدم التردد فيها ، وانتهاز كافة الفرص الممكنة للإعلان عنها .. حتى فى داخل السجن الذى يكون الناس فيه مشغولين بأنفسهم عن أى شىء آخر ..

التعمير واستصلاح الأراضى أفضل وسيلة لمواجهة الأزمات :

وفى القصة طرف من آداب الملوك وما ينبغى أن يكونوا عليه من حسن سياسة رعاياهم ، وقوة التدبير لهم فى معاشهم وسائر أحوالهم .. والبحث لهم عمن يصلح ليأخذ بأيديهم فى أزماتهم ويضع لهم الخطط الناجحة فى النهوض بأحوالهم ورفعة شأنهم ..

وقد أحسن الملك فى اختيار يوسف وزيرًا للاقتصاد والتموين ، كما أحسن يوسف فى وضع الخطة التى اجتازت بها البلاد الأزمة وعبرت بها المحنة ..

ولم يدع يوسف – عليه السلام – الشعب إلى تحديد النسل ليتغلبوا على جائحة الجوع ، ولكنه دعا إلى الاستكثار من الزرع وإدخار المحصول . فقد قال له الملك : وما التدبير لسنوات الجدب ؟ قال يوسف : ازرعوا زرعًا كثيرًا فى السنين المخصبة ، ثم احصدوه وذروه فى سنبله وقصبه ، وكذلك جميع الحبوب ، وابنوا لها مخازن ، فيكون القصب علفًا للدواب والحب قوتًا للناس[١٣٧].

---

(١٣٧) بدائع الزهور ص ١٠٠ .

إنه لا ينبغى للملك أن يختار للوزارة إلا من شهد الناس له بالكفاءة والمقدرة ، ولا ينبغى أن يختار بالوجاهة أو المنظر أو القرابة أو المحاباة ..

وفى القصة من دروس العفو عند المقدرة ما يجعلنا نقف عند هذه الصفة مشدوهين ، معجبين بجانب الرحمة فى نفس يوسف وقد رفعته عن مقام الانتقام أو التشفى - أو التقريع على الأقل - .

لقد قابلهم مقابلة كريمة فى كل مرة ، ورفض أن يأخذ منهم ثمن ما قدمه لهم من قوت .. وكان يحسن ضيافتهم فى كل مرة ..

وحين كشف لهم عن نفسه لم يقرعهم أو يوبخهم على ما فرط منهم .. بل قال لهم : لا تثريب عليكم يغفر الله لكم ..

وقد أخذ النبى - ﷺ - عن يوسف هذه الكلمة فقال لأهل مكة الذين حاربوه وكذبوه وآذوه هو ومن معه ودبروا قتله حتى اضطروه إلى الهجرة .. « لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

ولولا ما تشير إليه هذه العبارة من نهاية الرحمة والتجاوز عن المسىء ما أخذها النبى - ﷺ - .

ولقد كان لهذه القولة أثرها الطيب فى استلال سخائم النفوس وانتزاع دوافع الكراهية والحقد سواء من إخوة يوسف . أو من أهل مكة ..

والقصة تعلمنا كيف نشكر الله على نعمته ونحمده على منته ، نعترف بفضله ونسبح بآلائه ، ونذكره دائمًا ولا نغفل عنه ونثنى عليه بما هو أهل له وندعوه فى السراء والضراء ..

فهذا يوسف – عليه السلام – وقد أتم الله عليه نعمته ، فنجاه من كل كيد ومكنه فى الأرض وبوأه عرش مصر ، وجمع بينه وبين أبويه وإخوته ، وأعطاه النبوة . لم ينس فى لحظة من اللحظات فضل الله عليه وها هو ذا فى لحظة القمة والشعور بالسعادة يتجه إلى الله ضارعًا إليه مناجيًا مثنيًا عليه بكل جميل ، فيقول بلسان الذل والانكسار « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » ..

ذلك لأنه يعلم أن مفاتيح الخير كلها بيد الله ، جلت قدرته ..

وأن السعادة الحقيقية لا تكون فى المال أو الجاه أو السلطان .. ولكنها فى الإيمان بالله تعالى ..

ولو أوتي الإنسان مهما أوتى من خير فى الدنيا وسلب اليقين فكأنه لم يؤت شيئًا .. إنه يكون كمن قيل فى حقه : ماذا يفيد الإنسان إذا ملك كل شيء وفقد نفسه ؟

أجل ماذا يكسب الإنسان إذا خسر الإيمان ؟

أكل كنوز الدنيا تعوض ما خسره أو تعدل ما فقده ؟

كلا ، إن العقلاء من الناس أدركوا أن متاع الدنيا زائل ونعيمها فان ، وزينتها غرور ..

ولقد ضرب الله للحياة الدنيا مثلاً فقال :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ (١٣٨)

ونعى على عمى القلوب الذين وقفوا عند حدود زينة الحياة الدنيا وحسبوا أنها هى كل شىء فقال لهم :

الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود (١٣٩).

لقد أدرك يوسف – عليه السلام – ذلك فطلب من الله حسن الختام .. لأن أهم ما يحرص عليه المؤمن أن يكون لقاؤه بالله لقاء رضا ومغفرة وسلام .. ولا يكون ذلك إلا إذا توفاه الله على الإسلام وختم له بالإيمان وألحقه بالصالحين من عباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

وفى ذلك توجيه لنا حتى لا يجرفنا تيار الدنيا فننسى فى غمرتها العمل للآخرة ، والادخار من طيبات الأعمال لها ..

هذا درس وما أعظمه من درس ..

لقد كان يوسف قمة فى الصبر ، وكان كذلك قمة فى الشكر فهنيئًا له جاز الفضيلتين ، وجمع بين المزيتين .. وكان صادقًا فى هذا وذاك فتوجه الله بلقب الصِّدِّيق وما أعظمه من وسام وأشرفه من لقب ..

يوسف فى القرآن الكريم :

لقد ذكر الله اسم يوسف فى القرآن الكريم سبعًا وعشرين مرة فى ست وعشرين آية ..

منها أربع وعشرون آية فى سورة يوسف وحدها ..

وآية فى سورة الأنعام ، وآية فى سورة غافر ..

---

(١٣٨) الآية ٢٠ من سورة الحديد . (١٣٩) الآيتين ١٥ ، ١٦ من سورة هود .

أما آية الأنعام فهى قوله – تعالى – :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[140]

والضمير فى قوله « له » يعود على إبراهيم – عليه السلام – وهذا يشير إلى أن يوسف من ذرية إبراهيم – عليهما السلام – وقد مر بنا الأثر الذى يقول : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. فيوسف – عليه السلام – كريم من ذرية كرماء . فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وكلهم نبى كريم . وإبراهيم هو أبو الأنبياء عليهم السلام .

وقد مرت بنا فى أثناء القصة الآيات التى وردت فى سورة يوسف ، وفيها ذكر يوسف – عليه السلام – .

أما آية سورة غافر فهى :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[141].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى رسالة يوسف – عليه السلام – .

رسالة يوسف :

ورسالة يوسف امتداد لرسالة آبائه من قبله ، وكل الرسالات لا تخرج فى مضمونها عن الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان باليوم الآخر والحث على مكارم الأخلاق ..

---

(١٤٠) الآية ٨٤ من سورة الأنعام.　　(١٤١) الآية ٣٤ من سورة غافر.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١٤٢).

وهذه هي رسالة الإسلام التي جاء بها خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وأبلغ يوسف – عليه – رسالة ربه لم يتوان فيها، ولم يقصر فيها حتى أثناء وجوده في السجن..

وكان أهل مصر الذين أرسل فيهم يوسف – عليه السلام – أهل أوثان يعبدون آلهة شتى. فقد عبدوا الشمس، وعبدوا العجل، وعبدوا النهر وعبدوا الجعران، وعبدوا فرعون..

ومكث يوسف – عليه السلام – يبصرهم بالصواب ويرشدهم إلى الحق ولكنه لم يؤثر فيهم قليلاً..

قال ابن كثير في تفسيره: كان يوسف – عليه السلام – وهو عزيز مصر يدعو أهلها إلى الله بالقسط، فما أطاعوه إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى، ولهذا قال لهم مؤمن آل فرعون: فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً..

هل هناك يوسف آخر؟

وقال بعض المفسرين: إن هناك يوسف آخر هو المشار إليه فى هذه الآية وهو يوسف بن إبراهيم «أفرائيم» بن يوسف بن يعقوب وهو حفيد يوسف الصديق.

بعثه الله فى أهل مصر فأقام فيهم عشرين عامًا يدعوهم إلى الله(١٤٣).

وحكى ذلك القرطبى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وروى بعضهم أن يوسف المشار إليه فى الآية كان نبيًا من الجن أرسله الله إلى أهل مصر(١٤٤).

---

(١٤٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء. (١٤٣) الزمخشرى فى الكشاف جـ ٤ ص ١٦٦.
(١٤٤) تفسير القرطبى – تفسير سورة غافر ص ٥٧٥٦ حكاه عن النقاش عن الضحاك.

وهو كلام غريب ، فما سمعنا عن نبى من الجن أرسل إلى الإنس ..

ولو صح أن يكون هناك أنبياء من الجن لصح أن يكون هناك أنبياء من الملائكة .. وهذا ما نفاه القرآن ..

يعقوب فى مصر :

أقام يعقوب وأبناؤه وأحفاده فى مصر .. وخصص لهم ملك مصر أراضى زراعية فى شمال بلبيس يقيمون بها . وهى أنسب لهم لأنهم رعاة ماشية وهى قوام حياتهم ، يقال إنها أرض جاسان أو جاشان ..

وقد صادفت هذه الإقامة هوى من نفوسهم ، لأنهم ابتعدوا عن مخالطة المصريين الذين كانوا يعبدون الأوثان ..

وكفاهم يوسف مئونتهم – كما ذكرت التوراة –[١٤٥] ورتب لهم الطعام على حسب الأولاد ..

وكان إخوة يوسف قد تابوا وأنابوا وأدركوا خطأهم ، وعرفوا لأبيهم حقه ، وليوسف مكانته ، فنعموا برعايته ورضاه عنهم واستغفاره لهم ..

الأسباط :

ويطلق على أولاد يعقوب اسم الأسباط . والأسباط جمع سبط وهو الحفيد .. وهؤلاء هم أحفاد اسحاق – عليه السلام – وقد ورد ذكر الأسباط فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ، فى خمسة مواضع[١٤٦]، تشهد بقربهم من الله . ومنها قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

---

(١٤٥) الإصحاح ٤٧ من سفر التكوين ، ونص العبارة : فأسكن يوسف اباه وإخوته واعطاهم ملكًا فى ارض مصر فى افضل الأرض فى ارض عميس كما أمر فرعون ، وعال يوسف اباه وإخوته وكل بيت ابيه بطعام ..

(١٤٦) البقرة الآيتين ١٣٦ ، ١٤٠ ، وآل عمران الآية ٨٤ ، والنساء الآية ١٦٣ ، والأعراف ١٦٠ .

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾[١٤٧].

وفى ضوء هذه الآيات رأى بعض المفسرين أن هؤلاء الأسباط كانوا أنبياء لأن ذكرهم ورد فى معرض من يوحى إليهم ، والذين يوحى إليهم أنبياء ..

ولكن ابن الخطيب نفى كونهم أنبياء وقال : « هو وهم شنيع ، فقد جرت عادة المولى - سبحانه وتعالى - أن يرسل رسله وأنبياءه من خاصة الخاصة ، فكيف ينبىء الله - تعالى - هؤلاء الإخوة ، وقد عقوا أباهم ، وقطعوا أرحامهم ، وكذبوا كذبًا بينًا ، وحاولوا قتل أخيهم وتسببوا فى استرقاقه ، وبيعه فى بلاد الكفر بيع العبيد ، لولا أن تداركه المولى جل شأنه بلطفه وعنايته »[١٤٨].

إنه يرى أن الأنبياء معصومون بالفطرة من صدور مثل ما صدر من هؤلاء سواء كان قبل النبوة أم بعدها ..

وهى وجهة نظر سديدة ، لكنها تتعارض مع ما ذكره القرآن الكريم عن هؤلاء الأسباط قد أوحى إليهم كما ورد فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ﴾[١٤٩].

اللهم إلا أن نفسر الأسباط على أنهم الأنبياء الذين تناسلوا من أولاد يعقوب حيث أن السبط هو ابن الابن ويكون المراد أنهم أحفاد يعقوب .

ولكن أكثر المفسرين على أن الأسباط هم أولاد يعقوب وأحفاد إسحق عليهما السلام وقد أوحى إليهم بنص القرآن الكريم وذكروا ضمن أنبياء أوحى الله إليهم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

---

(١٤٧) الآية ١٣٦ من سورة البقرة . (١٤٨) يوسف الصديق ص ٩٥ .

(١٤٩) الآية ١٦٣ من سورة النساء .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[١٥٠].

وعلى ذلك فنحن نرى أنهم نبئوا بعد أن تابوا من فعلتهم واستغفر لهم يعقوب عليه السلام فقبل الله توبتهم وغفر لهم.

وفاة يعقوب :

أقام يعقوب فى مصر سبع عشرة سنة ..

كانت سنه حين قدم مصر مائة وثلاثين سنة ..

وآذنه الله بالموت شأن كل حى ، فجمع أولاده وأوصاهم ..

لقد حمله على وصاتهم ما رآه من أهل مصر وما كانوا يعبدون من أوثان ونيران وبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال لهم ما تعبدون من بعدى ؟[١٥١].

وهذا ما ذكره القرآن الكريم فى قوله – تعالى – :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[١٥٢]

حكى أنه حين خير كما تخير الأنبياء اختار الموت ، وقال : أمهلونى حتى أوصى بنيَّ وأهلى ، فجمعهم وقال لهم : ما تعبدون من بعدى ، قالوا : نعبد إلهك .. الخ ..

---

(١٥٠) الآية ١٣٦ من سورة البقرة .   (١٥١) القرطبى جـ ٢ ص ١٣٦ ط دار الكتب .
(١٥٢) الآيتين ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

فسُرَّ بذلك فأوصاهم بالاستمساك بما هم عليه وعدم التفريط فيه .

كما أوصاهم بأن يدفن فى فلسطين عند أبويه اسحاق وإبراهيم ..

فلما مات أمر يوسف الأطباء أن يحنطوه – وفن التحنيط فى مصر قديم يشهد لبراعة الأطباء فيه التاريخ – .

فحنطوه ، وحملوه إلى فلسطين ودفن حيث أشار .

وخشى إخوة يوسف أن يتنكر لهم يوسف بعد وفاة أبيهم ، ولكنه كان كعهدهم به صفوحًا كريمًا . فعادوا إلى مصر بعد أن دفنوا أباهم يقيمون بها فى بر وعافية وخير وطمأنينة .

قال المسعودى : قبور إبراهيم واسحاق ويعقوب فى فلسطين مشهورة على ثمانية عشر ميلاً من بيت المقدس فى مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم[١٥٣].

وللمسعودى رأى فى نبُوة أولاد يعقوب فقد قال : كان اسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير إلى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثنى عشر وهم : لاوى ، ويهوذا ، ويسافر ، وزبولون ، ويوسف ، وبنيامين ، ودان ، ونفتالى ، وكان ، وأشار ، وشمعون ، وروبيل . هؤلاء هم الأسباط الاثنا عشر .

قال : والنبوة والملك فى عقب أربعة منهم هم : لاوى ، ويهوذا ، ويوسف ، وبنيامين ..

وذكر المسعودى أيضًا سببًا لمخالفة أولاد يعقوب له .. قال :

كثر جزع يعقوب من أخيه العيص – وهو عيصو – فأمنه الله من ذلك ، وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم ، فوعد يعقوب أخاه

---

(١٥٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٤ .

العيص بالعشر من غنمه استكفاء للشر وخوفًا من سطوته – من بعد أن أمنه الله عز وجل من خوفه . وأخبره ألا سبيل له عليه – فعاقبه الله فى ولده بعدم وثوقه فى وعد ربه .

فأوحى الله إليه : ألم تطمئن إلى قولى ؟ فلأجعلن ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عامًا . بعدد عُشر الأغنام التى وعد أخاه بها .

قال : وهى المدة عندما ضربت الروم بيت المقدس واستعبدت بنى إسرائيل إلى أن فتحه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ظل الإسلام[١٥٤].

ويفهم من هذا أن الروم من نسل عيصو . وما ذكره المسعودى يتعارض مع ما ذكره كثير من المؤرخين من أن الخلاف بين يعقوب وأخيه عيصو كان قد انتهى تمامًا بعد عودة يعقوب عليه السلام بأولاده من بلاد العراق حيث كان يعمل عند خاله الذى زوجه بنتيه ، وقد استقبله عيصو عند عودته استقبالاً حسنًا أزال ما كان بينهما من شقاق .

يوسف المصلح :

كانت إقامة يوسف فى مصر خيرًا وبركة عليها ، فقد دبر أمرها أحسن تدبير ونشر فيها الإصلاح ، واستصلح أراضى للزراعة لم تكن موجودة ومد قنوات للماء ، ومن ذلك مدينة الفيوم التى عمرها . فهى منسوبة إلى يوسف – عليه السلام – .

وذكر الرواة فى قصة إقامتها ما يأتى :

إن أهل مصر كانوا قد وشَوْا بِهِ إلى الملك ، وقالوا : قد كبر ونقص نفعه فاختبره .

---

(١٥٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٤ .

فقال له : إنى وهبت هذه الناحية لابنتى - وكانت مغايض للماء - فدبرها لها . فأنشأها يوسف على أحسن نظام وأكمله فى مدة وجيزة ..

فعجبوا من حكمته . ويقال : إنه أول عمل هندسى بمصر ..

لقد مد يوسف ثلاثة خلجان إلى هذا الإقليم .. خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، وخليج الفيوم وهو الخليج الشرق ، وحفر خليجًا آخر يطلق عليه الخليج الغربى .

فكان الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له مثلاً ولا نظيرًا .

وبعد أن فرغ من بنائها أشار إلى تعميرها ، وقال للملك : أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت ، وامر أهل كل بيت أن يبنوا لأنفسهم قرية . فكانت قرى الفيوم بعدد كور مصر(١٥٥)..

ثم صير إلى كل قرية من الماء ما هم فى حاجة إليه لشربهم وسقى زروعهم ومواشيهم .. وإليه ينسب الخليج المشهور الذى يسقى الفيوم بأسرها ويسمى ببحر يوسف .

وما زالت مقاطعة الفيوم حتى يومنا هذا من أخصب بلاد مصر وأغناها بالخضر والفاكهة ..

وهكذا كانت حياة يوسف - عليه السلام - فى مصر كلها رخاء وتعمير ..

نهاية لابد منها :

عاش يوسف فى مصر فى ظل ملكين من ملوك العمالقة الأول منهما الريان ابن الوليد ، وكان يكبر يوسف ويعظمه ، بعد أن فسر له الرؤيا التى رآها ، وجعله على خزائن مصر وأطلق يده فى كل شيء فأحسن التدبير وتصريف الأمور ..

---

(١٥٥) خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٥٩ .

ومات الريان وجاء بعده ابنه دارم بن الريان .. ولم يكن مثل أبيه في معرفته لحق يوسف وفضله ..

وفي زمان دارم هذا كانت وفاة يوسف – عليه السلام – وكان ليوسف عقب كما سبق أن أشرنا .. فقد ذكروا أن له ولدين هما افرائيم وميشا وهو فى التوراة « مِنَسًا » ..

وكانت مدة إقامة يوسف في مصر بعد وفاة أبيه يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة ، وحين دنا أجله جاءه ملك الموت وهو يريد أن يركب على فرسه فلما وضع رجله فى الركاب قال له ملك الموت : أخرج رجلك من الركاب فهذا وقت الانقلاب .

فلما أيقن يوسف بالموت جمع إخوته وقال لهم : لا تقيموا بعدى فى مصر ، وأوصاهم حين يخرجون من مصر أن يأخذوا معهم جثته ..

ومات يوسف – عليه السلام – ووضعوه فى حوض من رخام وجعلوه في أحد جانبى النيل فأخصب دون الآخر ، فوضعوه فى الجانب الثانى فأخصب دون الآخر . فوضعوه في وسط النيل .. فلما فعلوا ذلك أخصب الجانبان[١٥٦] ..

وكانت وفاته قبل زليخا .. مات وقد جاوز المائة سنة ، وذكرت التوراة أن سنه حين مات كانت مائة وعشر سنين[١٥٧].

ودارت الأيام ، ونسي ملوك مصر فضل يوسف وما صنعه ، وجحدوا ما كان لبنى إسرائيل من أعمال طيبة ، فأقبلوا عليهم يعذبونهم على نحو ما وصف القرآن الكريم .. وعلى ما سيأتى – إن شاء الله تعالى – بعد ذلك فى قصة موسى – عليه السلام – .

---

(١٥٦) بدائع الزهور ص ١٠٧ .

(١٥٧) الاصحاح الخمسون من سفر التكوين.

وأرسل الله موسى – عليه السلام – وخرج ببني إسرائيل من مصر عابرًا البحر الأحمر بمعجزة عظيمة ، ضرب البحر بعصاه فانفلق اثنا عشر طريقا لكل سبط من الأسباط طريق عبروا عليه إلى الجانب الشرقي ، ثم ارتد كما كان فأغرق فرعون وجنوده ..

وكان موسى قد بلغته وصاة يوسف حين طلب من إخوته أن يحملوا جثمانه معهم في أثناء خروجهم .. ولكن الإخوة كانوا قد ماتوا وجاء من بعدهم أجيال وأجيال تعاقبت فيها على حكم مصر أربع أسر ..

فسأل موسى عند مكان تابوت يوسف ومكان قبره ..

وما زال يبحث حتى دلته عليه عجوز كانت قد عميت وشاخت . قالت له : لا أدلك عليه حتى تدعو الله أن يرد إليَّ بصري وصحتي وأن يجعلني معك في الجنة .. فدعا لها فرد الله عليها بصرها وقوتها .. فدلته على مكان القبر ، فاستخرجه من قاع النهر ..

وحمله معه موسى حيث دفن إلى جوار آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب – عليهم السلام – ..

وقد ورد في ذلك أثر عن ابي موسى الأشعري – رضي الله تعالى عنه – قال : إن النبي – ﷺ – نزل بأعرابي فأكرمه . فقال له النبي – ﷺ – : يا أعرابي سل حاجتك ، فقال : يا نبي الله ناقة نرحلها وأعز بحلبها أهلي ..

فقال – ﷺ – : أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟

قالوا : يا رسول الله ، وما عجوز بني إسرائيل ؟

قال – ﷺ – : إن بني إسرائيل خرجوا من مصر فضلوا الطريق وأظلم عليهم ، فقالوا : ما هذا ؟ قال علماؤهم : إن يوسف – عليه السلام – لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقًا من الله ألا نخرج حتى ننقل عظامه معنا .

فقال موسى : ومن يعلم موضع قبره ؟ قالوا : عجوز بنى إسرائيل ، فبعث إليها فأتته . فقال : دلينى على قبر يوسف . قالت : وتعطينى ما أسألك ؟ قال : وما سؤالك ؟ قالت : « أكون معك فى الجنة »[١٥٨]..
الجنة »[١٥٨]..

* * *



---

(١٥٨) ذكره الحاكم فى المستدرك بروايتين ، ورواه الطبرانى وأبو يعلى الموصلى بنحو هذه الرواية ، وذكره الدميرى فى حياة الحيوان جـ ٢ ص ٥٩٣ باب الناقة .

تنبيه

نرجو القارىء الكريم تصويب الأخطاء الواردة فيما يأتى :-

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	الثالث من أسفل	رقم ٢٠	رقم ١٢٧
٢٦	الأخير	رَبُّكُمْ	رَبُّكُمْ
٧٤	١٨	يَتَّبع	يَتَّبع
١٦٠	السطر الأخير من الهامش	الآية ٦٩ الى ٧١	٧٠ الى ٧١
١٧٣	السطر الأخير من الهامش	الآية ١٣٣ من سورة النحل	١٢٣

فهرس المجلد الثانى

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
	زواجه من ابنتي خاله – عودته إلى الشام – نذره بناء بيت الله – لقاؤه بأخيه – ابناؤه – رسالته – يعقوب والمحنة الكبرى .
١٧٥	يوسف – عليه السلام مولد يوسف – رؤيا يوسف – أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا وشرده بثمن بخس – دعاء الفرج – أكرمى مثواه – قوة ارادة يوسف – الحلم . تفسير الحلم – وشهد شاهد من أهلها .
٢٠٦	مكان سجن يوسف – هى نسى يوسف ربه ؟ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى – وقال الملك ائتونى – قال اجعلنى على خزائن الأرض .
٢٣٦	وجاء إخوة يوسف ، يابنى لاتدخلوا من باب واحد .
٢٥٧	قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا – من أفهام أهل الذوق سر العداء بين الأخوة .
٢٦٨	اذهبوا بتفحيص هذا فألقوه على وجه أبى – القميص .
٢٨١	دعاء علمه عزرائيل ليعقوب .
٢٨٤	دعاء السحر .
٢٨٥	دخوله مصر .
٢٩٠	دعاء يوسف .
٢٩١	تعليقات وتعقيبات على القصة .
٢٩٨	التعمير واستصلاح الأراضى أفضل وسيلة لمواجهة الأزمات .
٣٠١	يوسف فى القرآن الكريم .

الصفحة	الموضوع

